أعلام المسلمين

٨٦



تأليف
د. محمد رجب البيومي

دار القلم
دمشق

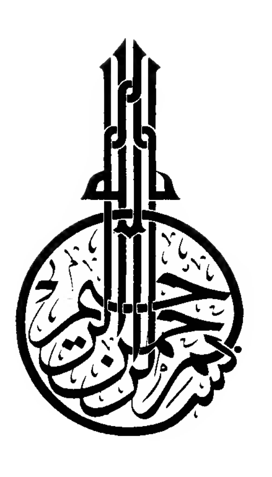
أعلام المسلمين
٨٦



الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي

تأليف
د. محمد رجب البيومي

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هذا الرجل

إنه لم يخلق في عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود في سيرته كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل الفريد.

عباس محمود العقاد

مفكر فيلسوف باحث متجرد لفكرة عاش لها حياته كلها وما أطولها بعيدًا عن مجالات الشهرة والتألق وإحداث الدويّ كأنما هو زاهد لا يتطلّع إلى شيء في الحياة غير أمرٍ واحد هو أن يقول كلمته.

إنه من النماذج القلائل في تاريخ الفكر الإنساني بين آنٍ وآخر، لتكون مهيأة بالعقل والعلم والقلم لأداء دور كبير.

أنور الجندي

الكاتب والباحث الموسوعي مؤلف (دائرة معارف القرن العشرين) في عشرة مجلدات، وعدد من الكتب في فضل الإسلام وموقفه من المدنية، وفي الرد على الماديين، وقد تولى تحرير (مجلة الأزهر) نيفاً وعشرين سنة.. محمد فريد وجدي.

يوسف القرضاوي



مقدمة

لا أرى أنَّ ظُلماً فادحاً نزل بسيرة مفكّرٍ عظيم، كهذا الظلم الذي حاق بذكرى البحاثة الموسوعي الضليع، والكاتب الإسلامي الأكبر الأستاذ (محمد فريد وجدي) رحمه الله، فإننا نشهد الكتبَ تُؤلَّف، والمقالات تُنشر، والأحاديث تُذاع، دائرةً حول أناسٍ لم يبلغوا مبلغ تلاميذه في الفكر، ولم يُعطوا معشارَ ما أعطى من العلم، ولم يُرزقوا بعض ما تحلّى به من مكارم الأخلاق، وسموّ النفس، ولين الجانب، وتلك حالٌ تدعو إلى التساؤل حقاً، حالٌ اندهش لها تلميذه الأستاذ عباس محمود العقاد حين قال في خاتمة مقالٍ له عنه[1]:

«إن يكن اليوم لا يذكر حقّ ذكراه، فما هو بالخمول، ولا هو بالقصور عن حق التاريخ، ولكنَّه يعيش في عزلةٍ من دنيا التاريخ، كما عاش أيامَه في عزلةٍ من دنيا الحياة».

نعم لماذا يعيش الآن في عزلةٍ من التاريخ، ولدينا مئات الرسائل

---

(١) رجال عرفتهم، ص١٥٦.

العلميـة في كليات الجامعات المختلفـة، يتَّجه أصحابها في كثيـرٍ من أحوالهم إلى دراسة أناسٍ لم يُعطوا إلا القليل، ثم تتكرر الدراسة عن هؤلاء تباعاً، لينقلَ اللاحقَ عن السابق، مع أنَّ المجالَ محدودٌ، والحاصلَ معدودٌ، على حين يُترَكُ عملاقٌ كبير له في باب الاجتماع أثر، وفي دنيا التاريخ شاهد، وفي ساحات النقد والجدل مواقف، وفي باب التفسير كتاب، وفي الدفاع عن الإسلام ميدانٌ أيُّ ميدان، وكلُّ ناحيةٍ من هذه النواحي جديرةٌ برسـالةٍ خاصة، يقوم بها باحثٌ ممتاز، ويشرف عليها أستاذٌ ضليع، هـذا إذا كُنّا نزاول الجادّ من الأمور، ولا نلجأ إلى الدعة والراحة.

وهذا الغَبْن الذي أدركَ الأستاذَ بعد رحيله، لحقه أيضاً في حياته، وهو غَبْنٌ مر، تحدَّث عنه الأسـتاذ الكبير (داود بركات) رئيـس تحرير جريدة الأهرام، وهو يومئذٍ في طليعة الصف الأول من كتّاب المقال الافتتاحي اليومي، في أعرق صحف الشرق، تحدَّث عنه متعجِّباً مستغرباً حين قال في أسف، بعد صدور (دائرة معارف القرن العشرين)، إذ أفردَ الافتتاحية الصادرة بتاريخ ٣/ ٥/ ١٩٢٥ بالثناء على هذه الموسـوعة الحافلة ذات المجلدات العشرة، ثم ذكر فيما قال:

«رجلٌ واحد مفرد، يقوم بعملٍ جادٍّ، يسهر له الليالي، لا ليتلألأ على صدره نيشان، ولا لترفعَ له رتبة، أو يقامَ له حفلُ تكريم، والمسؤولون مشغولون بكلِّ شيءٍ عن العلم والأدب، ولا يعرفون عن المؤلف إلا أنه أديبٌ كاتب، على حين تجد المنافقَ والدسَّاس والمداجي، يقدَّم على

صاحب (دائرة المعارف) في كلِّ شيءٍ، يقدَّم عليه بالمال ينصبُّ عليه انصباباً، وبالمقام يرتفع ويعلو، وبالتقديم الذي لا ينتهي عند حدٍّ، أما (وجدي) فإنه في عزلة، وإنه مجهول.

وقد يكون سلوكُه المترفِّع عن الأهواء الهابطة في دنيا الملق والتزلُّف أحدَ بواعث هذا الانطواء، ولا حيلةَ له في مجانبةِ سلوكٍ لا يراه محترماً على رائدٍ معلّم يدعو إلى أرقى الفضائل الإنسانية، وينفرد بين الباحثين جميعاً باعتناق مثلٍ أعلى في السلوك لا يحيد عنه.

والأستاذُ العقاد ضنينٌ بالثناء على من لا يستحق، ولكنه يتحدث عن الأستاذ (محمد فريد وجدي) في هذا المسلك فيقول:

«لقد عرفنَا في عصره طائفةً غير قليلة من حملة الأقلام، ورجال الحياة العامة، فلم نعرف أحداً منهم يماثله في طابعه الذي تفرَّدَ به في حياته الخاصة والعامة، وفي خلقه وتفكيره، وفي معيشته اليومية، أو معيشته الروحية، وأوجزُ ما يقال عنه في هذه الحالات جميعاً: إنه لم يُخلق في عصره من يتقاربُ المثلُ الأعلى والواقعُ المنشود في سيرته كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل الفريد، نعم الفريد حتى في لغة الجناس، لأنَّ اسمه فريد، والفريد حتى في عزلته، لأنه كان في عزلة النسّاك والرهبان، عليماً غاية العلم بالتحليل والتحريم».

وتمرُّ مواسمُ الذكرى عاماً بعد عام، فنقرأُ عن الراحلين ما نقرأ، ولا نكاد نقرأ شيئاً عن الأستاذ محمد فريد وجدي! ومع هذا الجحود

المطبق فقد صدر عن الرجل أثران بارزان كتبَهما باحثان مُخْلصان للحقيقة هما الأستاذ الكبير (أنور الجندي) والدكتور البحاثة (محمد طه الحاجري) إذ أصدر الأول سنة ١٩٧٤ كتاباً جيداً، تحت عنوان (محمد فريد وجدي رائدُ التوفيق بين العلم والدين) قال في مقدمته عن الرجل: إنـه مفكِّرٌ فيلسوف باحثٌ متجرِّدٌ لفكرةٍ عاش لها حياته كلَّها، وما أطولها، بعيداً عن مجالات الشهرة والتألُّق وإحداث الدويّ، كأنما هو زاهد، لا يتطلَّع إلى شيءٍ في الحياة غير أمرٍ واحد هو أن يقولَ كلمته، إنه من النماذج القلائل التي تظهر في تاريخ الفكر الإنساني بين آنٍ وآخر، لتكون مهيأةً بالعقل والعلم والقلم لأداء دورٍ كبير»، وكتابُ الأستاذ الجندي تفصيلٌ شافٍ لهذه المعاني، وقد قدَّمتُ الحديث عنه، لأنَّ الكتاب أُلِّفَ منذ سنواتٍ طويلة قبل ظهوره، إذ تأخَّرت المطبعة الحكومية عن إذاعته، وكأنها كانت تستكثر أن يظهرَ كتابٌ صادق في زمنٍ كاذب.

أما كتابُ الأستاذ الدكتور (محمد طه الحاجري) فقد بلغ من النفاسة في التحليل والاستيعاب ما لا يُستغرَبُ من بحاثةٍ كبير مثله، ولكنَّه اقتصرَ على المرحلة الأولى من حياة الباحث الكبير، واعداً أن يُعقبه بجزءٍ تالٍ، وقد عاقه مرضُ عينيه عن إيفاء هذا الوعد المترقَّب.

وما أخرجه الحاجري في كتابه خلاصةُ محاضراتٍ ألقاها على طلاب معهد البحوث والدراسـات العربيـة فأجادَ وأبدع، وقد قال في مقدمة كتابه: «إنَّ الشخصية التي يرجو أن يتوفَّر على درسها أو دَرْس بعض جوانبها هي شـخصيةُ رجلٍ من أقـوى هؤلاء الروّاد في جهـاتٍ

مختلفة، وإن كان أول هذه الجهات وأقواها وأشدّها سيطرةً على سائرها هو الإصلاح الديني، وكان له فيه رأيُه ومنهجه ووجهة نظره، وقد جمعَ له نفسَه، وأخلصها له، وأمدَّها من أجله بكلٍّ ما استطاع أن يمدَّها به، ولبثَ على ذلك طيلةَ حياته ما استطاعَ أن يمسك بالقلم».

أما الذي لم يُطبع إلى الآن فهو رسالةٌ علمية أشرفتُ عليها بجامعة الأزهر، تقدَّم بها الباحث الدكتور (هشام محمد البيه) المدرِّس بكلية الدراسات الإسلامية العربية بدمياط تحت عنوان (أدب المقال الديني عند فريد وجدي)، وقد قال في مقدمة بحثه: «إنَّ عمله كان عسيراً شاقاً لتفرُّق نتاج الأستاذ بين عشرات الصحف والمجلات، وللإهمال الشديد الذي لحقه من أصحاب الدراسات العلمية، الذين اتَّجهوا إلى غيره، وتحيَّفوه بالإهمال، وكأنه لم يكنْ ملء السمع والبصر بنتاجه الكريم، ومنهجه في الحياة» والرسالةُ موفَّقةٌ جداً، وقد نالت درجة الامتياز، وأرجو أن ترى النور عن قريب.

وأصارحُ القارئ أنّي مع إعجابي المفرط بآثار الرجل، وإلمامي بالكثير مما كتَب، قد تهيَّبتُ أن أخصَّه بالحديث المستقل في كتابٍ خاص، فجعلتُ أنشر عنه مقالاتٍ شتى في الصحف، ثم ثنَّيتُ فجمعتُ طائفةً ممتازة من مختار مقالاته في خمس مجموعات، شُفعتْ بمقدماتٍ كاشفة، فنالتْ تقديرَ الجيل الجديد من القراء! هؤلاء الذين لم يكونوا يعرفون عن الرجل شيئاً!.

ثم جاءني خطاب كريم من الأستاذ الفاضل محمد علي دولة، يقترحُ عليَّ أن أسارعَ بكتابٍ شامل يعرِّف به، وقد تهيأ لي كثيرٌ من المواد، ففكرتُ وفكرت، ثم رأيت أن أبذلَ ما أستطيع، بعيداً عن التهيُّب السابق، فتمَّ هذا العمل في هذه الصفحات، وإذا لم تبلغ المدى من التوفيق، فقد قطعت بضع خطوات في أول الطريق..

والحقّ أنَّ مؤلَّفات الرجل هي كلُّ شيءٍ في تاريخ حياته، إذ لم يتولَّ منصباً حكومياً، إلا ما كان من رئاسته لتحرير مجلة (الأزهر) في أعوامه الأخيرة، وهو منصبٌ علميٌّ بكلِّ الاعتبارات، لذلك كانت مهمة دارسه هي الوقوف على آثاره، ومحاولةُ تحليلها، وكشف اللثام عن اتجاهاتها، وهذا ما حاولتُ، فإذا رأى القارئ اهتماماً بالمؤلفات يبلغ حدًّا بعيداً من القول، فهذا هو السبيل، وقد احتلَّ الكاتبُ الكبير مكانتَه باحثاً رائداً، ومؤرّخُه ملزَمٌ بمتابعة ما رشح به قلمه من أفكارٍ صائبات.

وقد أعرضتُ عن مناقشاتٍ قام بها معارضون مخلصون، لأنَّ الجميع إسلاميون يحاربون في جهةٍ واحدة، مهما اختلفت الآراء. وتنوُّع الآراء أمرٌ معهود غير مستغرب، وما أريد أن أعيدَ معارك يقترب فيها مدى الخلاف، إذ الرفقاء أمناء مخلصون، وأنا أقدّرهم جميعاً..

وتحيةٌ لروح هذا المثاليّ الفريد في فردوسه الهنيء! إن شاء الله.

د. محمّد رجب البيومي

أيُّ عصر؟!

كانت مهمةُ المصلحين في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين من أشقّ المهام وأصعبها، لأنَّ الدول الإسلامية قد انحدرت إلى درجةٍ فاجعة من الضعف السياسي والديني معاً، وقد وقعت فريسةً للاستعمار القوي بأسلحته المادية والمعنوية معاً، وقد ظهرت نجومٌ مشرقة في هذا الليل الدامس، نجومٌ عرفت حقيقةَ الوضع الراهن الكريه وأسبابه، وأدركتْ ما يدبِّره الأعداءُ من كيدٍ يحاول استئصالَ بقايا الشعور الإسلامي بالعزة والكرامة، فنهضتْ لإزالة الافتراءات المنكرة، بعد أن عَرضت للعلل المزمنة بالشرح والتشخيص، ثم بوصف العلاج!.

نهضت الأقدام المؤمنة لتؤدي دورها في هذه الحرب الضروس، ولن نعرف حقيقة ما كان من جهاد هؤلاء المخلصين إلا إذا اتضحت الصورة الأليمة التي عاش المسلمون في محيطها، وكيف ساعدت القوة الباطشة على زعزعة كلِّ ثقةٍ في الغد، متخذةً ذيولاً لها من الأبواق، وما أكثرهم حين يشمُّون رائحة الصيد، فإنهم يندفعون إلى النفع الشخصي، وإن جلب على ذويهم أشدَّ ضروب النكال.

حين انتهت الحرب العالمية الأولى، ودخل اللورد (ألنبي) بيتَ

المقدس، كان أولَ كلمةٍ قالها: «لقد عُدنا يا صلاح الدين»!! وهي كلمةٌ لا تعبِّر عنه وحده، بل كانت تتردد في خواطر الأوروبيين جميعاً في شتّى دولهم المتفرقة.

فالذين تكالبوا على الاستعمار من فرنسيين وإنكليز وإيطاليين، كانوا يردّدون هذا المعنى في عباراتٍ تتباعد لفظاً وتتفق مضموناً.

وإذا كان صلاحُ الدين هو الذي أنقذَ بيتَ المقدس من الصليبيين فكان لرجوعه للمسلمين رنةُ أسًى تشتعل في نفوس الصليبيين، فإنَّ هذه الرنة ظلَّت من أمسها البعيد تتردَّد في النفوس خافتةً وجاهرة، حتى جاء (ألنبي) فنطق بها بعد أن تحولت الرنة الآسية إلى فرحةٍ غامرة، وكأنه بذلك يقول لأسلافه: لقد جاهدْتُم ما جاهدتم من قبلُ حتى تحقَّق الأمل في هذا العصر. هذا الجهاد المتصل الحلقات قد تقاسمتْه دولٌ شتّى تعمل على استثمار نتائجه بما وسعها من الوسائل، والحقائقُ الثابتة في صحائف التاريخ تدلُّ على ذلك بما لا يستطيع أن ينكرَه من يقرأ السطور قولاً، ثم يرى التطبيق عملاً، ومن ذلك:

حين احتلت فرنسة الجزائر، أخذتْ تموّه على الناس بأنها تنقذها من استعباد الحقائق والأوهام، وبالغَ (كيمون) فأصدركتاباً سمَّاه (باثولوجية الإسلام) قال فيه دون حياء: «إنَّ الديانة المحمدية جُذامٌ فشا بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرضٌ مريع، وجنونٌ ذهوليٌّ، يدفع الإنسان إلى الخمول والكسل، ولا يوقظه منها إلا لسفكِ

الدماء، ويُدمن على معاقرة الخمور، وما قبرُ محمد في مكة إلا عمودٌ كهربائي، يبثُّ الجنونَ في رؤوس المسلمين، ويُلجئُهم إلى الإتيان بمظاهر الهسترية العامة والذهول العقلي، وتكرارُ لفظ (الله) إلى ما لا نهاية له، والتعوُّد على عاداتٍ تنقلب إلى طباعٍ أصلية ككراهية لحم الخنزير، والنبيذ، والموسيقى، والجنون الروحاني، والمينيا، والملانخوليا، وترتيب ما يُستنبط من أفكار القسوة والفجور..».

وبالغَ في التوقّح، فزعمَ أنَّ المسلمين وحوشٌ ضارية، وحيواناتٌ مفترسة، وأنَّ الواجبَ إبادةُ خمسهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، ووضعُ ضريح محمد في متحف اللوفر، وهو حلٌّ بسيط، وفيه مصلحةٌ للجنس البشري.

هذا السفهُ المنكرُ ساقهُ (هانوتو) في مقالٍ له يتضمن مهاجمةَ الإسلام، وإن أحاطَه ببعض ما يدلُّ على التحفظ الظاهري، ولكنَّ فحوى هجومه ـ هو الآخر ـ على الإسلام يؤكِّد أنه أراد إذاعتَه بين الناس للنظر فيه.

ومن المفارقات المضحكة أنه اتهم المسلمين بشرب الخمر، مع أنَّ الإسلام يحرِّمها، وجميعُ الدول الأوروبية تُبيحها، ولا تستطيع أن تمتنع عن تناولها اليومي، ثم نعى على المسلمين في الوقت نفسه تحريمَ النبيذ، فلا ندري إزاء هذا التناقض، هل يفهمُ الكاتب حقيقةَ الألفاظ الدالة على المعاني، أم أنه يسوق الحديثَ وفق رغبةٍ هجومية تدفعه إلى الافتراء السفيه.

وقد كان (هوناتو) أدهى منه، حين هاجم الإسلامَ مهاجمةَ من يعرض الآراء المتقابلة، ليجعلَ كفّة الإسلام هي المرجوحة، وهذا ما دعا الأستاذ الإمام (محمد عبده)[1] إلى الردِّ المستفيض على تهجُّمه، بحيث ألجأه إلى الاعتراف بمراجعة بعض ما قال، ولم يُراجع الرجلُ شيئاً، بل لجأ إلى مواصلة الهجوم في مقالاتٍ أُخر، لأنه لا ينشدُ الحقيقة، بل يحاول باعتباره وزيراً للخارجية في فرنسة أن يبرِّرَ الوحشية الهمجية التي ارتكبتها فرنسة في الشمال الأفريقي المسلم بالجزائر ثم تونس ومراكش، وما زال المبشِّرون ومَن يلفُّ لَفَّهُم من المستشرقين الفرنسيين، يدأبون على هذه الكراهية القاتلة لدينٍ يأمرُ بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر.

فإذا تركنا فرنسة إلى إنكلترة، نجد أنَّ وزارة الخارجية بها قد أنشأت قسماً خاصاً للنظر في شؤون المستعمرات الإنكليزية بنوعٍ عام، والإسلامية منها بنوعٍ خاص، هذا القسمُ من أهمِّ مستلزماته مهاجمةُ الإسلام عقيدة وشريعةً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً[2]، وأعني بالمستقبل

---

(١) الإسلام والردّ على منتقديه، ص٢٢.

(٢) وكان من إنتاج هذا القسم كتاب (الإسلام وأصول الحكم) والذي نسب إلى الشيخ علي عبد الرازق)، ويرى الأستاذ الكبير أنور الجندي أنَّ مؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) هو مرجليوث، وهو كاتبٌ يهودي بريطاني كتبه ضمن الحرب النفسية التي شنَّتها بريطانية على الدولة العثمانية إبان الحرب =

ما يرسمونه في أوهامهم من توقّع انفضاض المسلمين عن معتقداتهم بعد حين، حتى ذاعَ عن رئيس وزراء الإنكليز (كلادستون) قولُه بوجوب إعدام القرآن، وتطهير أوروبة من المسلمين، ولك أن تتصوَّر مدى الكراهية البغيضة في نفس صاحب هذا القول، وفي عهده عُقدت مؤتمرات التبشير بإنكلترة، للنظر في خلاص أوروبة من الإسلام في الشرق، وجعله منطقةً أوروبية في دينه وتعاليمه واتجاهه، وكأنَّ آسية وأفريقية الشاسعتين قطعةُ شطرنج تلعبُ بها أصابع حفنةٍ من السياسيين والمبشّرين! وقد اتفقت إنكلترة مع فرنسة على تقسيم بلاد الشرق، وتحديد مناطق النفوذ الخاصة بكلٍّ منهما، وسَعَتَا إلى تحقيق ذلك في معاهداتٍ سياسية، وكأنهما تتحدَّثان عن ميراثٍ شرعيّ جاء لهما عن طريق الأجداد والآباء.

أما إيطالية فقد عزَّ عليها أن تسبق فرنسة وإنكلترة إلى اغتصاب بلاد الإسلام، فوضعَ أحد شعرائها الكبار نشيداً عاماً يردده الشعب الإيطالي يقول فيه على لسان محاربٍ يتَّجه إلى ليبية مستعمراً غازياً[1]:

= العالمية الأولى، ومع أنَّ الكتاب سقط علمياً لكثرة الردود المفنِّدة، وفُضح تاريخياً بالكشف عن مصدره، فما زال هناك من يحاول إحياءه بطبعه من جديد، أو بترديد أفكاره في كتبٍ جديدة تؤلَّف لمحاربة الإسلام. وانظر (الخلافة في العصر الحديث) للدكتور ضياء الدين الريس. (الناشر)

(١) يوم الإسلام لأحمد أمين، ص١٨.

«أمّاه صلّي، ولا تبكي - بل اضحكي وتـأمّلي - ألا تعلميـنَ أنَّ إيطالية تدْعُوني، وأنا ذاهبٌ إلى طرابلس فرحاً مسروراً، لأبذلَ دمي في سبيل سحق هذه الأمّة الملعونة، ولأحاربَ الديانةَ الإسلامية، التي تميّز البنات الأبكار للسلطان، سأقاتلُ بكلِّ قوّتي لمحو القرآن، ليس للمجد مَنْ لم يمتْ لإيطالية حقّاً، تحمَّسي أيتها الوالدة، تذكَّري كارّوني التي جادت بأولادها في سبيل وطنها، إن سألك أحدٌ عن عدم حدادكِ عليَّ فأجيبيه «إنه مـات في محاربة الإسلام» الطبلُ يقرعُ يا أماه، أنـا ذاهبٌ أيضاً. . ألا تسمعين هرجَ الحرب، دعيني أعانقك وأذهب».

هذه صورٌ من فواجع الاستعمار في هذا العصر، ومع الحملات الحربيـة الباغية، قد جُنِّدت كتائبُ المستشرقين لمهاجمة الإسـلام، وعُقدت عدة مؤتمرات في عواصم الغرب، لتُلقى بها البحوث الخاصة بهذه المحاربة الباغية تحت عناوين فاضحة لا تتستَّر بقناع، وأضربُ المثل لذلك بالمؤتمر الذي انعقد في أيـلول - سـبتمبر ١٩١١، وكـان موضوعه الصريح (الجامعة الإسلامية وكيفية مقاومتها) وقد رأسه القسّ الشهير بأضغانه الصريحة على الإسلام (زويمر)[1] وقد اشترك في هذا المؤتمر (١٦٨) مندوباً، و(١١٣) مدعوّاً عن أربعِ وخمسين جمعية تبشيرية، وقد افتتح القس (زويمر) المؤتمرَ بكلمةٍ قالَ فيها:

«إنَّ عدد المسلمين يزيد قليلاً عن مئتي مليون، والتبشيرُ فيهم

---

(١) مات زويمر وأوصى أن يُدفن في مقابر اليهود. (الناشر)

يحتاج إلى نفقاتٍ هائلة، خصوصاً وأنَّ الإسلام ينتشر بسرعة، والمبشّرون المنتشرون على ضفتي النيل وشرقَيْ أفريقية وبلاد النيجر والكونغو، يشكون مرَّ الشكوى من انتشار الإسلام بسرعةٍ في هذه الأنحاء، ومع أنَّ انتشار الإسلام في الهند قد وَجَدَ موانعَ من مجهودات جمعيات التبشير الهولندية والألمانية، فهو يتوطَّد هناك، لأنَّ المسلمين أخذوا يستبدلون بالتقاليد القديمة عقائدَ ثابتة قوية، وأنَّ الإسلام بدأ ينتبهُ لحقيقة موقعه، ويشعر بحاجته إلى تلافي الخطر، وهو يتمخَّض الآن عن ثلاث حركاتٍ إصلاحية.

الأولى: إصلاحُ الطرق الصوفية[1].

والثانية: تقريبُ الأفكار من الجامعة الإسلامية.

والثالثة: إفراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالبٍ معقول.

وعلى الكنائس أن تستنهضَ الهمم لمقاومة المسلمين ونشر التبشير بينهم».

ولم تكن المؤتمرات المتكرِّرة خاصةً بالوضع السياسي وحدَه، بل جعلت من أهدافها دراسة الإسلام دراسةً تظهرُه في مظهر التأخر، فاختصَّ

---

(١) وقد تولَّى ذلك السيد محمد توفيق البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر، انظر كتاب (محمد توفيق بكري) من سلسلة أعلام العرب للدكتور ماهر فهمي. (الناشر)

كلُّ مستشرقٍ بناحيةٍ هامة يُفرغ فيها ما يريد من الإفك، بل اختصت دوائرُ خاصة بناحيةٍ واحدة.

فدائـرةٌ للبحث عن القرآن، والتشكيك في نزوله من السـماء، وما يُتوهَّم من التناقض في أفكاره، وما يُختلَق من الإفك في طرق تدوينه وجمعه وقراءاته، مع نشر ما أرجف به الملاحدةُ في القديم والحديث من تخرُّصاتٍ تدور حوله.

ودائرةٌ تتجه إلى رسول الله ﷺ، فتكذبُ على التاريخ بما تلحقه في سيرته من أباطيل لا ترجع إلى حق، وإنما يتصيَّدُ هؤلاء رواياتٍ ضعيفة أو موضوعة كذَّبها المحققون، ليجعلوها وحدَها أدلَّةَ البحث.

ودائرةٌ تتجه إلى الشريعة فتصفها بالهمجية والوحشية، وتعدُّها شريعةً بدوية تصلحُ لساكني الصحراء، ولا تصلحُ لأبناء العصر الحديث.

ودائرةٌ تتجه إلى التاريخ الإسلامي، فتنسبُ التّهم إلى الصفوة من الفاتحين الذين أنقذوا العالم البشري من الانحطاط، وتنشر ما نُسب إلى الخلفاء على مدِّ العصور من مؤاخذات، لا يرضى الإسلام في نصوصه الصريحة عنها، ولكنها تُلصقُ به وكأنها من صميم تعاليمه.

ودائرةٌ تبحث في الواقع الإسلامي الراهن، فتتحدث عن الخرافات والأوهام التي تسيطر على الجهلة من المسلمين، فتجعلها راجعةً إلى الإسلام نفسه، وترى الإسلامَ بذلك كأنه دينٌ وحشيٌّ همجيٌّ، لا بدَّ من القضاء عليه.

هذه الدوائر المختلفة لم تكن لتلهو وتلعب، ولكنَّها أُلِّفت في حماسةٍ مشتعلة، لتحقِّق الغرضَ المنوط بها، وقد بُذلت لها الأموال الطائلة، لتأتمرَ وتؤلّف وتَرْحَلَ، بل لتقيمَ في الجهات القاصية مكفولةَ الرفاهية، لتتخذ من الضعفاء رسلاً وأذناباً يهتفون بتوجيهاتها، هؤلاء الذيول تُبذل لهم المناصب البرّاقة، وتمهَّد لهم البعثات المغرية ليكونوا معاولَ هدمٍ بما ينشرون من سموم سادتهم، وقد علَّمتهم التجارب أنَّ هذا الطابور الخامس من الوصوليين أجدى في هدم القرآن والسنّة والشريعة والتاريخ من عصابة المستشرقين، لأنهم أجانب قد يُنظر إلى أقوالهم بالارتياب، أما المرتزقة من الواقفين على الأبواب فلهم أسماءُ المسلمين، وقد أوهموا أنفسهم أنهم متحضّرون مدنيّون، وأنَّ الغربَ قد سلَّحهم بالفكر النيّر، والمنهج المسقيم، وبأيديهم المناصب المرموقة، وأدواتُ الإعلام من مطابع وصحف وجامعات رهنُ ما يكتبون ويأفكون.

لذلك كلّه كانت الحاجةُ ماسّةً إلى كتيبةٍ مجاهدة من أبناء الإسلام، تدفعُ هذا الضيمَ الجائر، وتجلو الباطل عن وجه الحق، وقد عاش هؤلاء ـ في أكثرهم ـ يجاهدون بالمال والصحة والفكر، دون معاونةٍ مالية تهيّئها دولةٌ ذات حميّة، أو جمعيةٌ تضمُّ ذوي اليسار من المموّلين، بل عاشوا محارَبين في أرزاقهم، تُحرَّم عليهم المناصبُ العالية، وتوصدُ في وجوههم أبوابُ النشر، وتمُنعُ عنهم قاعات المحاضرات البرّاقة ذات الانتماء المشبوه، فإذا انتقلوا إلى رحمة الله، سكتَ عنهم ذوو القيادة في منابر الإعلام الجهيرة، على حين تتَّسع الصحفُ ذوات الأوراق المتتالية

لتأبين راقصةٍ أو ممثل أو مطرب خدعَ الجمهور بأداء المشاهد المثيرة، وترداد الأغاني الهابطة!.

وممّا أحمدُ الله عليه أنّي قمتُ بتدوين ما استطعتُ تدوينه من سير هؤلاء المكافحين في سلسلةٍ ظهرتْ تحت عنوان (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين)[1] ثم رأيتُ أن أخصَّ بعضهم بكتبٍ مستقلة، تُفصحُ عن معدنه، وتُنبئ عن جهاده، وأرجو أن أوفَّقَ إلى بعض ما أريد. ومن هؤلاء العلاّمةُ الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي، الذي أخصُّه بهذا السّفر الوجيز..



(١) وقد صدرت في خمسة أجزاء عن دار القلم بدمشق. (الناشر)

نشأة مباركة

لم يكن الأستاذ (محمد فريد وجدي) من رجال الدولة الذين تدرَّجوا في مناصبها من الدرجة الأولى حتى وصلوا إلى أعلى درجات السلَّم، فيتحتَّم علينا أن نتابع في ترجمته هذه الدرجات الصاعدة في سلَّم النباهة، كما هو شأن الكثيرين ممَّن ترقَّوا في المناصب تِباعاً، بل كان صاحبَ فكرةٍ عرف اتجاهها منذ عرف حقيقةَ نفسه في سنواته الأولى، فكان همُّه الأول أن يسعى طيلة حياته لأداء هذه الفكرة التي ملكت عليه نفسُه! وقد رُزقَ نهماً شديداً للمعرفة، جعلَه لا يكفُّ عن الاطلاع على شتى فنون الدراسة العلمية، وإذا كان قد أصدرَ مؤلَّفه العلمي الأول في سنّ السادسة عشرة.

وإذا جاء هذا المؤلَّف للناشئ الغضّ حافلاً بآراء المشاهير من أعلام الشرق والغرب، فإنَّ معنى ذلك أنَّ الصبيَّ الناشئ قد أحسَّ بجذوة البحث تشتعل في أعماقه مذ عرف القراءةَ والكتابة، وقد عرفَهما في المدارس لعدّة سنوات، حيث نالَ الدراسةَ الأولى بإحدى مدارس الثغر الإسكندري الخاصّة، إذ كان والدُه من كبار الموظفين به، ثم انتقل عمله إلى القاهرة مع أبيه، ليتابع المرحلة التالية من دراسته في مدارس حكومية

لها برامجُ غير برامج مدرسة الإسكندرية، وطبيعيٌّ أن يجدَ الطالبُ صعاباً تعترضه حين ينتقل من مدرسةٍ تعلِّم الفرنسية إلى مدرسةٍ أخذ طلابُها شوطاً في تعليم الإنكليزية بالمرحلة الأولى التي لم تتهيَّأ للطالب من قبلُ، كما يجدُ من المواد ما لم يسمع به من قبل، ولا يجدُ منها ما سبقَ له علمه بالجدول المدرسي بالإسكندرية!.

لقد أحضرَ لـه والدُه بعض المدرسين ليأخذ حصصاً في اللغـة الإنكليزية، ولكنَّ الطالب كان قد عرف طريقَه الذي ارتضاه لنفســه، فأعلن لوالده أنه يريد أن يشتغل بنفسه في التحصيل العلمي دون مدرسة، وقد دُهش والده لما يسمعه منه، ولكنَّ عطفَه عليه حملَه على أن يصغي لوجهة نظره، فقال الابن: إنه الآن يجيد الفرنسية على نحوٍ يسمحُ له بقراءة كُتبها المختلفة، كما أنه يتقن دروس اللغة العربية بحيث تنشرُ الجرائد ما يرسله إليها، واهمةً أنه أستاذٌ كبير لجودة ما يكتب! ورسالتُه في الحياة هي خدمةُ دينه، والدفاع عن هذا الهجوم الكاسح الذي يقرأ أهوالَه في الكتب الفرنسية التي يطالعها، وقد أخذ للأمر عدَّته، فهو يقرأ صباحَ مساء دون عائقٍ، وتتفتَّح أمامَه أبوابٌ من القول يجد نشـاطاً في نفسه لولوجها.

وكان الوالدُ وكيلاً لمحافظة دمياط، وهو المنصب الثاني في المدينة بعد منصب المحافظ، وقد اسـتمعَ لما قال ابنُه، فرأى أن يتركَه على هواه، وذلك مما يدلُّ على سعة أفقه، إذ لو كان الوالدُ موظَّفاً تقليدياً، لوقعت الواقعة، وصاح بولده كيف تترك ميدان الوظيفة المنشـودة،

والمنصِب المرتقب، بحيث تصبح كاتباً في جريدة! أو ناشراً لبعض المؤلفات! كان من المتوقع أن يقولَ الرجلُ ذلك، ولكنَّه أنِسَ في ولده كفاءةً تدلُّ على نبوغٍ مرتقب، ومع ذلك كان يحاذر أن يصطدم ولدُه الناشئ بزوّار ندوته الأسبوعية من كبار علماء المعهد الديني بدمياط، حيث دأب الصبيُّ النجيب على أن يناقش، ويسأل، فلايجدُ الردَّ المريح، وكأنَّ الوالد أحسَّ حرجَ المسؤول قبل أن يحسَّ بجرأة السائل، فحرَّم على ابنه أن يجادلَ في الندوة أساتذةَ معهد دمياط من العلماء، فإذا أراد الحضورَ فعليه الاستماعُ فحسب.

وكان الشابُّ ذا شكوكٍ دينية في بعض المسائل، فحاول أن يجدَ غلّته في مجلس أبيه المرموق، فجُوبِهَ بالصدِّ من أبيه، وبالتنصُّل من العلماء، وقد هتفت به نفسه تقول له في خلوته: لقد صرتَ وحدَك تعرف الطريق دون مرشد، فعليك أن تقرأ وتفهم، فإذا لم تفهم فأعِد القراءة، وعليك أن تقرأ في الموضوع الواحد أكثر من كتاب، لتعرفَ الأنظار المتباينة والحلول المختلفة، وهذا جهدٌ لا يتحمَّله ناشئ غضّ، ولكنَّ عونَ الله قد أيَّده، فعرف كيف يجد الريّ فيما يتناول، وكيف يُفصح للقرّاء عمّا اهتدى إليه في صفحاتٍ متتابعات.

لقد تحدَّث الأستاذ فريد وجدي عن هذه الفترة من حياته فيما نشرَه بمجلة الهلال (نوفمبر سنة ١٩٢٩) إجابةً عن سؤالٍ وجَّهته المجلة إليه، وفحواه: ما أهمُّ حادثٍ أثَّر في حياتك، فجاء الردُّ كما يلي:

«لكثيرٍ من الحوادث التي مرَّت بي تأثيرٌ في حياتي من وجوهٍ مختلفة، تتعلَّق بالنفس أو بالجسد، غير أنَّ أهمَّ حادثٍ وقع لي منذ كنت ناشئاً، وكان له أكبر الأثر فيما اتَّجهت إليه، هو حادث الشكّ في العقيدة الذي أدَّى بي إلى الشكِّ في كلِّ شيءٍ من العلوم الدينية وغيرها.

فقد كنت في سنّ السادسة عشرة طالباً في المدرسة التجهيزية، وكان أبي مصطفى بك موظفاً في الحكومة المصرية، وحدث وقتئذٍ أن اختير وكيلاً لمحافظة دمياط، فكان لا بدَّ من انتقالي مع عائلتي إلى هذه المدينة التي اشتُهر أهلُها بدماثة الأخلاق والتفقُّه في الدين.

وما زلنا مع أبي في هذه البلدة، حتى أخذ كبارُ أهلها وعلماؤها يفدون عليه للترحيب به، فكان يجتمع في دارنا عددٌ كبير منهم، وكانت تدور أثناء المجلس عدَّةُ مناقشاتٍ دينية، وجدتُ فيها مجالاً للبحث والتفكير، غير أني كنتُ إذا ناقشتُ أحدَ العلماء في مسألةٍ تتعلق بالكون أو الخالق أسرعَ إلى قفل باب المناقشة، وأمرَني ألاَّ أخوضَ في المسائل الدينية، أو أبديَ فيها رأياً، فكنت أمتعض من ذلك، وأرى أنَّ فيه حَجْراً على العقل بلا مسوِّغ، وأخذتُ أبحث عن السبب الذي أدَّى بهم إلى هذا الجمود، وقلت في نفسي: لا بدَّ أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيماً، ومن هنا تزلزلتْ عقيدتي، وشرعَ الشكُّ يتسرَّب إلى نفسي، حتى صرتُ لا أرتاح إلى رأيٍ واحد يتضمَّنه كتاب، ولا أقتصر على فكرةٍ معيّنة يجتهد بعض العلماء في إثباتها بما أوتيَ من قوة الحجة، وسطوع البرهان،

وجعلتُ أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية، وسائر ما يتعلَّق منها بعلم النفس، وأكببتُ على ذلك عدَّة سنين، فاكتسبتُ علماً غزيراً، واتَّسع أمامي نطاقُ الحياة، وجالَ نظري في الكائنات جولاتٍ أفادتني فيما أتناوله من البحث والدرس، حتى صرت لا أقنعُ بفكرةٍ دون أن أُعنى بتمحيصها ودَرْسها، معتمداً في ذلك على تجاربي الذهنية التي مرَّت بي طول السنين.

وقد أفادني هذا الشكُّ استقلالاً في الفكر، واعتماداً على النفس، ورغبةً في استيعاب ما يقع بيدي من الكتب ـ على اختلاف أنواعها ـ بصبرٍ وجلد، حتى زالَ الشكُّ عني، وارتاحت نفسي إلى عقيدةٍ من قراءاتي.

كما أفادني ذلك دقةً في البحث، وعنايةً بما أتناوله بالتمحيص دون أن أجد في ذلك مللاً».

هذا هو الدافعُ النفسي الذي قذف بالباحث إلى الدراسة المستأنفة منذ فجر صباه، حتى أصبح عَلَماً في عصره، ولكن ماذا تقلَّبت عليه من الأدوار في سبيله تلك؟.

نعرف أنَّ الأستاذ قد وُلد في سنة ١٨٧٥، أو في سنة ١٨٧٨، على رأيين دوَّنهما مؤرِّخوه، وقد حاول الأستاذ طه الحاجري ترجيح الرأي الأخير، بمراجعة ما قال في بعض مؤلفاته من أنه ألَّفها في سنّ العشرين، فنظر إلى تاريخ صدور الكتاب، وحذفَ منه العشرين عاماً، فكانت سنة ١٨٧٨ هي الأرجح في نظره.

وقد علمنا نشأته بالإسكندرية، وتلقّيه التعليم الابتدائي في المدرسة الفرنسية، ثم انتقاله إلى القاهرة، والتحاقُه بالمدرسة التحضيرية التي تعادل الثانوية الآن، دون أن يتمَّ سنواتها، لما لمسَ من موادّ جديدة، رأى في الدراسة المستقلة بديلاً عنها، وبعضُ الكاتبين عنه يذكرون أنه قضى عامين في وظيفتين غير مناسبتين لطموحه، فآثرَ الاستقالة، لا للأجر الماديّ الزهيد، بل لأنَّه وجد الوظيفةَ تقطع منه وقتاً هو في حاجةٍ إلى استثماره علمياً، وذلك هو المناسب لتفكيره، لأنَّ الجرائد المرموقة كالمؤيد والأهرام أخذتْ تنشر مقالاته، فأصبح له اسمٌ علميٌّ على يفاعة سنّه، ولكي يحافظ على مركزه العلمي لا بدَّ أن يطَّلعَ، ولا يترك مؤلَّفاً يقع في يده حتى يمحِّصه ويدرسه، لأنَّ الكتابَ هو أستاذُه الأوحد.

وإذا كان قد شكَّ في مقررات العقيدة التي يسمع عن معضلاتها في مجالس أبيه دون أن يجدَ لها حلاًّ، فإنَّ الهمَّةَ الدافعة إلى استجلاء الحقيقة، جعلتْه يدرس كتب الدين في العربية وما يماثلها دراسةً لا تقف عند راحةٍ أو سكون، بل كان يصلُ الليلَ بالنهار، محاولاً أن يلتهمَ كلَّ ما تقع يده عليه، حتى تهيَّأ له أن يكتب عدة مؤلفات بارزة قبل أن يبلغَ الخامسة والعشرين، تدور كلُّها حول العقيدة الإسلامية وثبوتها عقلياً بالأدلة الناهضة.

وبعضُ الناقدين يأخذون عليه أنه تخصَّص طيلة حياته في الكتابة الإسلامية، ويعدُّون ذلك من أبواب النقد التي تُوجَّه إليه، وقد نسي هؤلاء ـ أو جهلوا ـ أنَّ الإسلام يشمل شؤون الحياة جميعها.

فالكاتب الإسلامي المستنير يعالج أمور الحياة كلَّها من منطق الإسلام، إنَّ الإسلامَ دينٌ ودولة، وله من الشرائع في أحوال الناس وشؤون المجتمع ما يمسُّ كلَّ صغيرةٍ وكبيرة في حياة الناس، فإذا تخصَّصَ كاتبٌ قدير في معالجة الشؤون الإسلامية، فقد اتسع أمامه المدى الرحيب لمعالجة شتّى المسائل المختلفة.

وكُتُبُ الأستاذ الكثيرة، ومقالاته المنهمرة كالسيل على مدى ستين عاماً تنطقُ بأنَّه كان يعيش في مجتمعه بعينٍ بصيرة، وعقلٍ متيقِّظ، فما جدَّت مسألةٌ جوهرية من شؤون الدين والعلم والاجتماع في عصره إلا تطلَّعت الأنظارُ إلى قلم وجدي، كي ترى منطقه المؤيَّد بالبرهان، ومُخالِفُه أشدُّ حرصاً على قراءته من مُوافقه، لأنه يتيح له من الآراء ما لم يكن حاضراً لديه، أو ما يراه موضعَ خلاف، ومن ثمَّ كَثُرَ مناقشو الأستاذ في عصره من علماء الدين، ورجال السياسة، ورؤوس الاجتماع، فكيف تكون الكتابةُ الإسلامية حاجزاً دون الامتداد إلى أوسع الآفاق، وهذه مؤلفاتُه شاهدةٌ بهذا المدى الفسيح؟!.

يخيَّل إليَّ أنَّ أمثالَ هؤلاء كانوا يأملون أن يجدوا من الكاتب ما نأى عنه بطبيعة تكوينه من قصص الشهوات، والحديث عن سير الشذّاذ من أدعياء الأدب والفنّ، فحين رأوا رسالةَ الكاتب العلمية تُحرِّم عليه أن يتملَّق الغرائزَ الهابطة ببعض ما يروي ظمأَها في هذا المجال، قالوا: إنَّه قصرَ مجهودَه على ضربٍ واحد، وقد نسوا أنه ألَّف دائرةَ المعارف في

أجزائها العشرة التي بلغت الآلاف من الصفحات، ـ وسنعود إليها فيما بعد ـ حافلةً بثمار الفكر الإنساني منذ نشأته حتى القرن العشرين! أيكونُ صاحبُ هذه الموسوعة الضخمة منحجراً في اتجاهٍ واحد! ثم يصير مجهولاً الآن من شبيبةٍ لا يشتهر لديها إلا روائيٌّ هابط، أو مطربٌ متحلِّل، أو ممثلةٌ داعرة!!.

لقد بدأ الأستاذ خَطْوَهُ العلمي وهو يعرف اتجاهَه الصحيح، وذلك من فضل الله، لأنَّ صاحبَ الاتجاه المحدَّد، ليس كاتباً فحسب، بل هو قائدٌ ذو رسالة، يهدف إلى جمع الناس حولها، والتفافهم نحو مُثُلها، ومِثلُ هذا القائد لا يهدأ له مضجعٌ حتى يزيلَ الأوهام عن كلِّ شكٍّ يعتري الناسَ في حقيقة ما يقرِّره، وهذا ما كان من أمر الأستاذ وجدي على أوسع نطاق!.

كان أولُ كتابٍ ألَّفه الشاب الناشئ صرخةً في آذان من يستمعون إلى الترجمات الأوروبية الملحدة في ذات الله، حيث رأى مقالات الإباحيين وقصص المبتدئين، ومن ورائهم سمومُ الاستشراق تُطالعُ الناسَ في صحفٍ سيّارة، وكُتُبٍ مستقلة، وهدفُها الأوحد زعزعةُ الإيمان بالخالق في النفوس، بل وُجِدَ في هذه الحقبة من يعدُّ الإلحادَ في ذات الله سموًّا فكرياً لم يصل إليه المتديّنون الذين يقرؤون كتب القرآن والحديث! ولهم شكوكهم التي قرأها الأستاذ فوقع في حيرة، وحاول السؤال عنها، فوجد البابَ موصداً لا يتَّسع لنقاش، ومن ثمَّ اتجه إلى التفكير المستقل، حتى اهتدى إلى صوابٍ حقيقيٍّ أزال عنه الشك.

وكأنه رأى أمثالَه من الشبيبة الناهضة، يخوضون غمرات هذا الشك دون أن يهتدوا إلى سبيل، فعجَّل بالتآليف في هذه السنّ الباكرة، لا ليقال: إنه كتب وألَّف! بل ليرتد سبيلاً قلَّ طارقـوه، وعثر مجتابوه، فكان كتاب (الفلسفة الحقة) الصرخـةَ الأولى من ناشئ لم يبلغ العشرين! ولا أجدُ أصدقَ من الأستاذ حين أنقل عنه بعض ما قاله في مقدمة هذا الكتاب، الذي يُستهوَلُ صدورُه عن شابٍّ ناشئ! لأنَّ الحديثَ عن الفلسفة الحقة لا يُنتظر من شابٍّ متحمـس، ولكن يُنتظر من عالمٍ مجرِّب، جاوزَ الأربعين باحثاً دارساً، وها هو ذا محمد فريد وجدي يحدِّثنا عن الباعث الدافع إلى هذا التأليف فيقول في مقدمة الكتاب:

لما كـان من أشرف الأعمال وأجلِّها خدمةُ الأمة وتغذيتها بلبان المعارف الحقة، رأيتُ أن أتحلَّى بتيجان هذا الشرف في عملٍ صغيرٍ أهديه إلى العالم العلمي، ولو أنّي لم أبلغ الشأوَ الذي يتيح لي أن أقفَ هذا الموقف المحرج، ولكنَّ لي من حضرات العلماء أكبرُ ساترٍ على مقصدي، وعاذرٍ لقصوري، ومنبِّهٍ على هفواتي، فأيُّ جوادٍ لا يكبو؟».

أمّا فحوى هذا الكتاب فدالٌّ على حقيقة مرماه، إذ هو حديثٌ عن عجائب الكون في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، ليخلص إلى أنَّ صانعَ هذه العجائب الخارقة حيٌّ واجب الوجود، وأنَّ الكون الشامل لهذه الأكوان الفسـيحة، ـ وأقلُّها الأرض ـ إذا انتظم سيرُه على نسـقٍ مرتب لا اختلال به، فلا بدَّ له من راعٍ يديره!.

ولم يذكر الشابُّ أدلته من القرآن والحديث وحدَهما، بل ساعدته قراءته الفرنسية على الامتلاء بآراء الأُصلاء من علماء الطبيعة والكيمياء في الغرب، فاستشهدَ بآراء بوسويت وفيتلون وجران وغيرهم، ولا ننسَ الباحثَ الطبيعي الشهير (كيل فلامريون) حيث خصَّه الأستاذ وجدي بتقديرٍ خاص، إذ ظلَّت آراؤُه ماثلةً أمامه للاستشهاد بها في كثيرٍ مما كتب على مدى حياته، وكأنَّ ما كتبَ هذا العلاّمة الكبير صار دماً يجري في شرايين الكاتب، صاعداً إلى مخِّه الأعلى، ليجعله دائماً في بؤرة التفكير، وقد راجَ هذا الكتاب، ونفدت نُسَخُه في مدًى قريب لم يكن يتوقَّعه مؤلّفه! ولعلَّ هذا النجاحَ هو الدافع الحقيقي إلى مواصلة بحوثه في اطمئنان، وكأنَّ القرّاء قد وجدوا في (الفلسفة الحقة) نمطاً من التأليف الديني لم يألفوه من قبل، اللّهم إلا في كتابٍ مماثل أصدره الأستاذ طنطاوي جوهري في هذا الاتجاه!.

والحقُّ أنَّ الرجلين الكبيرين كانا كفرسَي رهان في الاتجاه إلى البحث الديني المستظلّ براية العلوم المعاصرة في شؤون الطبيعة والنفس والروح! وحين وفد السيد محمد رشيد رضا إلى مصر، سمع عن فريد وجدي ما سَرَّه، وقابله في مدينة دمياط، مقابلةً أخوية، تحدَّث عنها مسروراً في رسالةٍ كتبها إلى صديقه الشيخ عبد القادر المغربي، نُشرت في (الرسالة) بعد وفاة الشيخ رشيد، وقد قال فيها[1]:

---

(١) الرسالة ـ العدد ١٤٤ ـ ٩/٩/ ١٩٣٥م.

«فريد بك، ابن وكيل محافظة دمياط، شابٌّ ذكيٌّ نبيه، أبصرُ أهل دمياط بحالة الإسلام والوقت، وِجْهتُه مثلُنا دينية، يطالعُ الإحياء، وله اعتناءٌ بالفلسفة، ألَّف كتاباً صغيراً سمَّاه (الفلسفة الحقة)، وهو الآن يستعدُّ لتأليف كتابٍ بالفرنسية في الديانة الإسلامية سيعرضُه في معرض باريس الآتي، وهو منفردٌ بهذه الأفكار، لأنَّ دمياط بلدةٌ إسلامية لا مُداخلةَ للنصارى والإفرنج فيها، ومن ثمَّ هي ضعيفةٌ في العمران، قويةٌ في التمسُّك بالدين، لا نظيرَ لها في مدن مصر، زُرتُ فريد بك وزارني، وقد أُعجبَ بي كلَّ الإعجاب، وتمنَّى أن أكون معه دائماً، ونشَّط همَّتي على إنشاء الجريدة، وسيكتب فيها».

قلتُ: إنَّ ذيوعَ الكتاب كان دافعَ الشاب إلى مواصلة التأليف؛ ولكن في أيِّ مجالٍ ينشر؟، لقد رأى أنَّ أوروبة ترسل قذائفها الهاجمة على الإسلام دون تؤدة، ففي كلِّ يومٍ يجدُّ هجومٌ مباغت، وإذا كانت (الفلسفة الحقة) قد خاطبت العربَ بلغتهم الفصحى، فلا بدَّ أن يكتب مؤلَّفاً آخر بالفرنسية، يخاطب فيه الغربَ مبيّناً ما يقع فيه كتّابه من الأخطاء الخاصة بحقيقة الإسلام!.

رأي فريد أنَّ هذا العملَ ضروريٌّ لإيقاف بعض هذه الحملات المتتابعة، لأنَّ العقلاء ـ عقلاءُ أيِّ زمانٍ ومكان ـ لا بدَّ أن يفيئوا إلى الرشد، حين يجدون مَن يصحِّح الأخطاء بمنطقٍ عقلي لا أثر فيه للسفسطة أو المهاترة، بل تُسَلْسَلُ حقائقُه في براهينها الكاشفة تسلسلاً

يُعجب الصديق ويُسكت العدو، وقد قال السيد رشيد رضا في رسالته: إنَّ فريد بك يستعدُّ لتأليف كتابٍ بالفرنسية في الديانة الإسلامية سيعرضه في معرض باريس! وقد تمَّ ذلك فعلاً، وأُلِّف الكتابُ فرنسيَّ الأسلوب، ثم ترجمه صاحبه إلى العربية فكان مثار تقديرٍ كبير..

هذا ما قصدَه الشاب الذكي من كتابه، وقد عبَّر عن ذلك بجلاءٍ ساطع حين قال في المقدمة:

«على أنّي كلَّفتُ نفسي تجشُّم المصاعب في هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالي فيه تسليةً لي على ما أضعتُ من وظيفةٍ وشهرة، كلاً بل غرضي الوحيد من هذا العمل هو إقامة الحجج العلمية على أنَّ دين الإسلام ليس الدين الذي يتناساه ذووه، أو يلوي الكشح عنه متَّبعوه، وأنه ليس بالدين الذي تعارضه العلوم العصرية، والحقائقُ الفلسفية، بل هي مما تزيده تثبيتاً وتمكيناً، وتزيد متَّبعيه إيماناً ويقيناً، وأنه كان يجب أن يجدَ من طلاَّب العلوم الجديدة أنصاراً أولي قوة ومكانة، لا أن يرى فيهم إعراضاً وابتعاداً يدلأن الرائي على ما الإسلامُ بريء منه، وبعيدٌ بُعد السماء عنه».

ومن أنفس أبواب الكتاب، وأشده أثراً في الإقناع ما تحدَّث فيه الكاتبُ عن ضعف المسلمين الآن، وعدم ارتباط هذا الضعف بمبادئ الدين، إذ اختُصَّ مؤتمرٌ يبحث في شؤون الأديان بتقرير هذه الظاهرة، فأكَّد باحثوه من ذوي الاستشراق أنَّ نهضةَ المسلمين تحتاج إلى تعديلٍ

جوهريٍّ في أصول الإسلام، كي يسايروا مقتضيات المدنية الراهنة، وإجماعُ جمهرة المؤتمرين على طَرْق هذه الأكذوبة، لتصبحَ في حكم المقررات دعا الأستاذَ وجدي إلى كتابة هذا الفصل البارع، وفيه يقول[1]:

«لا يخفى على كلِّ إنسانٍ أنَّ مدنية المسلمين التي تكوَّنت جرثومتُها[2] في جزيرة العرب، فتفرَّعت أفنانها في مدةٍ قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق، لم يكن لها سببٌ أوليٌّ غير الديانة الإسلامية، ويتمكن كلُّ إنسانٍ باستقراء التواريخ وعلوم العمران أن يستدلَّ على أنَّ هذه المدنية كانت أسرع المدنيات سيراً، وأكثرها بهجة، وأوسعها بقاعاً، وأقواها امتلاكاً لأزمَّة ذويها، وتأثيراً في أذهان متَّبعيها، وأنها جاءت جامعةً لناموس كلِّ السعادات الاجتماعية، وهما العلمُ والعمل.

ولكنَّنا لو جُلنا جولةً صغيرةً في جميع الأمم الإسلامية الآن، فلا نرى إلا عكس ما كان عليه آباؤنا الأوائل، نرى ناموسَ الانحطاط يسير بنا القهقرى، ويأخذ في محو أهميتنا شيئاً فشيئاً، مع أنَّ كلَّ العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدَّعي الإسلام، وتحافظ عليه محافظةَ الإنسان على فؤاده، فهل ذلك مصداقٌ لقول متطرفي الفلاسفة في هذا العصر من أنَّ الديانات تقيِّد الإنسان عن الرقيّ، وتمنع النفوسَ عن التدرج في معارج الكمال! كلاَّ!».

---

(١) الإسلام والمدنية، ص١٢.

(٢) جرثومة الشيء: أصله. (الناشر)

ثم اهتدى الكاتبُ إلى علة الانحطاط الراهن فقال بعد كلامٍ جيد نشير إليه دون أن نُجهدَ القارئ في تتبُّعه، قال:

«إنَّه بإلقاء نظرةٍ على مجموعنا الآن، نرى سوادَنا الأعظم لا يفهم من الإسلام إلا أنه محضُ صلوات للعبادة، ومجرَّدُ دعواتٍ يُقصد بها قضاءُ الحاجات في الدنيا، أو نوال الدرجات في الآخرة، وأمّا ما فيه من آيات الحكمة، ومعجزات الفضائل التي بعثَتْ الأمـةَ العربية من جدث خمولهـا الأول إلى ذروة جلالتها التالية، فقد ضربوا عنه صفحاً، مع أنها لباب الدين، وزُبـدة الإسلام، والغرضُ الوحيد من تشريعه، إذ جاء الإسلام موفِّقاً بين مطالب النفوس من الحاجات المعنويـة، وبين مطالب الجثمان من الأشـياء المادية، ليكونَ المسلمُ كاملاً متعادلاً».

وسار الكاتب في تفصيل هذا النهج بما يُقنع من البرهان التاريخي، فكان ما كتبه أبلغَ ردٍّ على مزاعم هؤلاء المؤتمرين.

وقد تعرَّض الأستاذ الدكتور طه الحاجري[١] إلى موازنةٍ دقيقة بين كتاب (الإسلام والمدنية) و (رسالة التوحيد) للأستاذ الإمام محمد عبده، فذكر أنَّ الأستاذ الإمام في بحوثه بعامة يريد أن يردَّ الإسلام إلى أصوله الأولى، ويجرِّده مما لحق به وتراكم عليه في العصور الأخيرة، بل فوق هذا، يجرِّده مما اندسَّ إليه من مواريث الأمم التي دخلتْه ودانت

---

(١) محمد فريد وجدي للدكتور محمد طه الحاجري، ص٤٣.

له، مما هو بعيدٌ عن مبادئه، أو مناقضٌ لها، وما اقتحمَه بعدُ من أساليب الفلاسـفة والمتفلسفة، وما أدَّى إليه ذلك من مشاغباتٍ ومماحكاتٍ ضاعت في غبارها حقائقه، وخفيت معالمه، فاستطاع بسـعة علمه، وصفاء بصيرته، وقوة حجته، وبلاغة عبارته أن يبلغَ به في جلاء صفحة الإسلام واضحةً نقية مبلغاً رائعاً فريداً.

ولكنَّ **محمد فريد وجدي** لم يكتفِ بذلك، وإنما أراد أن يضعَ المبادئ التي قام عليها الإسلام، والتعاليم التي جاء بها، كما تأدَّت إليه أثناء دراسته الدينية بإزاء النواميس الكونية، والمقررات التي تقرِّرها العلوم العصرية، كما جاءت في كتب العلماء الأوروبيين التي أُتيحت له، ليكون ذلك أقوى في الإقناع؛ إقناع الأوروبيين، وإقناع المغترّين من المسلمين بأقوال الأوروبيين.

يقول الدكتور الحاجري: «وكأنما أحسَّ بما يلقاه صنيعه هذا من إنكار بعض القرّاء، الذين يربأون بالإسلام أن يُقرن إلى غيره، أو يحتاج إلى كلام الأوروبيين للاحتجاج له، فقال معتذراً إلى هؤلاء[1]:

«هذا وليغفر لي القرّاء كثرةَ استشهادي بأقوال علماء أوروبة، فإني لم أقصد بذلك أن أستدلَّ بكلامهم على صدق الدين؛ كلاَّ، فإنَّ الإسلام أجل من ذلك وأعلى، بل قصدي أن أبرهنَ على أنَّ كلَّ نواميس المدنية

---

(١) محمد فريد وجدي، للدكتور محمد طه الحاجري، ص٤٤.

التي سـادت أوروبة في القرون الأخيرة، ليست بالنسبة إلى نواميـس الإسلام إلا كشعاعٍ من شمس أو قطرةٍ من بحر».

وقد أصابَ الدكتور الحاجري مقطع الصواب فيما قرَّر من رأيٍ، وأعقبه من استشهاد، والعجبُ العاجبُ من قوم يسوءُهم أن يبرّز الأستاذ وجـدي في ميدان الدفاع عن الإسـلام بروزاً لا يسـتطيعونه، لقصور ثقافتهم، وضيق أفقهم، فهم لا يعترفون بجهاده المؤزَّر فيما يكتب من صحائف لايستطيعون أن يكتبوها، ولكنَّهم يحاولون أن يهجموا عليه هجومَ الشاعر بقصوره، المستخذي أمام فضائله، فيقول قائلُهم: إن ثقافةَ الأستاذ وجدي لم تكن عريقةً موغلة في التراث الإسلامي، فهو لم يدرس المتعارف عليه من كتب الأزهر وما دار مداره من معاهد التعليم الديني، فهـو لم يتعمَّق في دراسـة علوم الأصول والتـوحيد والمنطق والتفسير والحديث، ولكنَّه قرأ نبذاً منها، وأضاف إليها سيلاً من كتب الغرب، فجاءت كتاباته لا تنهجُ النهجَ المنشود في الدفاع!

هذا بعضُ ما يقولون، وكلُّ خطأٍ يحتاج إلى صواب، لأنَّ من يقرأ كتب الأستاذ وجدي ومؤلَّفاته يرى أنه قد درسَ الإسلامَ في أصوله الأولى دراسةً مستوعبة، وبَعُدَ عن الكتب التي عابها الأستاذ محمد عبده فيما ذكرنا من قبل، لم يقرأ كُتبَ المتون والشروح والحواشي والتقارير التي قرأها مئات العلماء، ثم عجزوا عن أن يدافعوا عن الإسلام بلسان العصر، فلم يضيفوا إليه ما يقنع خصومه بما يقولون! ولكنَّه قرأ كُتبَ الأئمة السابقين، الذين أمتع بهم الزمن الغابر في أزهى العصور، وأضاف إلى

ذلك ثماراً شهية بما قرأ من العلوم المستحدثة في التربية والاجتماع والاقتصاد والسياسة وعلم النفس! وبتضلُّعه في هذه المباحث استطاع أن يواجهَ خصومَ الإسلام شرقاً وغرباً بأسلحتهم القوية التي يُشهرونها في وجوه هؤلاء العلماء، وقد رموهم بالتقهقر لبُعد أسلوبهم عن أسلوب العصر.

وما بلغَ الأستاذ محمد عبده مرتبةَ الإمامة في عصره، إلا لأنه درس أصولَ الإسلام في منابعه الصافية، ثم درسَ شبهات الغرب في غلائلها الخادعة، وواجه العقولَ شرقاً وغرباً بما يقذف به على الباطل فيدمغه.

وقد توسَّع الأستاذ وجدي في ميدان جهاده الفسيح، فاقتحم عدة جبهاتٍ نكل عنها سواه، وتُرجمت آثاره إلى الغرب والشرق، فلاقت احتفاءَ العالم الإسلامي في أرجائه الشاسعة.

وقد أتى على مصر حينٌ من الدهر كان الوافد من شتّى الربوع الإسلامية القاصية من أندونيسية والصين واليابان والهند لا يسألُ إلا عن ثلاثةٍ من علماء مصر هم (السيد محمد رشيد رضا) و(محمد فريد وجدي) و(طنطاوي جوهري) لانتشار آثارهم المُقْنِعة في شتى جنبات الأرض، فكانوا يفدون بالأسئلة الشائكة، والاعتراضات الموغلة في الغوص فيجدون من محمد فريد وجدي وصاحبيه برداً وسلاماً واطمئناناً لقلوبهم، ولا أظنُّني أسرفتُ فيما كتبت، لأني أردتُ أن أدفعَ باطلاً وأُحقَّ حقاً، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع.

أعود إلى كتاب (الإسلام والمدنية) فأذكر أنَّه وجد الترحيب شرقاً وغرباً، فممّا قاله عنه (السيد محمد رشيد رضا) ما جاء في (مجلة المنار)[1] (إبريل ـ نيسان سنة ١٨٩٩م): «وكفى شرفاً لهذا الكتاب أنّا جعلناه ثاني كتاب (رسالة التوحيد) التي لم يؤلَّف مثلُها في الإسلام قط، ولعمري إنَّ مؤلفه الفاضل ـ محمد فريد وجدي ـ جرى على آثار الأستاذ الإمام في الرسالة، أسلوباً وبحثاً، ولا يَعيبه أنه لم يبلغ شأوه بلاغةً وتحقيقاً وتحريراً، فالأستاذ حكيمُ الأمة في هذا العصر، وأبلغُ كتّاب العرب أجمعين، على أنَّ في الكتاب من الفوائد الكثيرة ما ليس في (الرسالة)، كما أنَّ فيها ما ليس فيه، فلا يُستغنى بأحدهما عن الآخر».

قال الأستاذ رشيد رضا ذلك بعد موازنةٍ ساقها بين المصنفات الحديثة ومصنفات المتأخرين من أصحاب الحواشي، فقال: «إنها مأخوذةٌ من كتب المتقدّمين، نسخاً يشبه المسخ، وأنه لم يكن يوجد عندنا كتابٌ في الدين إذا عُرض على متمدّني هذا العصر، يأخذ قلوبهم مأخذاً يلفتهم إلى النظر في الدين بتمثيله، سائقاً لهم إلى سعادة الروح والجسد، على الوجه الذي يناسب زمنهم وعمرانهم، حتى قام حكيم الإسلام في هذا العصر، الأستاذ الشيخ محمد عبده فألَّف (رسالة التوحيد) الشهيرة».

---

(١) المنار: السنة الثانية، الجزء السابع.

وحين تحدَّث (تشارلز آدمس) المستشرق الأمريكي في كتابه (الإسلام والتجديد في مصر) عن الأستاذ محمد فريد وجدي أسهب بعض الشيء في الحديث عن كتاب (المدنية والإسلام) فذكر أنّه أراد به أن يُفهم الأوروبيين حقيقة الدين الإسلامي وماهيّته، وإثبات أنه ضامنٌ للإنسان نيل السعادتين وكافلٌ راحة الحياتين، ومضى يلخِّص بعض عباراته في أمانةٍ صادقة، ثم أنهى حديثَه عن الكتاب بقوله[1]:

«يرمي فريد وجدي بكتابه هذا إلى أمرين: أوّلهما **الدعوة إلى الإصلاح**، والثاني **الدفاع عن الإسلام الصحيح**، ونستطيع أن نفهم روحَ الكتاب من عبارةٍ يكثر ورودها فيه، وهي قوله: فلا قاعدةَ دلَّت عليها التجارب، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر، يكون لها أثرٌ في ترفيه الإنسان، وتحسين بناء العمران إلا وهي صدًى لآيةٍ قرآنية، أو حديثٍ من أحاديث النبوة، حتى يُخيَّل للرائي أنَّ كلَّ جدٍّ ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية في سبيل رفعة شأن الإنسانية، لا يُقصد به إلا إقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الإسلامية».

وشاء الله لهذا الكتاب رواجاً محموداً، فقد تعددت طبعاته، ونفدت الطبعات جميعها في وقتٍ يسير، كما تُرجمَ إلى التركية، وطُبع بها عدة طبعات، وقرَّرت نظارة العارف بها تدريسَه بالمدارس الإعدادية،

---

(١) الإسلام والتجديد في مصر، ص٢٣٧، ترجمة عباس محمود.

ووصل صداه إلى مدارس بيروت الإسلامية، فقُرِّر على تلاميذها، وبعد طبعته الثالثة تُرجم إلى اللغة الأوردية بالهند، وإلى اللغة التترية بقازان، وإلى اللغة الفارسية بفارس، كما تُرجم إلى اللغة البوسنية، ونشرته جريدة (بهار) ـ أعظم الجرائد الإسلامية هناك ـ تباعاً على صفحاتها، واستغرق ذلك عاماً كاملاً، وبهذا الكتاب صار الأستاذ الشاب كاتباً إسلامياً مرموقاً، وباحثاً من كبار المتخصصين في شرح المبادئ الإسلامية! وهي نتيجةٌ حافزةٌ إلى الجهد المتواصل، إذ رأى المؤلف بعينه أنَّ العمل الجاد لا يعدم أنصاراً مؤازرين ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [القصص: ٨٤].

وبعد أن فرغَ الأستاذ وجدي من إثبات التقدم الحضاري للإسلام، وأنَّه الدين الخاتم الذي جاء لإسعاد البشرية بالتمتع بكنوز الأرض، وأنَّ ديناً سواه لا يبلغ مبلغَه في الأخذ بيد العالمين إلى الارتقاء الإنساني، رأى أنَّ الأسطورة الداروينية قد جذبت كثيراً من مفكري أوروبة إلى الإلحاد، وأنَّ بعض المتظاهرين بالثقافة قد أخذوا يترجمون إلى العربية ما يغرس بذوراً للشكّ في الخالق الأعظم، وإذا تمَّ ذلك، فلا إسلامَ ولا نصرانية، ولا رسلَ ولا أنبياء، لذلك صمَّم على محاربة الداروينية بسلاح العلم نفسه، وقد اضطره ذلك إلى قراءة مئات الكتب لمعارضيها من رجال العلم في الغرب، حتى أصبح هو المحارب الأول لهذه الأسطورة في الشرق بأجمعه، ولا أقول ذلك مجازفةً دون دليل، فقد كتب آلاف الصفحات، وأقول الآلاف عن عيان في دفع هذه النظرية، إذ بدأ هذه

الحرب الضروس في العام الأول من هذا القرن، وظلَّ على جهاده حتى لقيَ ربّه منافحاً مناضلاً، لم يفلَّ له سلاح، أي أنه ظل خمسةً وخمسين عاماً لا يغيب عنه درءُ هذا الخطر الماثل في إنكار الخالق.

أما الخطوة الأولى في هذا الطريق الممتد إلى أبعد غايات الامتداد، إذ لم ينته إلا بالتحاقه بجوار الله، هذه الخطوة بدأت بتأليف (الحديقة الفكرية) سنة ١٩٠١م منشورةً على نفقته الخاصة، ومطبوعةً بمطبعة الترقّي بشارع عبد العزيز، وقد جعل هدفَها إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية، وقال في مقدمة كتابه[1] بعد تمهيدٍ رائع:

«إنَّ المسألة اللاهوتية ـ مسألة وجود الله ـ هي مسألة المسائل، ومفكُّ جميع المشاكل والمعاضل، مَنْ حلَّها فقد نال سعادةَ الأبد، ومَن فقدها فقدَ مزية البقاء، وعاش في الدنيا آسفاً حزيناً، وخرج منها كمداً مهيناً، ثم هي مسألةٌ شغلت حكماء العلماء كلَّهم منذ القدم، ولم تزل الشغلَ الشاغل لكبار العقول حتى اليوم، وقد طرأ على حُلولها من التغيير والتبديل على قدر ارتقاء الفكر الإنساني ما جعلها في عداد المسائل الرياضية، من حيث سهولة الاستدلال عليها، لهذا رأينا ألا نحرمَ أبناءَ ملَّتنا من نتائج هذه المحاولات الفكرية الجديدة، لنُريهم بالبرهان المحسوس، صِدْقَ ما قلناه وردَّدناه من أنَّ كلَّ خطوةٍ يخطوها البشر في

(١) الحديقة الفكرية، لمحمد فريد وجدي، ص٥.

سـبيل الرقيّ العلمي، هي تقرُّبٌ إلى ديننا الفطري، حتى ينتهيَ الأمرُ بالإقرار بأنه دين الحق».

هذا الكتاب هو الخطوة الأولى في مكافحة المذهب المادي، أما ما بعدها من الخطوات التالية فله حديثه المرتقب بعد قليل. .

* * *

في ميدان الصحافة

وجد فريد وجدي من نفسه قدرةً على القيام بتحرير المجلات والجرائد رئيساً للتحرير، ومديراً للإدارة، وكاتباً مسترسلاً، يرقبُ الأحداث، ويفسّر مجرياتها، ويعلِّل نتائجها، فقد كان غزير الاطلاع، حسن التصور والتصوير معاً، دافقَ الأسلوب، على نهجٍ أدبيٍّ لا يُغفِل عمق المعنى، وسلامة المنطق! كما أنَّ له رسالةً في الحياة رسالةً عرفها منذ نشأته الأولى، وظلَّت تلازمه حتى مختتم حياته، وهي في كلِّ يومٍ تزيد سطوعاً، وترسخ ثباتاً، هذه الرسالة هي **أنَّ الإسلام صالحٌ لقيادة الإنسانية**، وعلى الكاتب أن يسعى إلى تحقيق ذلك بما ينشر من مؤلفات، ويلقي من محاضرات، ويكتب من مقالات! وإذا كانت مؤلفاته السابقة عن (الفلسفة الحقة) و(الإسلام والمدنية) و(حديقة الفكر) قد دارت في هذه الدائرة، فالمؤلفاتُ وحدها لا تبلغ بالرسالة أن تكون ذات عمومٍ شامل لأكثرية القرّاء، وإذا كانت الصحافة المزدهرة (كاللواء) و(الأهرام) و(المؤيد) ترحب بمقالاته، فإنَّ هذه الصحف لا تسمح في بعض الأحيان بنشر ما يرسله، لأمورٍ تراها من ناحية السياسة أو العقيدة، أو اختلاف وجهة النظر، كما لا تحبِّذ الطَرْقَ في موضوع واحد تتوالى مقالاته متسلسلةً حتى تبلغ العشرين، مدَّعيةً أنَّ في ذلك ما يُحدث المللَ للقارئ،

وهو يحبُّ التجديد والتنوُّع .

لذلك رأى (محمد فريد وجدي) أن يصدر مجلـةً علمية سـمَّاها (الحياة) تؤدي ما يرومه من أفكارٍ في البعث الإسلامي، واليقظة الدينية، وتنشر أحسنَ ما تمخَّضت عنه البحوث الأوروبية مما يؤيد الإسلام في أصوله.

ومع أنه كان يقيم مع والده في السويـس حيث انتقل من دمياط إلى مِثل وظيفته، وكان في البعد عن القاهرة ما يضطر الشابَّ ذي الحادية والعشرين من عمره أن يُـرجئ التنفيذ، حتى تسمحَ الأيامُ بالاستقرار في العاصمة، مع هذه المعوِّقات، فقد آثر الشاب أن يتَّصل أسبوعياً ـ وأحياناً في نصف الأسبوع ـ بالمطبعة في القاهرة، ومعه المقالات التي تتضمَّن عدداً كاملاً بمواده وأصوله، ليراجع مواد العدد الراهن، ويسلِّم مواد العدد القديم، ويقرأ الرسائل البريدية من إدارية وعلمية، ويختار منها ما يليق بالنشر، وهذه الأخيرة مسألةٌ يسيرةٌ جدّاً، لأنه كان يقوم وحدَه بتحرير أكثر الأبواب، وفي بعض الأحيان كان يكتب فصولَ المجلة من ألفها إلى يائها، وهو أمرٌ مستغربٌ الآن، ولكنَّـه كان طبيعياً في مطلع القرن العشرين ما دامت البحوث متنوعةً، وإلا صارت المجلةُ كتاباً!! وقد صدر العدد الأول في غرة صفر سنة ١٣١٧هـ ـ (٩) يونيو ـ حزيران سنة ١٨٩٩م من (مجلة الحياة) وهذا هو اسمها، وله مقدمةٌ توضِّح هدف المجلة، وترسم خططها، وما أقوله عن (مجلة الحياة) هنا بالذات قد

رجعتُ فيه إلى كتاب الأستاذ الدكتور محمد طه الحاجري رحمه الله[1]، إذ كتب عن هذه المجلة ما شفى الغُلّة، في حين لم أستطع الحصول على أعداد هذه المجلة بدار الكتب، بعد سؤالٍ دائم، وإلحاحٍ جاوزَ الحدَّ دون أمل، يقول الأستاذ وجدي تحت عنوان (مقصد الحياة) بالعدد الأول:

«فمقصدُ الحياة، والحالةُ هذه هو الحيلولةُ بين مكارب الإلحاد وأذهان أبناء الشرق، ولذلك فهي ستجعل مطمح نظرها جملـةَ نقطٍ مهمة:

أولُها: **إقامةُ أقوى الأدلة العلمية على أنَّ الديانة الإسلامية هي روح العمـران، وقـوام سعـادة الإنسـان**، بطـرقٍ لا تجعـل للشكـوك مجـالاً للأذهان، وسنسـلك لهذا الغرض المسالكَ العصرية، وتأييد أقوالها بالحجج الفلسفية الحسية.

ثانيها: **تثبيتُ الأحوال الدينية في العقول الطامحة**، كإثبات وجود الله تعالى والروح، والحياة الآخرة، وسنعتمد في ذلك على تحقيقات العلماء العصريين، جرياً مع سنّة الزمان، اعتقاداً منّا بأنَّ نشأتنا الحديثة أحوجُ إلى هذه الخدمة منها إلى سواها، وإيقاناً من لدنّا بأنَّ نقش أصول

---

(١) (محمد فريد وجدي)، للدكتور طه الحاجري ما بين ص٤٩ إلى ص٥٩، فقد أشبعَ المؤلف حديث مجلة (الحياة) بما لا مزيدَ عليه رحمه الله.

العقائد في أذهانها بالطرق العصرية أنفعُ لها وللبلاد من تعليمهم الطبيعة والكيمياء.

وفي مقدمة العدد الأول من السنة الثانية أكَّد الأستاذ هذه الأغراض، فقال في مفتتح هذا العدد:

«إننا أسَّسنا هذه المجلة في مثل هذا اليوم من السنة الماضية، ومطمح نظرنا غرضان مهمّان، هما تثبيتُ أصول الدين الإسلامي الحنيف في عقول أبنائه بنتائج العلم العصري، وإقامةُ الأدلة العمرانية والفلسفية على أنَّ هذا الدين الكريم، هو منتهى ما يصلُ إليه الإنسان من حقيقة الدين، وغايةُ ما تدفعه إليه استعداداته الفطرية المنزوية في طيّ مواهبه الطبيعية».

ولنا أن نقفَ على بعض أبواب (المجلة) من السنة الأولى، فنرى في العدد الأول حديثاً عن أوهام مَن يعتقدون أنَّ العلوم الحديثة تزلزل العقيدة، مع أنها في صميمها أداةٌ لإثباتها، كما نرى مقالةً تحت عنوان (ما وراء المادة)، ثم نجد في العدد الثاني باباً مستحدثاً تحت عنوان (معجزات الإسلام الخالدة) وباباً للمقامات الخيالية، كان أساساً لما كتبه بعدُ في مجلة (الوجديات).

وفي العدد الثالث بابٌ جديد تحت عنوان (الشبهات العصرية على الأديان) مضافاً إلى الأبواب السابقة التي ظلت تسلسلُ في حلقات، ثم بابٌ جديد تحت عنوان (أسئلة القراء) وكلُّها تدور حول حقيقة الإسلام، وإثبات وجود الله تعالى.

وقد ظلت المجلة تنهج هذا النهج دون تعثر، حتى بلغتْ أعدادها ثمانية عشر عدداً في الفترة ما بين صفر سنة ١٣١٧، رجب ١٣١٨هـ، ثم توقفتْ عن الصدور لأمورٍ مالية، حيث تقاعس المشتركون عن أداء ما عليهم، وقد أُرسلتْ لهم المجلةُ بعد طلبٍ خاص من كلٍّ واحد منهم، وظنَّ الرجل أنَّ المشترك سيسارع بإرسال قيمة الاشتراك وفاءً بما التزم، ولكنَّ أكثر هؤلاء قد نكفـوا عن أداء الحق، وقد استطاع محمد فريـد وجدي أن يُواصِلَ السير، ببعض ما تيسَّر له من مال أبيه، فرأى الخسائر تتضاعفُ دون جدوى، وقد صعَّدَ زفرةً حارة أودعها آلامَه، في ما قبل العدد الأخير حيث قال:

«إننا لم نتشجَّع على تحمُّل هذه الخسائر المالية إلا لما نعلمُه من شغف الخاصة والعامة بمطالعة ما نكتبه، ونجهدُ فيه أنفسنا شهرياً، وقد أرسلنا في الشهر الماضي إعلاناً لكلٍّ قارئ، وانتظرنا النتيجة منـه، فقوبلنا بالإغضاء التام، مع أنه لم يوجد واحدٌ من الذين أرسلنا إليهم الإعلانَ إلا وهو قد طلب الاشتراك بنفسه، وبغاية الامتنان، نعمْ، إنَّ إرسالَ تلك القيمة مهما كانت زهيدةً فيه بعض التاكليف على حضراتهم، ولكنْ إذا كانوا لا يودُّون تعبَ بضع دقائق، مرةً في كل سنة، في سبيل تشييد مشروع ضروري مثل هذا، فهل يرون في عيونهم بعد ذلك أن نعطِّل أوقاتنا، ونشغَل أفكارنا، ونبذل دنانيرنا في كلِّ يوم، بل في كل ساعة، ثم نلجأ بعد ذلك، إلى تكرار طلب قيمةٍ نأنف عن ذكرها (خمسة عشر قرشاً في السنة جميعها) نظنُّ أنْ ليس في قرّائنا واحدٌ تروق لديه هذه

الحالة، وإننا لم نتشبَّث بطلب الإسراع في دفع هذه القيمة إلا تحامياً من مِثل خسائر السنة الماضية، فإنَّ أربعمئة وخمسين مشتركاً تأخروا عن الدفع، فقطعنا عنهم المجلة! ولا يخفى ما لحقنا من الخسائر من جرّاء هذا الكسل، وبناءً على ذلك نؤمِّل من حضرات القرّاء ألا يُلجئوا هذه اليراعة أن تنزل من الكتابة في تلك المباحث الجليلة، إلى تحرير أمثال هذه الطلبات التافهة».

وأنا أسأل: كيف جاز للأستاذ فريد وجدي أن يُرسل المجلة عاماً كاملاً أو أكثر لمن لم يدفع الاشتراك مقدَّماً؟ لقد كان ذا نيّةٍ طيبة إذ اعتقد أنَّ القراء مثله في الوفاء بالوعد، فقدَّم إليهم مجلته راضياً واثقاً من أدائهم الواجب، وإذا كنا نعرف أنَّ جميع من رغبوا في الاشتراك مثقَّفون يريدون الاطلاع على البحوث العلمية الشائقة، فكتبوا إلى صاحب المجلة يودّون الاشتراك، فإننا نسأل عن هذا الضمير الأدبي لدى هؤلاء، وفي الأميين من الفلاحين مَن يسهر ليلَه مفكراً في أداء ما عليه استجابةً لعاطفةٍ لا يطيق لها مخالفةً! وإخال الأستاذ قد تهكَّم بهم حين قال: إنهم لا يودون تعب بضع دقائق في يومٍ واحد من أيام العام الطويل، كي يكتبوا إليه رسالةً خاصة بالاشتراك، فلماذا لا يتعبون من الذهاب إلى البريد شهرياً لتسلُّم المجلة! ولماذا لا يتعبون من قراءتها التي تتطلَّب الساعات! الحقُّ أنَّ هؤلاء كانوا جديرين بعباراتٍ أشدُّ قسوة!.

ولو كان مديرُ المجلة غير الأستاذ وجدي لطالبهم قضائياً بما عليهم لأنَّ طلب الاشتراك صكٌّ واجب النفاذ! وسيتحمَّلون نفقات الدعوى

مهما كان المبلغ الأصلي ضئيل القيمة، فهو حقٌّ واجب الأداء، والقليل إذا ضُمَّ إلى القليل أنتج الكثير.

لقد كانت تجربةً مرّة عاناها الأستاذ، ولكنه بعد بضعة أعوام، عادَه الشوقُ إلى الصحافة على نطاقٍ أوسع فقرَّر أن يصدر جريدة (الدستور) وقد آن الحديث عنها فأقول:

لقد كان اتجاهُ محمد فريد وجدي قبل أن يصدرَ (الدستور) منصرفاً إلى البحوث الإسلامية والاجتماعية كما أسلفنا من قبل، فهو يتحدث عن تحالف أوروبة على الإساءة إلى الإسلام، ويدحضُ كل الافتراءات التي تدَّعي جمودَه، وعدم تجاوبه مع المدنية العامة، كما يناقش شؤون المرأة والتعليم والثقافة في ضوء ما يعرفه من الحقائق الإسلامية! ولكنَّه في الوقت ذاته لم يكن كاتباً سياسياً يتحدَّث عما يجري في البلاد من أحداث، ويهاجم الاستعمار في سطوته الغاشمة، إلا ما كان من ردّه على اللورد كرومر في تقريره الذي جافى به الحقيقة ضدّ المصريين بخاصة، والمسلمين بعامة! أجل كانت مقالات الأستاذ في (المؤيد) و(اللواء) وفي مجلة (الحياة) لا تمسُّ السياسة المصرية في شيء، وكان القرّاء يعرفونه عالماً ذا توجهٍ إسلاميّ، مع أنه يعيش يَقِظَ العقل، مفتوح العين على أحداث الاستعمار في بلده، وكان هواه مع الحزب الوطني، يُعجَب بمبادئه في الاستقلال التام ووحدة وادي النيل، ويرى في هذه المبادئ فاتحةَ الخير للدستور المنشود، والاستقلال الحرّ، وكان يناقش في ذلك زملاءه من المفكرين.

ثم هو لا يخفي إعجابه بالزعيم (مصطفى كامل) ويراه لسانَ الشعب الصريح، الذي يجاهر بآرائه الحرّة دون مواربة، وقد سعى إلى لقائه، وسُرَّ الزعيم بفريد، وأصبح أحد أعضاء الحزب الوطني البارزين، وللحزب صحيفةُ (اللواء) الناطقةُ باسمه، الهاتفةُ بمبادئه وأهدافه، ولفريد وجدي بها مقالاتٌ تمسُّ الحالة الاجتماعية، والمسائل التعليمية، وقلّما تتعرَّض لفنون السياسة!

وقد أراد في ضوء هذه الأحوال أن ينفردَ بصحيفةٍ يومية تسير على مبادئ الحزب الوطني، ولكنَّها في الوقت نفسه تفتح باب المعارضة لما يحتاج إلى اختلاف الرأي من مقررات الحزب، كما أنها من ناحيةٍ أخرى تُسالِمُ الأحزابَ المصرية، فلا تعارضُ الأشخاص لذواتهم، ولكنَّها تَنتقِدُ من اتجاهات الأحزاب ما تراه موضع المؤاخذة، في ضوءٍ من الحرية المتَّسقة للآراء المتناقضة، إذا سَلِمَتْ الضمائرُ، وصلَحت النيات، وأكبر فرقٍ بارز بين الصحف المصرية المماثلة مثل (اللواء) و(المؤيد) و(الأهرام) و(الجريدة) أنها لا تُفسحُ الصفحات الدائمة للبحوث العلمية، ولا تجعل للفكر المعاصر والأدب والأدباء مجالاً واسعاً للتحليل، وبخاصةٍ ما يتَّجه من الأفكار إلى مستقبل الإسلام، وعظمة التشريع، وقيادة الفكر الإسلامي للعالم في أزهى عصوره، ثم إلى مفتريات الاستشراق، وأساليب البحث المعوج في صحائف المبشرين! هذا كلُّه كان لا يجد الأفق الفسيح في الجرائد المعاصرة، بل يجد مقالاً بين الحين والحين يظهر على فترات، وكأنه يمضي على استحياء، لذلك

اعتزم الأستاذ فريد وجدي إصدار جريدة (الدستور) يوميةً في السادس عشر من نوفمبر ـ تشرين الثاني سنة ١٩٠٧م، وقد قال الأستاذ فريد وجدي في المقال الافتتاحي ما نصّه:

«إنه بإصدار (الدستور) لا يدَّعي أنَّ في الصحافة المصرية فراغاً جاء ليسدَّه، فإنَّ في ذلك غمطاً للحق، وما به إلا أن يزيد في صوت الدفاع عن حقوق مصر صوتاً جديداً، لا يختلف في النغمة عن سائر الأصوات المخلصة، إلا أنه سيتعطَّر بعبقةٍ من العلم الاجتماعي، فما (الدستور) والحالة هذه إلا محامٍ جديد انتدبته الأمة بإقبالها على سُهومه للمرافعة في قضية مصر، بأسلوبٍ علمي، ليصبحَ صوت الدفاع حاصلاً على كل ما يجعله محترماً، ثم حدَّد أهداف الجريدة الجديدة فيما يلي:

١ ـ المطالبةُ بالحقوق الطبيعية، ويندرج تحتها الاستقلال والحكم الذاتي، وبيان وسائل الحصول عليها من طريق الآداب الاجتماعية.

٢ ـ تقوية العاطفة الدينية في النفوس، وهي العاطفةُ التي عليها مدار الوجود السياسي للأمم.

٣ ـ العمل على ترقية الشعور العام بالحقوق والواجبات الاجتماعية وإعداد النفوس لقبول عظات الحوادث والاستفادة منها.

٤ ـ العمل على توجيه العواطف والأميال الوطنية المتعددة إلى وجهةٍ عامة مشتركة، لتكون للأمة شخصيةٌ تامة الصورة، يُعرف لها حقٌّ فيُحترَم ويُعلم لها وجودٌ فيميَّز.

٥ ـ تصوير موقف مصر بإزاء الأمم عامة، وبإزاء السلطات التي تتنازعها خاصة، وتعيين واجبات المصريين حيال ذلك.

٦ ـ البحث في الأحزاب المصرية ومراميها، ودرس عوامل كلّ منها، والكلام على الجرائد التي تشخصها.

٧ ـ تنشيط حركة النهضة المصرية، والدعوة للتربية والتعليم، وإرفاد كل ما من شأنه إعداد المصريّ للاستقلال والحرية.

٨ ـ نشر مباحث في العلوم السياسية والاقتصادية، وتركيب الأمم، والحقوق والواجبات الطبيعية، ونظام المطالبة بها، وكيفية حفظ الأمم لمركزها بين حركات التنازع السياسي والاقتصادي والاستعماري الواقع عليها من الأمم الأخرى.

وهذه الأهداف لم يقصّر الأستاذ عن تحقيقها، إذ كان الدستور نمطاً فريداً في بابه، يقرأ فيها المصريُّ شؤون السياسة والعلم والتاريخ والأدب على نسقٍ متكافئ! وقد شارك (اللواء) و(المؤيد) و(الجريدة) في إنهاض الحياة الأدبية، ولكنْ بعددٍ محدود، فكانت قصائد الشعر، وبحوث الأدب تظهر فيها على نحوٍ لا يجعل القارئ يحسُّ أنَّه من أهداف الجريدة الأولى، ولكنّه شيءٌ إضافيٌّ يُسمح به إذا اتَّسع الفراغ، أما صفحات الأدب والفكر والاجتماع فكانت صفحاتٍ أساسية في (الدستور) تضاف إلى ما تخصص فيه الأستاذ فريد وجدي من الاهتمام بالبحوث الخاصة بالفكر الإسلامي، ومناقشة من يحاولون طمسَ بريقه من الوصوليين.

وهناك ناحيةٌ أخرى من امتياز (الدستور) عن زميلاته هي أنَّ الأستاذ فريد لا يتخلَّى عن النهج العلمي الدقيق في مقالته السياسية أو العلمية بحيث يرى القارئ في المقال السياسي منطقاً علمياً، ينتقل به من المقدمة الدالة إلى البسط المعتدل إلى التدليل المقنع إلى الختام المُلخّص، لذلك كان المقال في بعض أحيانه متصلَ الحلقات، لأنَّ الكاتبَ يريد إشباع قارئه بكلٍّ ما في صدره من شجون، وما في عقله من أفكار.

وعلى يده ظهر هذا العنوان الدائم في جريدة (الدستور): «حركة العلم والفلسفة في القرن العشرين)وهو بابٌ يُنتظَر أن يُوجد بهذه الدسامة في مجلةٍ شـهرية (كالمقتطف) أو (الهلال) أو (البيان) ولكنه وُجد في الجريدة اليومية على نحوٍ يُشعر القارئ أنه لا يتصفَّح جريدة، بل يقرأ بحثاً أكاديمياً ذا فصولٍ وتتابع! وقد كان لهذه البحوث عشّاقها من الكتّاب والقرّاء، أما الكتّاب فقد واصلوا كتابة أمثال هذه البحوث مما يتَّسع له عنوان الصحيفة، وأمّا القرّاء فقد لمسوا فوائد علمية جزيلة لم يروا أمثالها في صحيفةٍ يومية.

ولكن هل استطاع محمد فريـد وجدي أن يمضي بجريدتـه إلى النهاية؟ لقد كان مستقلَّ النظرة إلى الأحزاب جميعها، فكان يعارض (حـزبَ الأمة) و(حـزب الإصلاح الدستوري) إذا رأى من اتجاههما ما يُوحي بالاعتراض، ثم رأى من حقه أن يعارض (الحزبَ الوطني) الذي هو عضوٌ فيه، متى رأى وجهاً وجيهاً للمعارضة! وهو أمرٌ معقول

في حدٍّ ذاته، لأنَّ المعارضة الصادقة تخدم الحقيقةَ المنشودة، كما تُنشئ من شباب الحزب رجالاً يقدِّرون اختلاف وجهات النظر، ويرون ذلك شيئاً طبيعياً لا نشازَ فيه، ولكنَّ النفوس هي النفوس! فقد عزَّ على زعماء الحزب أن يجدوا بينهم مَن يجاهر بالاعتراض في أمرٍ قام به رئيس الحزب، وأيَّده بعض الأنصار! وقد أفاضَ الدكتور (محمد طه الحاجري)[1] في إيضاح هذه الناحية، وضربَ الأمثلة لبعض مواضع الخلاف مما نرجو أن يرجع إليه القارئ إذا أراد الإحاطة بكل ما كان، وذلك في الباب الأخير من كتابه! وإنَّه لبابٌ قيِّمٌ حقاً، وكان شباب الحزب، وجمهرة القراء معاً، لا يقدّرون هذا الاختلاف، ويعتبرون صاحبه ناشزاً عن وجهة الحزب، فتنادوا بسقوط (الدستور) وقاطعوه شراءً وقراءةً، وقد أرسلوا إليه مقالات الاستنكار وبرقيات الاحتجاج، فنشرها جميعاً، وعقَّب عليها بما يوضِّح وجهة نظره، وقال فيما قال:

«إنَّ كوني من الحزب الوطني أعترفُ بزعامة مصطفى كامل باشا لا يمنعُ أن أنتقد خطبته، وأن أبيّن للشبيبة موقع الخطأ والصواب فيها على ما يقتضيه واجبُ الصحافة، هل تمنعُ الإنكليزي إنكليزيتُه من انتقاد خطبةٍ لملكه، أو موقفٍ لزعيم حزبه، وإذن ما فائدةُ التعاون والتناصح والمساعدة على تقويم الآراء وتعديل المنازع؟ وفي أيِّ مذهبٍ، وفي أيِّ قانون يُعدُّ الانتقاد رذيلةً أو تلوّناً أو بُعداً عن الواجب؟ وما فائدةُ إصداري

---

(١) (محمد فريد وجدي)، للدكتور الحاجري من ص١٥٨ إلى ص١٧٥ .

(الدستور)، وفي مصر جرائد لا تحصى، وأنا في غنًى عن الكسب من جهته، إن كنتُ لا أملك حرية الانتقاد فيما أعتبره واجباً ضرورياً! نحن في عصرٍ ننتقد فيه سياسةَ سلاطيننا وملوكنا؟ أفلا نستطيع أن ننتقدَ زملاءنا وأصدقاءنا؟ لقد أسَّستُ (الدستور) وأردتُ به تأسيسَ جريدةٍ حرة عادلة رشيدة، قرآنية المزاج، لا تميل مع الهوى، ولا تحيف على خصم، ولا تتحيّف الأنداد، ولا تتعدى حدودَ الأدب، ولا ترى لغير الحق سلطاناً، ولا سوى الفضيلة حليةً».

هذا بعض ما قال الرجل في الردِّ على مخالفيه من الثائرين، وقد توالت الاحتجاجات عليه، كما والى الرجل العظيم ردَّه في منطقٍ معتدل، لا يعبأ بالشتائم، بل يُغضي عنها، وكأنه لم يقرأها، ثم تكرَّر النقد، وأضربَ جمهور الوطنيين عن (الدستور) بل حاربوا توزيعه بما استطاعوا من الوسائل، فلم يجد الكاتب الشجاع بدًّا من إيقافه، ليرتاح هؤلاء، وقد كان يحاول الثبات بقدرٍ من الصبر والتماسك حتى نفد ما بيده، ولم يقبل معوناتٍ مغرضة سيقت إلى (الدستور) ليتكلَّم بلسان من لا يراهم موضع ارتياحه، وهي مسألةٌ عالجها تلميذه الأستاذ (عباس محمود العقاد) حين قال بهذا الصدد[1]:

«ومن المعونات التي عُرضت عليه في أحرج أيام الأزمة، معونةٌ كبيرةٌ من جماعة (تركية الفتاة) يبذلونها للدستور مشاهرةً ليكون لساناً

---

(١) رجال عرفتهم للأستاذ العقاد، ١٤٩.

عربياً لحركتهم، ولكن على شريطةٍ واحدة هي أن يرفعَ من صدر الصحيفة كلمة (لسان حال الجامعة الإسلامية)، فرفض الرجل هذه المعونة، ورفض أن يجعل صحيفته لساناً للحزب إلا بشروطه التي يرتضيها!.

وفي الوقت الذي كانت هذه المعونات تُعرض عليه من شتى الجوانب، ومنها جانب الحاشية الخديوية، كان الرجل يتحامل على نفسه، وعلى القليل من موارد مؤلَّفاته، ليُنفق عليها بعد تصغير صفحاتها، واختصار أعدادها، فلمّا استنفد كلَّ ما في قدرته على إنفاقه في هذه السبيل، أعلن تعطيلها وهو مدينٌ لتاجر الورق، وموظّفي التحرير والإدارة بمقدارٍ غير يسير، فأبتْ عليه نزاهةُ النفس أن يؤخِّر مليماً واحداً لصاحب دين، واتّفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلَّفاته بثمنٍ يقلّ أحياناً عن عشر ثمنها في المكتبات، ومنها على ما نذكر معجمه المسمّى (كنز العلوم واللغة) وثمنه مئة وعشرون قرشاً، فاتفق على حُسبانه بثلاثة عشر قرشاً، واشترط على التاجر أن يشتري النسخ التي تُصرف للموظفين بما بقي لهم من متأخر الأجور والمرتبات، وحضر بنفسه تسليم النسخ، واستلام الأثمان! وهذا هو الرجل الفريد في نزاهة نفسه، واستقامة خُلقه، وحفاظه على مبدئه ورأيه».

وقد كان الأستاذ وجدي صادقاً مع نفسه، حين يهاجم مَن لا يرى في مسلكه السياسي خيراً للأمة، إذ يرى السكوتَ عن مثله خطأً لا يمكن تبريره، وقد راعه مسلك (الجريدة) التي يقوم على تحريرها (أحمد لطفي السيد) أمام الاحتلال، فهي تُهادنه، وتدعو إلى مصالحته ومسالمته،

على حين تتنكّر لتركية، وشنَّ حملاتٍ قاسية على حكامها استجابةً لرغبة الاستعمار، وقد كرَّر الأستاذ وجدي انتقاده، راجياً أن تعدِّل الجريدة عن خطتها المناوئة للاستقلال المباشر، ولم يتعدَّ الحقيقة حين ذكر (حزب الأمة) الذي تنطق الجريدةُ بلسانه، وممَّن تتكون؟ وإلى أيِّ غرضٍ يهدف، فقال في مقالٍ صادق أرحِّب بنقل فقراتٍ منه، لأنَّ أناساً لا يزالون يضفون البطولات الزائفة، والأستاذية البرّاقة على قومٍ لم يقدِّموا للوطن معشار ما قدَّم المخلصون من أمثال (مصطفى كامل) و(محمد فريد) و(أمين الرافعي) و(عبد العزيز جاويش) و(محمد فريد وجدي)! وبعض هؤلاء لا تذكره الأمة الآن، وكأنهم لم يضحّوا بأغلى ما يُضحَّى به استجابةً لنداء الحرية والاستقلال، يقول الأستاذ محمد فريد وجدي، والنقلُ هنا عن كتاب الأستاذ الفاضل (أنور الجندي) رحمه الله إذ قام بتسجيل بعض مقالات فريد وجدي بالدستور، فكان مما اختار[1] قوله:

«إنَّ طائفةً من الأعيان اجتمعوا وقرَّروا العملَ على تأسيس جريدةٍ حرة مستقلة عن كلِّ سلطةٍ، تجمع إلى علوّ تحريرها جمال الرواء، وبهجة الثراء، فتنجذب الأمةُ من بين مخالب المأجورين والمتحمّسين (وهي عبارة (الجريدة) في ذمّ أنصار الحزب الوطني) وما إليهم، فلم يَسَعْهُم إلا أن أوفدوا إلى اللورد كرومر قيصر قصر الدوبارة يكاشفونه

---

(١) (محمد فريد وجدي)، للأستاذ أنور الجندي، ص٥٢ نقلاً عن جريدة الدستور ١٠/١٢/١٩٠٧، والنقل ببعض التصرف، إذ رأيتُ الاقتصار على الأهم الدامغ.

بحقيقة نواياهم، فوجدوا منه كلَّ تشجيعٍ، إذ رأى في ذلك ما يخدم أغراضه، بعد أن عجز عن إماتة الشعور الوطني لدى المصريين.

وقد قرأ الناس في (الجريدة) مقالاتٍ ومباحث، فهل مرَّت (الجريدة) بذكر الاستقلال؟ هل مسَّتْ موضوعاً دقيقاً بين المصريين والمحتلين؟ هل ناضلتْ عن حقوق مصر بلهجة المصريّ الغيور؟ هل علَّمت المصريين كيف أنَّ الوطنيين سياجُ الأمم، ومساكُ الشعوب؟ لعلّنا على باطلٍ من أمرنا، وجاءت (الجريدة) لهدايتنا إلى الحق فيه، فهل سعتْ في التوفيق بيننا وبين المحتلين؟ هل ناضلَتْنا في حقٍّ ننكره عليهم ظلماً؟ إذن ما الجريدة، فلا هي على مشرب الجرائد الوطنية، تعبّر عن شعور المصريين، وتمدُّهم بالدروس المرقّية لعواطفهم، ولا هي على هدي الهداة المخالفين فتستحق منا احترامَ المخالف المخلص».

وقال عن أحمد لطفي السيد: «تكلَّم لطفي السيد عن الوطنية كلاماً يعدّ في علم الفلسفة اليوم من بقايا القرون المظلمة، التي كان فيها أمر النوع الإنساني قائماً على المنفعة المحضة، ولم يدرِ أنَّ العالم الإنساني قد تدرَّج نحو الكمال، فهو يطلب الوجود الأرقى، ويظهر أنَّ لطفي بك قليل الاطلاع على تعارك الأفهام.. خطيبٌ يقوم في القرن العشرين وسط أمةٍ في مضطرب الأمم، تعتبَر عطشى لسلسبيل العلم الراقي، فلا يواتيها من نظريات الوطنية بأحسن مما كانت عليه أيام البداوة الأولى، حين كان الرجل يسلب جارَه! عاملاً على مبدأ المنفعة! وقد غاب عنه أنَّ المنافعَ قد ارتقتْ في ذاتها، وفي نظر الأمم، فبعد أن كان الإنسان يعيش

على هيئةٍ قبلية، ارتفعت المنفعةُ في ذاته، فمالَ إلى تكوين أمة، ثم كان للأمة مُثُلها الراقية».

هذه نظراتٌ ملخّصة، تـدلُّ على أنَّ الكاتب الكبير محمد فريـد وجدي كان يضع كلَّ إنسانٍ موضعه الصحيح، وكان يعرف المستسلم الخائر من المحارب الشجاع، وكان لا يخدع بفلسفةٍ زائفة يروّجها من لم يفهم طبيعة عصره، ويقول: المنفعة المنفعة! أمّا أين المنفعة ففي مسالمة الاحتلال!.

إنَّ الحديث عن جريدة (الدستور) يتطلَّب باباً كبيراً ذا فصول، فإذا اكتفيتُ ببعض هذه السطور، فحسبي أن أشير إلى نموذجٍ منها.

وبعد: فهل يجوز لي أن أتركَ حديث محمد فريد وجدي الصحفيّ النابه دون أن أشيرَ إلى جهاده الرائع في تحرير (مجلة الأزهر) وإلى نبوغه الأدبيّ في تحرير صحيفة (الوجديات) إنَّ حديث (مجلة الأزهر) سيتلو هذا الفصل، لأنه في حاجةٍ إلى بعض الاستفاضة الشافية، أما حديث (الوجديات) فهذا بعض ما يومَئ إليه:

لقد كان أديب العصر الكبير الأستاذ (محمد بك المويلحي) يسطّر في جريدة (مصباح الشرق) فصوله الأدبية المعروفة لدى القراء (بحديث عيسى بن هشام)وهي ضربٌ من الأدب الاجتماعي، صيغَ في أسلوب المقامات العباسية، ولكنّه جاء صورةً فنية توضّح ملامحَ المجتمع المصري في فترةٍ من فترات الانتقال أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا

القرن، وكان لأسـلوب المويلحي من الطلاوة والرونق ما جذب إليه الأنظار بحيث أصبح الأديبَ الأول في مصر عند قوم! .

وقد رأى (فريد وجدي) أن يسلك مسلكَ المويلحي في المنحى العام حين اتَّخذ أسلوبَ المقامة ميداناً لما سمَّاه (الوجديات) تلك التي ظهرت فصولها الأولى في (مجلة الحياة) حتى إذا انتهت أيامُها، جعل يصدرها في صحفٍ قليلة تباعاً، وكأنها مجلاتٌ مستقلة، تصدر في غير موعدٍ محدَّد، ليتحدَّث عن أغراضٍ فلسفية، اهتمَّ بها الباحثُ في نطاق ما يجيد التعبير عنه من الأفكار الفلسفية، والتيارات العلمية في المحيط الثقافي الشامل شرقاً وغرباً، ولنزوعها الفلسفي المتعمّق.

كان قرّاؤها أقلَّ كمّاً من قرّاء حديث (عيسى بن هشام) لأنَّ طبيعة العصر لم تسمح أن تكون أحاديث الفلسفة، وأدقّ مسائل الاجتماع جاذبةً للرأي العام للقارئ، بل كان ذلك من هموم الخاصة، وهؤلاء على قلَّتهم القليلة يجدون هذا المنحى الفلسفي في صحف الغرب كثيراً، فلا يطالعهم الأستاذ بما يُدهش ويَرُوع، وكان عليهم أن يسارعوا إلى الاحتفاء بزادٍ هسم يقدَّم لأبناء العربية في نسقٍ روائيّ، فيسلّطون الضوء على اتجاهه الفني، وتفرّده بالعمق الذهني، والإلمام الشامل بتيارات الثقافة المعاصرة، وكان على مؤرخي الأدب الذين وقفوا طويلاً عند حديث عيسى بن هشام (وهذا حقُّه الطبيعي دون جدال) كان عليهم حين يتحدثون عن خطوات انتقال الأسلوب القصصي من جوّ المقامة الضيّق إلى فضاء النقد الاجتماعي الرحيب، ألاّ يُغفلوا صنيع الأستاذ وجدي في

سبقه إلى تقديم الفكر الفلسفي في زيّ المقامة المتطورة، فإنَّ هذا العمل الرائع جديرٌ أن يأخذَ مكانه في التاريخ الأدبي المعاصر، وحسبُه أن يكون طليعة القصة الفلسفية، كما كان حديث عيسى بن هشام طليعة القصة الاجتماعية، ولكنَّ اشتهار (وجدي) بالمقالات الإسلامية، والبحوث الدينية بَدَلَ أن يُحسَب له في تتبُّع كل ما يجود به قلمه في مناحي الإبداع، كان حائلاً دون هذا التتبُّع.

ولا يزال التاريخ الأدبي لواقعنا المعاصر، والواقع الماضي، في حاجةٍ إلى إضافاتٍ كثيرة، أهمُّها الالتفات إلى هذه الآثار التي عمَّقت الفكر العربي، وأدركتْـه قوةً ماضية في الارتقاء المتوثب، وقد جمع الأستاذ ما كَتبَ في هذا النطاق في كتابٍ خاص سمَّاه (الوجديات) وكأنه خاف أن يُفاجئ قارئه بما يراه عسير الهضم بالنسبة إلى ما توقَّع من أسلوب المقامات، فسارعَ ببيانٍ موجز عن روح هذه الوجديات، كتبه في صفحة الغلاف تحت عنوان الكتاب، فقال: «(الوجديات) مقالاتٌ خيالية، الغرض من نشرها تصويرُ مُثُلٍ عليا للحياة الفاضلة، وإمداد النفوس بالقوى الأدبية الضرورية لها، وقد اخترنا هذا الأسلوب لمواعظنا، لأنه أفعلُ في النفوس من سواه.

كما قال أيضاً في صفحة الغلاف الخارجيّ عن النسخة المطبوعة سنة ١٩٢٨ بمطبعة (دائرة معارف القرن العشرين): «إنَّ الأمم لا يستقيم أمرُها إلا بشكائم أدبية، تتنزَّل من عقولها، وتتحكم في أهوائها، وقد أثبتَ العلمُ أنَّ الإباحـةَ كانت السـببَ الرئيسي لكلِّ انحلالٍ طـرأ على المدنيات الفاضلة».

هذان القولان المتجاوران يصوّران الجناحين القويين التي ارتفعت بهما (الوجدانيات) في سماء الفكر العربي، الجناح الفلسفي الذي يصوّر المثل العليا للحياة الفاضلة، والجناح الاجتماعي الذي ينظر في أدواء الأمم، ويحاول العلاج لها».

وقد قال الرجل في مقدمة الكتاب: «إنَّ (الوجديات) كانت تصوّر مُثلاً عليا للحياة الفاضلة، وترسم حدوداً مقرّرة للمدنية الكاملة، وقد صادفتْ من القراء قبولاً عظيماً، وهذا عكسُ ما أوضحناه من قبل، لأننا إذا قِسنا أثرها بأثر عيسى بن هشام نجدها قد انحصرت في نطاقٍ ضيق، وذلك ما لم نكن ننتظره أمام عملٍ فكريٍّ ممتاز، كان من الواجب أن تتعدَّد طبعات عيسى بن هشام، وقد أشار الكاتب إلى أنه ليس أول من اخترع هذا النوع من الأدب، فقد سبق إليه فطاحلُ كتّاب العربية أمثال الهمذاني والحريري والزمخشري في القديم، وناصيف اليازجي في الحديث، وزاد عليهم ـ وهذا حق ـ حِرصُه على أن تكون الصيغ الفلسفية فيها متغلبةً على سواها، إذ جعلها ميداناً لبسط الآراء الفلسفية والمنازعات الاعتقادية، لتسهلَ قراءتها في النطاق القصصي، ويسوغ تكرارها.

وإذا كان لا بدَّ من مثالٍ موجز، فأشير إلى الوجديّة الثانية، حيث جمعت بين انتقاد الحاضر في واقعه الاجتماعي ودقّة التفكير الفلسفي في تشريحه العلمي، إذ دار الحديث بدءًا عن غلامٍ يرمي الناس بالمقاذر، ويلطّخ الجدران بالألوان المنكرة، ويفعل أفعال الغضب المستوفز،

فأنكر عليه الكاتب ما شاهد، وأخذ يستوضحه أسباب هذا النشاز، فعلمَ أنّه شريدٌ، تزوَّجت أمُّه بعد طلاقها من رجلٍ آخر، وتزوَّج والده من امرأةٍ أخرى، ولم يجدا دافعاً للاهتمام به، فتركاه للضياع مع السفلة من الصُنّاع ذوي المآرب الدنيئة. فنشأ الطفل ثائراً على مجتمعه، غاضباً على أناسٍ يهملونه هذا الإهمال، فيُجابه العيش في سنّه الباكرة دون نصير. فيقول الكاتب على لسانه مقارناً بين حالته الضالة الكريهة في أحضان الفقر والجهل والمرض، وحالة مَن يراهم من أبناء الأثرياء في أفواف النعيم، ومظاهر الثراء الباذخ، مما أثار حقده الدفين، وغِلَّه الكمين[1].

قال الغلام: هذا التفاوتُ بيني وبين أولادهم ـ أولاد الأثرياء ـ يؤلمني إيلاماً لا أستطيع وصفه، ويحملني على الحقد عليهم، والكراهة لهم، وسيرون مني شرَّ ما يرى القِرنُ من مناوئه، فلن أفتر عنهم ما حييت!

ـ وماذا تنوي أن تفعله في ضروب انتقامك منهم؟.

ـ سيكون ذلك على قدر وسعي في كلِّ دورٍ من أدوار حياتي، فقد كنتُ وأنا طفلٌ ضعيف آتي (فأُحدِثُ) أمام أبوابهم، وألطِّخ بالطين جدران دورهم، وأرجم بالأحجار نوافذهم، واليوم أزيد على ذلك إثارة الغبار عليهم، والصراخ بأعلى صوتي حواليهم، ومتى كبرتُ زدتُ على ذلك ضربَ أولادهم، وسرقة كلابهم، والتسلل إلى أفنيتهم، واختطاف

---

(١) الوجديات، ص١٣.

ما تصل إليـه يداي من أثاثهم وآنيتهم، فإذا زدتُ صلابةً وقـوة ترنَّمتُ بأفحـش الألفاظ تحت نـوافذهم، وتجرأت على خدامهم متذرعـاً إلى ضربهم، وافترصتُ الفرص لتسـلُّق حيطانهم لسـرقة أموالهم، إلى ما تلهمنيه الحال، متى بلغتُ مبلغَ الرجال!.

هذا نمطٌ من الـوصف الاجتماعي لحالة المتشـردين من فئـات الطفولة الضالة، وقد والى الكاتبُ الحديثَ في ذلك بما يعدُّ أحسـن تصويرٍ للمأساة، وأوفى تشريحٍ للعلاج!.

ثم بعد انتقـالٍ من وضعٍ إلى وضع، يلج الكاتبُ إلى الفلسـفة الذائعة في القرن التاسع عشر، ليتحدَّث عنها بما يقدِّم للقارئ رشفاتٍ تدفعه إلى المزيد، إذ يجد كتاباً فلسفياً في يد صاحبه هو كتاب (دورة المادة) للعالم المادّي الألماني (مولخوت) فيسألُه مالكَ ولهذا؟ فيجيبه بقوله:

ما رأيك في أبديّة المادة التي يؤكدها (مولخوت) وأضرابه من مادّيي القرن التاسع عشر؟ أترى رأيهم في أبدية المادة وأزليتها؟ أم ترى رأي المحدثين في أنَّ الجوهر الفرد مكوّنٌ من إلكترونات يدور بعضها حول بعض، كما تدور الكواكب حول الشمس، وأنها ليست بشيءٍ غير كهرباء أسرعت حركتها في الأثير حتى ظهرت ملموسة؟ أم أنَّها روحٌ مجسَّدة؟».

ويمتـدُّ الحـوارُ إلى جـدل يجمـع بيـن العلـم والفلسفـة، وهـو

مما يحتاج إلى صبرٍ متئد في الفهم، ومعاودةٍ متكررة في الاستذكار، وتضيق هذه الصفحات عن النفاذ إلى غوره العميق، وهذا ما يؤكِّد أنَّ الكتاب كان وقفاً على الخاصة دون العامة، فعَدِمَ البريق الساطع الذي شعَّ من (حديث عيسى بن هشام) وليس هذا عيب الكتاب، ولكنَّه عيب الجمهور الذي يقف عند مستوًى لا يتعدَّاه!.

لقد كان كتاب (الوجديات) في نشراته المتتابعة قبل أن يُجمَع في كتابٍ ضرباً من العمل الصحفي المجيد، فلم أشأ أن أخلي هذا الفصل من حديثه المفيد.. ومن حُسن الحظ أنه طُبع أخيراً، وأصبح في متناول القرّاء.



مجلة الأزهر

رأت مشيخة الأزهر في سنة ١٩٣٣ أن تعرض رئاسة تحريرَ المجلة (مجلة نور الإسلام) التي سمّيت بعد عامٍ ونصف (مجلة الأزهر) إلى الأستاذ محمد فريد وجدي، وكان هذا توفيقاً من الله عزَّ وجلّ، لأنَّ الكاتب الكبير كان في سنّ الخامسة والخمسين من عمره، بعد أن أدَّى نشاطاً حافلاً في الحقل الإسلامي، وطارت له شهرةٌ في البحث العلمي، والاطلاع الشامل على الثقافة المعاصرة في الغرب، ومعرفة ما يوجَّه إلى الإسلام من شبهات، أسهم بقدرٍ كبير في دحضها، وما زالت تتوالى على نطاقٍ لا يعرف المهادنة.

فتلقَّى الأستاذ هذا العرضَ بقبولٍ حسن، لأنه وافق هوى نفسه، فلم يجد أنه غريبٌ عن ميدانٍ طالما صال فيه قلمُه المناجز، بل إنه وجد المجال الحقيقي الذي كان يسعى لإيجاده، حيث يقوم شهرياً بكتابة بحوثٍ ضافية فيما يشغل الفكر الإسلامي المعاصر، كما سيوجِّه تيار الفكر على نحوٍ ما في مجلةٍ لها مكانتها العالمية في المحيط الإسلامي جميعه، وكأنَّ الأستاذ رأى هذا العمل فرضاً محتوماً عليه، فصمم على

القيام به، ولم يعدَّه وظيفةٍ حكومية ينفر منها بطبعه، بل عدَّه مشروعاً ثقافياً كمشروع (دائرة المعارف) ولِمَ لا، والمجلةُ في صميمها دائرةُ معارف معاصرة، تنشر ما يروق من البحوث، وتجادل بالتي هي أحسن.

قلت: إنه سيوجِّه تيار التفكير على نحوٍ ما في المجلة، ولتوضيح ذلك نقف قليلاً أمام الباعث المحتِّم لإنشاء هذه المجلة كما أوضحَه رئيس تحريرها الأول الأستاذ الكبير (السيد محمد الخضر حسين) في مقاله الافتتاحي بالعدد الأول حيث قال من مقالٍ صادق[1]:

«خرجتْ هذه المجلة وهي تحمل سريرةً طيبة، لا تنوي أن تهاجم ديناً بالطعن، ولا أن تتعرَّض لرجال الأديان بمكروهٍ من القول، إذ لا يغربُ عنها ما يحدث في مثل هذا القصد من الفتن، وبواعث التفرقة بين سكان الوطن الواحد، وهو في حاجةٍ شديدة إلى السكنية والتعاون على المصالح الفردية والاجتماعية.

خرجت هذه المجلة وهي تحمل سريرةً طيبة لا تنوي أن تهاجم ديناً بالطعن، ولا أن تتعرض لرجال الأديان، كما رسمت لنفسها خطةً لا تمسُّ السياسةَ في شأن، وقُصارى مجهودها أن تعملَ على نشر آداب الإسلام، وإظهار حقائقه نقيةً من كل لبس، وتكشف عمّا لصق بالدين من بدعٍ أو محدثات، وتنبِّه على ما دُسَّ بين السنّة من أحاديث موضوعة،

---

(١) مجلة نور الإسلام عدد المحرم سنة ١٣٥٠هـ.

وتدفع الشُّبه التي يقوم بها مرضى القلوب على أصلٍ من أصول الشريعة، وتُعنى بعد هذا بسير عظماء الإسلام، هذا بالإضافة إلى ما تدعو الفائدة إلى نشره من المباحث القيّمة، علمية كانت أو أدبية».

ولقد سارت المجلة في سنواتها التي أشرفَ على تحريرها الأستاذ (محمد الخضر حسين) وتولَّى إدارتها الأستاذ عبد العزيز محمد المستشار بمحكمة الاستئناف سابقاً، سارت على الخطة التي تحدثَتْ عنها مقدمةُ العدد الأول، فكانت تصدر بمقالٍ افتتاحي في شأنٍ من شؤون الاجتماع والإصلاح الديني يكتبُه العلاّمة الخضر، وقد جُمعت هذه الافتتاحيات فيما بعد في كتابٍ تحت عنوان (رسائل الإصلاح) ثم ببابٍ للتفسير، وبابٍ للحديث، ومقالاتٍ تتحدث عن محاسن الإسلام، وفي الصفحات الأخيرة مقالاتٌ مترجمة عن بعض مسائل الطبيعة والكيمياء، وأحوال العالم الإسلامي، وأكثرُ المقالات العلمية مترجمة أو ملخصة بقلم مدير التحرير الأستاذ عبد العزيز محمد.

ولا شكَّ أنَّ مقالاتٍ يكتبها الخضر حسين، وحسن منصور، وإبراهيم الجبالي، ويوسف الدجوي، وهم الكتّاب الدائمون في كلِّ عددٍ من أعداد المجلة، لها قيمتُها العلمية دون منازع، هذا إلى بابٍ خاص بالفتاوى الشرعية.

وفي العام الرابع رأى الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الأحمدي الظواهري أن ينتدبَ الأستاذ محمد فريد وجدي إلى رئاسة التحرير

والإدارة معاً، وقد جاء في مذكراته السياسية عند الحديث عن هذه المجلة[1]: «وعند إنشائها أوصاني توفيق نسيم باشا بتعيين صديقه عبد العزيز محمد بك مديراً لها، وأثنى عليه كثيراً فعيَّنته، ولكن للأسف وجدتُه بعد ذلك غير كفءٍ لها فأبعدْتُه، وعيَّنت الأستاذ محمد فريد وجدي بدله، فتألَّم توفيق نسيم باشا من ذلك كثيراً، وكان هذا من أسباب مخاصمته لي فيما بعد».

أما الأستاذ الخضر فقد ظلَّ كاتباً بالمجلة لعدَّة أعداد، ثم استقال من الكتابة، وقد ذكرَ فيما بعد أنه لم يرتح للعمل مع الأستاذ فريد وجدي، وذلك لأنَّ اتجاه وجدي في بعض مقالاته من قبلُ لم يكن محلاً لاتفاق الخضر حسين، وقد سبق أن كتب افتتاحيةً بالعدد الصادر من مجلة نور الإسلام[2] تحت عنوان (نقد آراء للأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية) ثم أعاد نشرها بمجلة (الهداية الإسلامية) بعد أن ألقاها في محاضرةٍ عامة، فكان وجودُه على رأس تحرير المجلة مدعاة قلقٍ له، لم يستطع مغالبته، فآثر الاعتزال، والخلاف بين الأستاذين كما تأمَّلتُه طبيعيٌّ بين باحثٍ فيلسوف، وباحثٍ فقيه متخصص، ولكلٍّ وجهته!.

وحين تسلَّم الأستاذ وجدي عمله التحريري، أبدى نشاطاً ملحوظاً، فتعدَّدت أبواب المجلة، وقام هو بتحرير ما يقرب من أربع

---

(١) السياسة والأزهر في مذكرات الشيخ الظواهري، ص٢٨٩.
(٢) مجلة نور الإسلام عدد محرم سنة ١٣٥٠هـ.

مقالات في العدد الواحد بالسنوات الأولى من إشرافه، فكانت مقالاتُه أول ما يُقرأ من المقالات، لما امتازت به من الجدّة والحيوية، وعفّة القلم، وشمول الاطلاع، وفي هذه المقالات افتتاحياتٌ تتسلسل في موضوعٍ واحد، قد يصل إلى العشرين أو الثلاثين، مثل موضوع (مهمة الإسلامِ في العالم) وموضوع (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) وهما في مجموعهما كتابان كبيران، سأخصُّهما بالحديث في فصلين مستقلّين.

كما اختصَّ الأستاذ بتحرير أبوابٍ دائمة لها صلتها الأكيدة بالواقع العلمي في الشرق والغرب، ومن أهم هذه الأبواب باب (معرض الآراء العالمية في الإسلام والمسلمين) حيث كان مصدراً هاماً للتيارات الفكرية المتصلة بالإسلام ودوله وشعوبه، فاتَّسع للردِّ على شُبهٍ كثيرة يحوكها المغرضون، وفي أعدادٍ كثيرة ينقل الأستاذ مقالاتٍ بأكملها تتحيَّف الإسلامَ بلسانٍ غربيّ، ثم يكرُّ عليها بالتفنيد فِقْرةً فِقْرة، وقد أوضح الأستاذ خطته حيث قال[1]:

«لقد عرفنا منذ أن عالجنا الكلام في الإسلام أنَّ أشدَّ ما يعترض طريقه، ويثبِّط من توثباته، شبهاتٌ صبغها المتسرّعون بصبغة العلم، وأشاعوها بين المتعلمين في ثنايا أصوله، وأطواء نظرياته، وتلقَّفها الناس عنهم تقليداً، وقد نقشوا في روعهم أنَّ هذه الشبهات تدحض

---

(١) افتتاحية المجلد العاشر سنة ١٣٥٨هـ.

تعاليم الدين، وتزعزعه من أساسه، وأنها حين صاولَتْه في بلاد المدنية الحديثة، تصدَّى لها عددٌ من الأعلام المقدّمين، ليفلّوا من شباتها، ويقفوا من هجماتها، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، وانتهى أمرُهم بالاستسلام إليها، فلم تُبْقِ من الدين هناك ولم تذرْ.

هذه الشبهات تبذر بذورها اليوم لدينا، وتُتعهَّد بالعناية لتنمو بين ظهرانينا، وتفعل بنا ما فعلته بسوانا، توهّماً من الذين يُديرون هذه الفتنة أنَّ التجرد من العقائد شرطٌ للنهوض الأدبي والاستقلال الفكريّ! وهذا ضلالٌ بعيدٌ منهم، فليس في الإسلام أصل يعطل النهوض الأدبي، أو يصدُّ عن التحرر الفكري، بل الإسلامُ نفسه أقوى عاملٍ عرفته البشرية للاستنهاض والتجديد، وقد دلَّ على ذلك بالعمل، فأخرج أمةً من العدم، وأمتعها بكل الوسائل التي جعلتها في مقدمة الأمم.

و(مجلة الأزهر) تبذل جهدَها لتصيُّد هذه الشبهات المدسوسة على العلم وتحليلها، وتبيين وجوه الضعف والقوة منها، والتدليل على أنها لا تعدو على الإسلام، ولا تمسُّ جوهره، ولكنها تصدِّقه وتؤيده، وتجعل منه الدين العالمي الذي لا محيدَ عنه، وهي إلى جانب ذلك تنشر مقالاتٍ ممتعة في التفسير والسنّة يقوم بها عالمان عظيمان من علماء الأزهر، وبحوثاً أخرى في الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم، يكتبها رجالٌ إخصائيون في هذه الموضوعات».

هذا ما قاله الأستاذ، وما التزمه، والحقُّ أنَّ اتساعَ النطاق الفكري

بمجلة الأزهر قد جعلها أثناء رئاسة الأستاذ وجدي من أرقى المجلات العلمية في مصر، فأخذتْ تزاحم (المقتطف) و(الهلال) و(الرسالة) و(الثقافة) لدى المثقفين الكبار بعد أن كانوا يعتبرونها خاصةً بطائفةٍ من المعمّمين، يتحدثون عن فرائض الصوم، وشروط الزكاة، وشعائر الحج، وما يدور في هذا المدار الفقهي المحدود، بل رأينا خيرة أساتذة الجامعة يخصُّونها بدراساتهم المنهجية، مع لفيفٍ من رجال القضاء والطب والتربية والاجتماع، إلى حدّ أن نُشِرَت كتبٌ تامة على صفحاتها لبعض هؤلاء، جُمعت في كتبٍ مستقلة فيما بعد.

لقد كانت نقلةً هائلة قفز بها الأستاذ بالمجلة إلى نطاقٍ رحيب، بحيث أصبحت موضع الاحتفاء والتقدير..

ولكن هذه الجدّة الواثقة لم تصادف قبولاً لدى من يحصرون الصحف والمجلات الإسلامية في حدودٍ ضيقة لا تعرف الانفتاح العلمي الشاسع، فدأبت بعضُ المجلات على الاعتراض الساذج لأمورٍ كثيرة، فمن قائلٍ: لماذا يكتب الأستاذ وجدي مقالاته (السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة)؟ وهل كانت سيرةُ رسول الله ﷺ بحاجةٍ إلى متفلسفٍ يشرح أحداثها التي دُوِّنت وأصبحت في غاية الاشتهار!.

ومن قائل: إنَّ أحكام الفقه من عباداتٍ وأحوال شخصية لا تجد أبواباً مستقلة بالمجلة، وكأنه ليس لهذه الأحكام كُتبها الذائعة على أوسع نطاق! وأعجبُ ما عرفناه في هذا النطاق أنَّ الأستاذ فريد وجدي قرأ

مقالاتٍ كثيرة عند وفاة الشاعر العراقي (جميل صدقي الزهاوي) تتحدَّث عن تجديده الشعري، ونظراته الفلسفية في الوجود، وترويج ما يذيعه الملاحدة، فكتب عنه بحثاً رائعاً تحت عنوان الزهاوي الفيلسوف العراقي) نشره بالمجلد الثامن من (مجلة الأزهر) ص(٣٣٨) وما بعدها سنة ١٣٥٦هـ، وقد ذكر شبهاتٍ ردَّدها الشاعر في شعره عن المادة وفناء الروح بعد انتقالها، وعن الشكّ في وجود الله، وردَّ على ذلك بالمنطق المفحم، وقال في أدب: إنه لا يريد الحظَّ منه بعد أن رحل إلى ربه، ولكنَّه يريد أن يكشف ما وقع فيه من أخطاءٍ، يردّدها اليوم مَن يلهجون بذكره، وكأنها عين الصواب! هذا المقال الهادف[1] كان موضع ثورةٍ لدى مَن يحتجبون في أكواخهم من العلماء، فتقدَّموا بمذكرةٍ للإمام الأكبر الشيخ (محمد مصطفى المراغي) يستنكرون أن يكتبَ مدير مجلة الأزهر شيئاً عن هذا الفيلسوف الملحد بمجلة الأزهر! وكيف يبدأ مقاله بقوله (للسيد المرحوم جميل صدقي الزهاوي) فيصفه بالسيادة، ويرجو له الرحمة.

ولمّا كان الإمامُ المراغي من اليقظة الفكرية بحيث يرفض هذا الاتجاه، فقد دعا المعترضين وفيهم أساتذةٌ بالكليات! وسألهم ماذا تقولون فيما تردده الصحف عن الرجل مادحةً مقرّظة؟ إذا كانت هذه الصحف مخطئةً فعليكم أن تكتبوا ما يدلُّ على خطئها، وتتقدموا به إلى

(١) سنعرض له ببعض القول في فصلٍ قادم!.

القائمين على هـذه الصحف، فإذا لـم ينشروا ما تكتبون نشرَتْه مجلـة الأزهـر! أما أن يقومَ رئيس التحرير بما كان عليكم أن تقوموا به، ثم تستنكروا ما فعل، فهذا ما يحتاج إلى جواب!.

وقد تخصَّصت مجلةٌ أسبوعية في تتبُّع مقالات الأستاذ وجدي، فإذا نشر حديثاً يتضمن حكماً شرعياً قال به بعض الكبار من الفقهاء، ردَّت عليه المجلة بأنَّ ذلك خطأ، لأنَّ الحكمَ في مذهبٍ آخر يختلف عن حكم صاحب المذهب الذي اعتمده رئيس التحرير، ولا تذكر المجلة أدلةً ما لترجيح حكمٍ على حكم! وقد اتضح أنَّ أصحاب هذه اللجاجة يرسلون مقالاتٍ لمجلة الأزهر دون مستوى النشر، فلا ينشرها رئيس التحرير لضعفها العلمي، فتثور ثائرتهم، ويعدُّونه مناوئاً لأساتذة الأزهر، مع أنَّ أفاضل الأزهريين يملؤون صحف المجلة بما يدبّجون من بحوثٍ شافية! على أنَّ ذلك كان له صداه القوي لدى رئيس التحرير، فأخذ يطالع كلَّ ما يرسَل إليه، ويشيد بما يراه موضع الإشادة، كما جعل يكتب تعليقاتٍ مفيدة، في خاتمة ما يقرأ من البحوث السطحية، ويرسل بها إلى صاحب البحث، طالباً إليه أن يعودَ إلى تحرير المقال من جديد، وذلك عملٌ مرهق لا أظن أن رئيساً لتحرير مجلةٍ علمية قام به قبل الأستاذ وجدي، وإخاله رآه فريضةً خُلقية تُلزمه أن يهدي الحائرين متى أُتيح له أن يُرشد ويفيد!.

وقـد كان الإمام المراغي من أقوى مؤيدي الأسـتاذ وجدي في اتجاهه الفكري، إذ ترك له أن ينشـر ما يشاء، ويهمل ما يشـاء، غير

ملتفتٍ إلى نقدٍ يقوم به من لا يدرك تيارات العصر، وظروف الأحداث العالمية، حتى إذا انتقل إلى جوار ربه، وتولَّى مشيخة الأزهر خَلَفَه الإمام الأكبر الشيخ (مصطفى عبد الرازق) جدَّ له رأيٌ خاص في مجلة الأزهر، هو أن تكون مجلةً جامعية تنطق بلسان جامعةٍ عريقة لها اتجاهُها العلمي، ورأيها الفكري في مستحدثات الآراء، بمعنى أن تكون أكثر بحوثها متجهةً إلى الخاصة وحدهم، وقال: «إنَّ مجلة الوعظ هي التي تختصُّ ببحوث العامة من القراء»، ودعا الأستاذ محمد فريد وجدي لمناقشته فيما يراه، فكان ذلك محلَّ قبوله، وقد عبَّر عن هذا المنحى في مقالٍ جعله افتتاحيةً لأول جزءٍ يصدر من المجلة بعد الاقتراح الذي وجد تنفيذَه السريع، فقال الأستاذ وجدي[1]:

«لمّا مضى الإمام المراغي، وجاء الإمام عبد الرازق أهلَّ عهدٌ جديد لمجلة الأزهر، فإنه حفظه الله لإيلافه نظامَ الجامعات في مصر وأوروبة طالباً ومدرساً، كان لا بدَّ أن يُفيض على كل ما يُسنَد أمره إليه النظامَ الذي ألفه طوال حياته التعليمية، ففاتحني فضيلته بأنه يرى أن يُدخل مجلة الأزهر في طورٍ جديد من الإتقان، وتعدُّد البحوث، وكبر الحجم، بما تصبح معه مجلةً جامعية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من المعاني، فأجبتُ فضيلته بأنَّ هذا الأمر أقصى ما تتطاول إليه أماني كل محبٍّ للإسلام، ثم لم يلبث أن أخذ يضع لتحقيقه اللجان، وكوَّن لجنةً

---

(١) مجلة الأزهر ـ المحرم ١٣٦٦هـ، ص٤.

دائمة لتشرف على تنفيذ اللائحة الجديدة، وباستعراض هذه اللائحة وجدتُها تتجه إلى ما يلي[1]:

١ ـ نشر البحوث المؤيدة لعقائد الإسلام وشرائعه المبينة لمهمته العالمية، والمبطلة بالحجج والبينات لشبهات الإلحاد، التي تقف في طريق هذا الإصلاح العالمي.

٢ ـ نشر بحوث طريفة قائمة على أسسٍ سليمة من مناهج البحث في العلوم الإسلامية خاصة، وفي الآداب والعلوم والفنون والاجتماع عامة، مع الإلمام بحركة التيارات الفكرية في العالم.

٣ ـ نشر مختارات مما يظهر في المجلات والكتب بما يكون فيه فائدة علمية أو أدبية لقراء المجلة، وذلك رغبةً في مسايرة الحركة الفكرية في العالم.

٤ ـ التعريف بالكتب التي تتَّصل بالإسلام مما ينشر في مختلف اللغات والبلاد، والتعريف بالمخطوطات العربية القديمة القيّمة، لا سيما الموجود منها بدار الكتب الأزهرية، وتلخيص منتخباتٍ من رسائل كبار العلماء، والرسائل التي يضعها أعضاء البعثات الأزهرية في الخارج، ورسائل الأستاذية في مختلف أقسام التخصص بالأزهر.

٥ ـ نشر مباحث في مذاهب الإصلاح الديني والاجتماعي، وفي نظم التعليم والآداب.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المحرم سنة ١٣٦٦هـ، ص٩٣.

٦ ـ تزويد القراء بأهم أخبار المعاهد والجمعيات العلمية في مصر والخارج، وكذلك بأخبار الجامع الأزهر العلمية والدراسية.

هذه لائحة المجلة الجديدة، وبالنظر فيها نجد أنَّ الأستاذ وجدي كان يقوم وحدَه ـ إلا ما ندر ـ بتوفية كثيرٍ من اقتراحاتها، فقد كان ينشر البحوث المؤيدة لعقائد الإسلام، والمبطلة بالحجج لشبهات الإلحاد، وبذلَ في ذلك جهداً تشهد به عشرات الصفحات من أعداد المجلة السابقة تاريخياً، كما كان ينشر بحوثاً طريفة تقوم على أسسٍ سليمة من مناهج البحوث بقلمه في أكثر الأعداد ـ إلا ما ندر ـ وقد نشر مختاراتٍ مما يظهر في المجلات والكتب ذات الفائدة العلمية، وعرَّف بكثيرٍ من الكتب التي تتصل بالإسلام، وردَّ على ما بها من المآخذ في صبرٍ لا ينفد! كما نشر بعض المخطوطات القصيرة مع التعريف بالمخطوطات الكبيرة، ومنتخباتٍ من رسائل أعضاء جماعة كبار العلماء والمتخرجين من تخصُّص الأستاذية! وهذا ما لم يستطع القائمون على شؤون الأزهر إمداده بما يراد منه على الوجه الأكمل.

وكان المنتظر أن يجيء التطبيق الواقعي لهذه المقترحات باهراً ساطعاً، ولكن الحقيقة أنَّ ما نشر بعدُ كان دون المأمول، ولكنه خطوةٌ مبتدئة ظهرت في بحوث أمثال محمد البهي، وعبد العزيز المراغي، وعبد الحليم محمود، محمد أحمد عرفة، ومحمود شلتوت رحمهم الله، وهؤلاء كانوا من كتّاب المجلة من قبلُ؛ وقد أُضيف إليهم بعض

الجامعيين من أساتذة كلية الآداب الذين سعدوا بالتلمذة على الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق في الجامعة، وهؤلاء أيضاً مثل عثمان أمين، وأحمد فؤاد الأهواني، وعلي سامي النشار، وسعيد زايد كانوا من كتّاب المجلة من قبل.

فالتجديد الذي تمَّ إذن هو اتساعُ دائرة كتّاب الأزهر، والخوض في دراساتٍ أكاديمية على نحوٍ يقرِّبها من المثقف دون المتخصص! ولم تـدم رقابة الشـيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق، لأنه لقي ربَّه بعد عدة شهور، فخمدت روح الانبعاث الفلسفي التي حاول أن يبثّها في الجامعة، ولكنَّ أساتذة الأزهر وجدوا اتساعاً وافياً لآثارهم في المجلة، إذ سارعوا في التألُّق على صفحاتها عن طريق التشجيع المطّرد، وهو ما لاحظه الأستاذ فريد وجدي حين كتب افتتاحية المجلد العشرين سنة ١٣٦٨ فقال[1]:

«وقد جرينا أخيراً على طريقةٍ عادت على قرّاء المجلة بالفوائد الجزيلة، وهي الاستكثار من كتابة العلماء الأزهريين، كلٌّ في فرعٍ من فروع العلم الذي يقوم بتدريسه، أو ما يمتُّ إليه بسبب، فأصبحت (مَجلة الأزهر) تمثِّل الجامعة الأزهرية بكل معاني الكلمة، وليس هذا بقليل، فإنَّ العالم الإسلامي كلَّه يتطلَّع إلى ما يُدرَّس في الأزهر، ويتوق لأن يقرأ

---

(١) مجلة الأزهر ـ المحرم سنة ١٣٦٨هـ، ص٣.

لأهله ما ينفعهم في عقائدهم وعاداتهم، وسيرهم، فيجدُ في (مجلة الأزهر) طلبته، وكانت أعزَّ عليه من كلِّ مأمول.

وليست (مجلة الأزهر) مقطوعةَ الصلة بأيِّ ناحيةٍ من نواحي العالم، وما يدور فيه مما يختصُّ بالدين على وجهٍ عام، وبالإسلام على نحوٍ خاص، فإنَّ من موظفيها من حذقوا اللغات الأجنبية، فهم متَّصلون بالعالم الأجنبي، وينقلون عن مجلاته وجرائده، ما يجدُّ فيها من البحوث القيّمة، أو ما يُستحدَثُ من الشبهات العلمية والفلسفية فيدحضونها، وهذا من أمسِّ الأعمال بحاجة النشء في هذا العصر، الذي اشتدت فيه مناهضة الماديين».

وإذا كانت للمجلة هيئةٌ تشرف على التحرير، عيَّنها الأستاذ مصطفى عبد الرازق فإنَّ هذه اللجنة لم تلبث أن انفرط عقدها بعد رحيل الأستاذ رحمه الله، أي بعد أربعة أشهر فحسب، وبقي الأستاذ ـ كما كان ـ مُراجِعاً لكلِّ كلمةٍ تُنشر في المجلة، ومعقِّباً بما يراه من التعقيب، إذا وجد ضرورةً ماسّة، وهذا التعقيبُ أزعج الكثيرين، وظنُّوه افتئاتاً على مكانتهم، وفي هذا من ضيق النظر ما فيه، لأنَّ مَن ألَّفَ فقد استهدف، ولخيرٌ للكاتب أن يجد التعقيب من مفكرٍ إسلاميٍّ كبير يقتعدُ ذروة التوجيه الإسلامي في مصر من أن يجدَ التعقيب من ناشئ أو ممن لا يُعرف من قبل.

ومن أغرب ما رأيت أنا في هذا المجال، أنَّ الأستاذ عقَّب على

مقالٍ لشيخٍ من شيوخ المعاهد بما بيّن خلاف وجهته، فبادرَ بالردِّ عليه، وهذا طبيعيٌّ لا شيء فيه، ولكنه سلكَ سلوك المتعالي؟ وعلى مَنْ؟! على من هو في مرتبة أساتذته، فقد قال ما قال، ثم ختم مقاله بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

أما كيف كان هذا الشيخ من الذين قرؤوا الكتاب من قبل الأستاذ وجدي، وأما أنَّ الحقَّ قد جاء على لسانه من قِبل الله! فتلك دعوى عريضةٌ لا أدري كيف وقع فيها! وقد نشر الأستاذ مقاله جميعه دون حذف! ولعلّه ترك للقارئ أن يحكم.

وإذا كان الأستاذ يوقِّع المقالات العامة بإمضائه الصريح، فإنَّ بابَيْن هامَّيْن كان يترك التوقيع عليهما، مع أنه كاتبُ ما يحويانه، دون أن يشاركه أحد، هذان البابان، هما التعريفُ بالكتب الجديدة، وتوديعُ الراحلين من كبار المفكرين، فعلى ضيق الوقت الشديد لمثله، وعلى تقدُّمه النسبيّ في السنّ، كان إذا أُرسل إليه كتابٌ قيّم خصَّه بالنظر، وأشار إلى أنفس ما يتضمن من حقائق جديدة، وإذا لاحت له وجهة نظرٍ تقدَّم بها في أدب، فعلى مدى ثمانية عشر عاماً كان قلم الأستاذ يقظاً لتتبُّع كل مايُرسل إليه، تتبُّعَ المشجع العاطف، الذي ينظر إلى مناحي الجودة، فيقابلها باحتفاءٍ بالغ، وإلى مناحي القصور فيكشفُ عنها في إيجازٍ، قد يحاط بجوٍّ من التشجيع، حتى لا يحملَ منه المؤلف أدنى خاطر آسف.

لقد جدّت حركـةٌ فكرية في كليـة أصول الدين بالأزهر فأصدر الدكاترة محمد غلاب، ومحمد البهي، ومحمد يوسف موسى، ومحمود حب الله، وعبد الحليم محمود، وكثيرٌ من زملائهم الكرام، كتباً دقيقةً ذات عمقٍ أصيل، فتابع الأستاذ هذه الكتب، ونوّه بها تنويهاً موضوعياً، يدلُّ على أنه وصل إلى عمقها الغائر، وقد تجد مسألةً كمسـألة ترجمة معاني القرآن يرى كاتبها يسلك غير ما يرتضيه، فيفسحُ مجال الردّ في شـمول، ويأتيه الرد المهاجم فينشره جميعه، ثم يعقّب عليه بما يراه، وكأنه يجد لذّةً أيّ لذة في تطارح الأفكار، وتعدد الآراء.

وقد كنت أعجب حين أراه يخصُّ مؤلفاتٍ مدرسية بالاحتفاء البالغ إذا رأى المؤلف لم يزدْ على أنه جلا المعهودَ المدوَّن في كتب التراث بعبارةٍ واضحة! فجهدُه إذن جهدُ المُلخِّص لا المُبتكِر، وقد أتيح لي أن أجلسَ إليه، بعد قراءة حكمةٍ مقرّظة إلى حدِّ الإعجاب لكتابٍ اسـمه (تهذيب الكفاية) كتبه الشيخ (أحمد كامل الخضري) تلخيصاً لكتاب (الكفاية) المقرَّر على طلاب القسم الابتدائي، فعجَّل الأستاذ بتقريظٍ مماثل، وحاكاه مدرّسـون آخرون، فلخَّصوا كتب الميراث والتـاريخ والتوحيد والمنطق بما لم يأتِ بالجديد في رأيي، والأستاذُ يتابع كل هذه الكتب المدرسية ذات الجهد المحدود بثناءٍ مستطاب، نعمْ أتيح لي أن أجلسَ إلى الأستاذ الكبير بعد قراءة هذه التقاريظ المتتالية على نحوٍ يدلُّ على الإعجاب الكبير.

فقلت له: يا سيدي إنَّ أمثال هذه الكتب لم تقدِّم جديداً، فإنَّ قارئ كتابٍ مثل (الكفاية) أو (قطر الندى) لا يحتاج إلى إعادته في كتابٍ آخر لم يزد عن محصوله شيئاً.

فاستمع إليَّ مبتسماً، ثم قال في هدوء: يا أستاذي (قال الرجل لي يا أستاذي وأنا طالبٌ ناشئ)! إني أخالفُك في وجهة نظرك، لأنَّ المكتبة العربية حافلةٌ بذخائر ثمينة للأقدمين تحولُ طريقةُ تأليفها الأثرية دون أن يطالعها القارئ المعاصر، فتظلُّ مجفوةً في الأدراج، لا يحفل بها غير قارئ متخصص، وقد يصدُّ عنها اكتفاءً بغيرها، فإذا يُسِّرَتْ هذه الكتب في تأليفٍ معاصر، انجذب إليها القارئ، وقد يرجع إلى أصلها، ولو قام نفرٌ من أساتذة الأزهر بتيسير كتب التراث على هذا النحو، لأحدثوا ثورةً هائلة في الفكر العربي! إنني حين أشجع هؤلاء، أدفعُ كلَّ أستاذٍ في الأزهر يقرأ على طلابه كتب التراث في الفقه والنحو والبلاغة والصرف والمنطق والتوحيد، أن يعيد كتابة هذه المؤلفات القديمة بأسلوبٍ عصريّ يجعل مسائلها واضحةً جلية، فيتصل القديم بالحديث على نحوٍ جميل! وهذا لا يمنعُ أن يبتكر المدرسُ تأليفاً جديداً دون أن يعتمد على سواه!

لقد أصغيتُ إلى الأستاذ، وأسكتَني منطقُه، فلم أعقِّب عليه بشيء، ولا أدري لماذا أظلُّ بعيداً عن الاقتناع التام بوجهة نظره، وهي بلا شك موضع تأييد الكثيرين.

وثانية تروى للأستاذ في مضمار الحديث عن الكتب، فإنَّ طائفةً

من طلاب المعاهد الدينية الأزهرية كانت حماستهم الأدبية تدفع بهم إلى إصدار قصصٍ أدبية، أو دواوين شعرية مبتدئة، وفق جهودهم المحدودة، إذ كانوا يهيئون إيصالات الاشتراك قبل الطبع، ويذهبون إلى زملائهم ليشترك من يريد بأجرٍ زهيد، ثم يصدر الديوان أو القصة، أو الجامع بينهما في بعض الأحيان، فيرسلُ الطالبُ الناشئ نسخةً منه إلى مدير (مجلة الأزهر) مع ما يرسله إلى كبرى الجرائد والمجلات، فلا يجدُ صدًى ما إلا بمجلة الأزهر، إذ يقوم الأستاذ وجدي بكتابة صفحةٍ كاملة عن كُتيبٍ صغير لمؤلفٍ ناشئ رأى في قلمه الهشّ ما يشي بنبوغٍ مبكّر له مستقبله إذا نما وازدهر، فآثر أن يشجعه بمقالٍ عاطف.

وأذكر أيضاً أني حادثتُه في مثل ذلك فقال: **إنَّ تشجيعَ الطلاب إذا وُجد لديهم ما يدلُّ على حُسن الاستعداد عملٌ ضروري لا محيد عنه، فالطالبُ إذا رأى المجلة تحتفلُ بأثره الناشئ، واصلَ البحثَ كاتباً والشعرَ ناظماً، وأكبَّ على الاطلاع، وقد يكون منه في المستقبل رجلٌ ذو شأن!**

هذا ما قاله، وهو موضع الموافقة والتقدير..

هذا عن كلماته الموجزة عن الكتب المعاصرة، أمّا ما كتبه عن الراحلين من علماء الإسلام فهو جديرٌ بالدراسة على ضيق مساحته المكانية، لأنه يعمدُ إلى صفوة الراحل في أقوى نواحيه الفكرية، فيسلّط الضوء النافذ إلى سرٍّ نجاحه في هدوءٍ لا يعرف الضجيج.

ومن عادة المجلات في أكثرها أن تفيض في ذكر المناصب

والمؤلفات، وتواريخ الصعود العلمي والارتقاء الوظيفي حاسبةً ذلك أهم ما يجب أن يقال، ولكنَّ الرجل العميق يعلمُ سلفاً أنَّ الجرائد اليومية تكفَّلتْ بهذه المقرَّرات، وأنَّ قارئه لا يحتاج إلى إعادة ما قيل، بل يريد نظرته الخاصة في نتاج الراحل علماً أو إصلاحاً، فهو مثلاً يقول في منعى الإمام (محمد مصطفى المراغي)[1]:

«رُزئتْ أسرةُ العلم في العالم الإسلامي كلّه بوفاة عميدها غير مدافع الشيخ محمد مصطفى المراغي، فلا نقول كان لها أثرٌ بالغ في النفوس، ولكننا نقول: إنها كانت كارثةً على الجهود النبيلة التي يعرفها العالمون بداءِ الأزهر ودوائه، ويعملون على إحلاله المكانة التي تناسب عظمة الإسلام، وتمثّله على حقيقته في نظر العالم.

كان يُعنى بإصلاح الأزهر، الذي ينحصر في أن يصبح جبهةً دينية يسندها العلم، وتؤيدها الفلسفة، بحيث يتفق ذلك وحقيقة الإسلام ومعناه، ولا يدعُ في صدرِ مُسْتَشْكك اعتراضاً بأنَّ الأزهر يمثّل عهداً لا يمتُّ إليه اليوم أحدٌ بسبب.

إنَّ المراغي كان يجيد فهمَ هذه الناحية من نفسية المعاصرين، وكان يعمل في سبيل الوصول إلى ما أشرنا إليه في تؤدةٍ ورفق، صابراً على ما يحتوش هذه التؤدة، مما يُخيّل أنها الوقوف بل القهقرى،

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس عشر، ص٣٣٤.

والحقيقةُ كانت غير ذلك لمن يتأملها في ضوء النظر البعيد، والتفكير العميق في مستقبل جبهة العقيدة الإسلامية.

كان الإمام المراغي يعلم أنَّ العالم المتمدّن انتهى إلى حدٍّ من عقائده أملَته عليه الفلسفة المادية، وأنَّ العالم الإسلامي يترسَّم خطواته، مدفوعاً بطبيعة الدراسات العلمية التي لا بدَّ منها، وكان يعلم أنَّ الأزهر في حالته التي هو عليها لا يصحُّ أن يقف حائلاً دون هذا التطور، وأنه لا بدَّ من انقلابٍ ذريع يطرأ عليه، ليصبح جديراً بالمهمة التي أرادها مؤسّسوه منه في كلِّ عهد، فماذا يعمل الإمام وليس بين يديه ممَّن يحسُّون بهذا الخطر سوى عددٍ نَزْر لا يكْفون لإحداث انتقالٍ خطير يتأدى به إلى غرضه بالسرعة المرجوة؟ فاضطرَّ لأن يسير وئيداً، والسيرُ الوئيد في مثل هذا العهد جريمة، فماذا يعمل والأحوال تجري معه في تيارٍ معاكس؟.

والذي يهمُّ العارفين اليوم أن يخلف الأستاذ الإمام من يشاركه هذا الشعور، ويجري على سنته فيه مشجعاً العوامل التي تكسب الإسلام المظهر الذي صورناه في هذه الكلمة، وهذه الناحية في الأستاذ الإمام كانت أظهرَ ما فيه، وهي أكرمُ جميع نواحيه، وأحقُّها بالاحترام، لأنَّ ثمرتها تمثيل الإسلام ديناً يصلح للبقاء في عهد العلم، وتعتصم العقلية المصرية بحماه من وخزات الريب والشكوك في عهد الفلسفة الحسّية».

هذه السطور تضيء الناحيةَ الهامة في جهاد الإمام، كما أنها تردُّ بلباقةٍ وكياسة على الذين اتهموه بالنكول عن دعوته الإصلاحية التي بدأ

بها في المشيخة الأولى من قبلُ، فتؤكـد أنَّ المؤازرين له قلةٌ قليلـة، لا يستطيعون أن يحقِّقوا آماله في الإصلاح على وجهٍ سريع، وأنَّ التؤدة والحالُ تلك ستصل بالإصلاح إلى نهايته دون تعرُّضٍ للاهتزاز فالنقمة! وتلك نظرةُ خبيرٍ دارس، يرى الشيءَ فيُجيد تعليله عن اختبارٍ مكين.

فإذا تركنا ما قاله الأستاذ وجدي عن الإمام المراغي إلى ما قاله في منعى خَلَفه الأستاذ الأكبر (مصطفى عبد الرازق) فإننا نلمس هذا الاستشفاف الدقيق لمجريات الأمور عن يقظةٍ واعية، فيقول بعد تمهيدٍ طيب:

«لم أرَ فيمن قابلتُ من القادة والأعلين أكرمَ خُلُقاً في غير استكانة، ولا أهدأ نفساً في غير وهن، ولا أكثر بشاشةً في غير رخاوة، من الشيخ (مصطفى عبد الرازق) وكلُّ ذلك إلى حزمٍ لا يعتوره روْث، واحتياطٍ لا يشوبه تنطُّع، وأناةٍ لا يفسدها فتور، وإدمانٍ على العمل ينسى معه نفسه، وهي صفات كبار القادة، وعِلية المصلحين ممَّن خُلقوا لمعالجة الشؤون المعقدة، وحسم المنازعات الشائكة، والتوفيق بين المطالب المتنافرة، وهي مواقف كما تقتضي مضاءَ العزيمة، تحتاجُ إلى هوادة الأناة... فكان بما حباه ربُّه من هذه المواهب النادرة كفاءَ المهمة التي أُسندت إليه.

وكنتُ لا أشكُّ في أثره بما جُبِلَ عليه من حبِّ الإصلاح، فهو سيصل إلى حلٍّ مشكلة الأزهر حلاً حاسماً نعيش تحت نظامه آمناً شرَّ

العوادي، وفي منجاةٍ من عوامل القلق والاضراب، ذلك أنه بما تضلَّعَ من الإلمام بنُظُم الجامعات، وما حصَّل من علمٍ بمقوماتها وحاجاتها، لتمضيته في صميمها سنين طوالاً من حياته طالباً ومدرساً، يعرف من أسرار حياتها وبقائها وبواعث عللها وأعراضها ما لا يعلمُه إلا الأقلّون.

والأزهرُ لا يخرجُ عن جامعةٍ قديمة في دور انتقال، تتفاعل لتتناسب والعهد الذي تعيش فيه، فهي في حاجةٍ إلى أن تحصل على المقومات التي تؤاتيها بهذا التناسب، وهو لا ينحصر في زيادة ميزانيتها، ولا في تهذيب برامجها، ولكنَّه يتعدَّاهما إلى ما هو أعقد من ذلك، وهو إيجادُ المجال الحيوي لخرّيجيها، وهو أمرٌ لا يُستطاعُ حلُّه إلا بعد تمهيد الطريق إليه، ورفع العقبات دونه، والراحلُ الكريم لما اتَّصفَ به من بعد النظر، وتخيُّر الظروف، كان أجدرَ الناس بإصابة هذا الغرض البعيد، ولكنَّ قيّمَ الوجود آثرَ له الدارَ الآخرة، فكان ما أراد».

وفي هذه السطور على إيجازها تركيزٌ على الاتجاه المنتظَر من الراحل الكبير، حيث لم يمكث في منصبه إلا أمداً يسيراً، كما أنه يشير إلى ما جُوبه به من مطالب تدعو إلى إفساح الوظائف الكثيرة لخرّيجي الأزهر، وهي مطالب عادلة، ولكنَّها لا تتهيَّأ بين يومٍ وليلة! وكانَّ الشيخ يبذل خطواته جاهداً، ولكنَّ الأجلَ وقف دون التمام.

وللأستاذ كلماتٌ دقيقة على إيجازها عن كبار الراحلين من العلماء مثل السيد (محمد رشيد رضا) و(الشيخ عبد اللطيف الفحّام) والشيخ

(محمد بخيت المطيعي) والشيخ (حسين والي) والشيخ (عبد الرحمن الجزيري) وغيرهم.

كما كان يهتم بغير العلماء من ذوي الأعمال الفكرية، وإن لم يكونوا من المسلمين مثل (أنطون الجميل) و(جبرائيل تقلا) ولهذا الأخير قصةٌ نشرتُها في مقدمة كتاب (من معالم الإسلام) الذي جمعته من بعض آثار الأستاذ وجدي، وإني أنقلها بنصّها لمناسبتها ذات المغزى النبيل[1] وكانت تحت عنوان (نظرة إمام كبير).

مات صاحب جريدة الأهرام (جبرائيل تقلا باشا) فأفردَ الأستاذ وجدي صحيفةً للثناء عليه بعد رحيله، ولكنَّ بعض الذين لا يفهمون سماحةَ الإسلام، عدُّوا ذلك موضعَ نقدٍ، وسارعوا إلى الأستاذ الأكبر الشيخ (محمد مصطفى المراغي) شيخ الأزهر، يقولون في صخبٍ: إنَّ بعض كبار العلماء من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله، فلا يخصّهم الأستاذ وجدي بنعْيٍ ضافٍ، كما فعل مع صاحب (الأهرام). فابتسم الشيخ الأكبر وقال لمحاوره: أمعكَ مقال الأستاذ وجدي؟.

قال: نعم.

قال: هلمّ فاقرأ.

---

(١) من معالم الإسلام، للأستاذ وجدي، جمع وتقديم الدكتور محمد رجب البيومي، ص٤٠.

فأخذ الشيخ يتلو المقال منفعلاً، وكان الشيخ الأكبر قد قرأهُ من قبلُ، حتى إذا بلغ القارئ منتصف القول، وهو في قمة انفعاله، قال له الشيخ: سأقرأ أنا، ثم أخذ المجلة، ليتلو في جمال نبرة، وحُسن إلقاء قول الأستاذ وجدي[1]:

«إنَّ الأزهر ومجلته ليشارك الأمة في أساها، ويذكر من فضائل الفقيد الكبير، ما كان يقابل به بحوثَ حضرات العلماء من الاحترام، ويحلُّها في أرفع مكانةٍ من الأهرام، ولطالما نشر مقالاتٍ في موضوعاتٍ علمية بحتة، كان أولى بها المجلات، ولكنَّه كان يُؤثِر أن يكون عوناً للأزهر في أداء رسالته، وفي عهده الجديد، ومما يدلُّ على عنايته بهذه الناحية أنّه عندما ثار جدلٌ بين القائلين بترجمة معاني القرآن، والذاهبين إلى تحريمها، وانتصر صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي للقائلين بالجواز، نشر (الأهرام) بحثَه في عددٍ واحد على طوله، ولم يكن فضيلتُه شيخاً للأزهر إذ ذاك، فهذه النزعة الشريفة مضافاً إليها الكثير من غيرها، لا يصحُّ أن تُترَكَ دون تقديرٍ وإعجاب، فلا غَرْوَ أن عُدَّت خسارةُ الآراء الحكيمة بموته فادحة، أحسنَ الله عزاءَ أسرته، وجعل من نجله خَلَفاً جديراً بسلفه العظيم».

ثم قال الأستاذ متسائلاً: أفهمتم مرمى الجملة الأخيرة؛ إنَّ الأستاذ

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الرابع عشر، ٢٤٤.

وجدي يعرف أنَّ الأهرام أقوى صحف العالم العربي، وأوسعها انتشاراً، ويخاف أن تتخلَّى عن طريقة صاحبها الراحل في تشجيع المباحث الإسلامية، فأشار على الخَلَف باحتذاء السلف، فلو لم يكن له في مقاله غيرَ هذا التوجيه لكان جديراً بالثناء لا بالانتقاد.

تراجع المعترض قليلاً ثم سأل: ولماذا لا يكتب الأستاذ وجدي عن الراحلين من العلماء الأزهريين كما كتب عن صاحب الأهرام؟.

فردَّ الشيخ يقول: مَن الدارسُ الخبيرُ بهؤلاء؟ أنتم أم الأستاذ وجدي؟ أيُلامُ الأستاذ إذا سكتَ عن قومٍ لا يكاد يعرف عنهم شيئاً؟ ولا تُلامون وأنتم تعرفون كلَّ شيء، ثم تقصّرون؟ كنتُ أفهم أن يقولَ أحدكم: كتبتُ مقالاً عن فلان رحمه الله ثم حالت المجلة دون نشره! هنا يجب أن نسأل، فنعرف لماذا حُجب المقال! أمّا أن نلومَ رجلاً محدود الاتصال بالعلماء، لأنه لم يكتب عنهم، ولا نلومُ أنفسنا، فذلك كثير!!

وأراد الإمام المراغي أن يغيّر وجهة النقد، فقال: لقد نشر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالاً ممتازاً بالجريدة اليومية عن صاحب الأهرام، وذكر فيه أكثر مما ذكر الأستاذ وجدي، فلماذا لا تعترضون عليه إذن؟ لقد صادفَ مقال الأستاذ أبي العيون ارتياحي، لأنه ينحو منحى مقال الأستاذ وجدي، فهل لديكم ما تقولون!.

وسكت القوم!.

لم أقل كلَّ ما أعرف عن (مجلة الأزهر) فقد قرأتُ أعدادها جميعها

في سنوات إشراف الأستاذ، ووجدتُ جهودَه قد أينعت في أخصب الحقول، حتى ليصلح أن تُفْردَ في سفرٍ خاص، فإذا أشرتُ هنا إلى بعض ما يتضمن هذا السفر المنشود، فذلك حسبي.

* * *

مع المادية والماديين !

قضى الأستاذ محمد فريد وجدي قرابة نصف قرن من عمره السعيد، وهو ينافح الماديّة والماديّين بكلِّ ما يملك من القوى العقلية، وقد رصد حيّزاً خاصاً من ماله المحدود لشراء كلّ مايصدر باللغة الفرنسية من الكتب الخاصة بالداروينية والروحية معاً، لأنه يعتقد عن يقين أنَّ المذهب المادي واضحَ البطلان، وأنَّ مروّجيه يهدمون به الأديان جميعها لا دينَ الإسلام وحده، والذي يتابع ما أخرجه الأستاذ في هذا المجال من كتبٍ مستقلّة ذات أجزاء، ومن سلاسل متوالية في مجلاتٍ ذائعةٍ، وأشهرُها مجلتا (المقتطف) و(الأزهر) ومن فصولٍ سريعة في الجرائد اليومية على مدى خمسين عاماً، يعرف أنَّ محاربةَ المذهب المادي جرتْ في عروقه مجرى الدم، وأنّها تحولت إلى عقيدةٍ يجب أن يُبذلَ في تحقيقها كلُّ غالٍ ونفيس، وفي الوقت نفسه كان بعض المخدوعين بمذهب دارون في أوائل هذا القرن يروّجون له بكلِّ ما يستطيعون، فينشرون المترجمات، ويجعلون مسألة التطور شغلَهم الشاغل، إذ يُصدرون الكتبَ عنها مباهين، ولم يكن بعضهم ممّا يسلكون مسلك الأستاذ وجدي في سعة الصدر، وهدوء اللهجة، بل دفع الغرور بعضَ شبابهم إلى

التهجم عليه، ورميه بالتخلف الزمني!! وكأنه هو وحدَه من العلماء الذي يحارب الماديّين، وما دَرَوْا أنَّ لفيفاً من كبار أساتذة الجامعات في الغرب يقفون معه في صفٍّ واحد، ويُظهرون من الأدلة ما يعصف بهذه النظرة المتداعية، فهل يكونون متخلفين في منطق هؤلاء، وفيهم من لا يستطيع فَهْمَ بحوثه على وجهها الصحيح؟!.

لقد أصدرَ الدكتور شبلي شميل كُتبَه المتعددة في تأييد نظرية النشوء والارتقاء، وراجت رواجاً حسناً بين الذين يبهرهم كلُّ جديد، وقد صدَّرَ أحد كتبه بهذه العبارة، إذ كتبها تحت عنوان الكتاب بورقة الغلاف «طالعْ هذا الكتاب بكلِّ تمعُّن، ولا تُطالعْه إلا بعد أن تُطلقَ نفسك من أَسْر الأغراض، لئلاَّ تغمَّ عليك وأنت واقفٌ تطلُّ على العالم من شرفةِ عقلك، تلتمسُ الحقيقةَ من وراء ستارها» وهي عبارةٌ ردَّدها المقرِّظون لكتاب الدكتور، وبعضُهم جعلها مدار الحديث عن كتاب (فلسفة النشوء والارتقاء) الذي أصدره الدكتور مُتوَّجاً بهذه العبارة! لم يتعدَّها إلى الموضوع نفسه، بل كان شرحُها الممتد هو كلُّ ما قال في تقريظ الكتاب!.

أما الأستاذ محمد فريد وجدي فقد أصدر فيما أصدرَ كتابه الذائع (على أطلال المذهب المادي) في أجزائه الأربعة، ليهدمَ كلَّ ما قاله المتطورون، دون أن يعرضَ لأسماء أحدٍ من كتّاب العربية، بل اتجهَ إلى الرؤوس ممن ينقل عنهم الشرقيّون، وقد صدَّر الجزء الثاني من كتابه (على أطلال المذهب الماديّ) بهذه العبارة التي خطَّها الدكتور شبلي

شميل، ونسبها إليه، فكان ذلك ردّاً تلميحياً يُوحي للقراء بأنَّ كلَّ ما يقوله النشوئيون مدحوضٌ في الكتاب! وقد وجدنا مَن ضاق ذرعاً بكتاب الأستاذ وجدي، فقال: إنَّ ثمانين في المئة منه مترجَم!! وليس هذا بعيبٍ حتى يُصبحَ موضعَ نقدٍ، لأنَّ المؤلف نسب كلَّ قولٍ لقائله، ومن حقِّه أن يذكرَ زبدةَ ما قال أعداءُ الماديّين في بحوثهم المستفيضة.

وأنا أتساءل لماذا نستجيز أن ننشر كلام الماديين مباهين مختالين، ننشره مترجماً دون أن نزيدَ على حقائقه ما يوحي بابتكارٍ توحي به عقولنا المتواضعة، ونرى ذلك مدعاةَ مباهاةٍ بالاطلاع، ومسايرةً العالم المتحضر في بحوثه الطافرة، فإذا جاء من يردُّ علينا مستنداً إلى أقوال الكبار من خصوم هؤلاء، صاح الصائحون: هذه مُتَرْجَمات! والسؤالُ الذي ينحسم عنده كلُّ جدل، أن نقول لهم: ألستم أيضاً مترجمين.

وإذا كانت محاولةُ تلخيص آراء الأستاذ وجدي في نُصرة الروحية تكاد تكون مستحيلةً لكثرة ما كتب، بل لِما أعاد وكرَّر في مناسباتٍ تدعو إلى التكرار والإعادة، فإنني بعد أن قرأتُ ما قدرتُ عليه من مؤلفاته العظيمة حقًّا في هذا المجال، سأُوجز ما وعيتُه في نقاطٍ تهدي القارئ إلى فِكر الأستاذ، دون غموضٍ يُرْبِك السياق، متحاشياً ما يدلُّ على غوصٍ نافذ لا يحتمله غير القارئ المتخصص، وفي ذلك ما يغني عن صفحاتٍ كثيرة تُساق مساقَ الاستطراد.

إنَّ أكبرَ حجةٍ يسوقها أعداء المؤيدين لعالم الغيب، هي أنَّ العلم

الحديث لا شأن له بالأرواح وعالمها، وكلّ ما يدور حولَه هو العالمُ المادّيّ وما يحيط بـه، وهي شـبهةٌ تخدعُ في الظاهر، ولكنَّها ظاهـرةُ البطلان، لأنَّ عدداً كبيراً من البحوث العلمية تدور حول أشياءَ تبْعد عن المادة.

ففي المجال المغناطيسي نرى البحث يدور حول دوائر في الأثير تحيط بقطعة الحديد، فإذا كانت قطعة الحديد ماديّة، فإنَّ هذه الدوائر متوهَّمـةٌ لا حقيقـة لها، وقد فُرضت فرضاً ليسـتقيم البحث العلمـي بفرضها، وكذلك أمواج الراديو، ومُوَيْجات الحرارة، وأشعة إكس هي في ذاتها ظواهرُ غير مادية في وسطٍ ماديّ، ويدُ العلم لم تصل إليها إلا عن طريق تأثيرها في الأجسام.

وكذلك البحوث الروحية تدور حول أشياء في عالم الغيب لا يمكن الإحاطةُ بها عن طريق الحواس، ولكنَّها تتصل بأجسامٍ قد تكون بشرية، وقـد تكون غير بشـرية، كما تتصلُ الأمواج الأثيرية بقطعة الحديـد، فتترتَّب عليها النتائج العلمية! أفليست هذه كتلك!.

إنَّ إنكار الاتّصال بالعالم الروحي يجد الإنكار أيضاً من كثيرٍ من رجال الدين ولكنَّ الذين يُثبتون هذا الاتصال، ليسوا فريقاً من المشعوذين يخدعون البسطاء، ليستلبوا منهم الأموال، فتُنسب أعمالهم للدجل والشعوذة، ولكنَّهم من كبار أساتذة العلوم في أرقى جامعات أوروبة، ومنهم مديرو الجامعات أنْفسُهم، وليست حججُهم العلمية فلسفيةً تأتي

من نـاحية الفكر وحدَه، ولكنَّها حججٌ تجريبيـة علمية، تُعقد اللجان المتخصصة لتأكيدها، وتُرصد نتائجها في دقة، وتكرَّر التجارب في أممٍ مختلفة، تكرَّر في إنكلترة وأمريكة وفرنسة وهولندة وألمانية.

وهذه الجمعيات الروحية يُديرها أسـاتذةُ الطبيعة والكيميـاء، وأعضاؤها على اتصالٍ مباشر، حيث لا يتمُّ فحصُ حالةٍ روحية إلا بُلِّغَتْ للدوائـر الأخـرى، وتلقَّـى أصحابُهـا ما قـد يجدُّ من الاعتراضـات، لمواصلـة التجربة من جديـد، حتى ينتهيَ الجميـعُ إلى رأيٍ مطمئن، والأعضاءُ جميعاً فوق الشبهات، لأنهم يبذلون أموالهم الطائلة، دون أن ينظروا أيَّ مكسبٍ ماديّ غير مايتحقق على أيديهم من صِدْق الاكتشاف».

وفي إحدى مقالات الأستاذ وجدي التي يخاطب بها القرّاء بعيداً عن بحـوث الكتب المتخصصة ذات العمق البعيد، كشفَ في وضوحٍ حقيقةَ الصلة بين الدين والعلم، ووضَّح المرامي الباعثة على نهوض البحوث الروحية في وجوه الشكوك المتلاحقة فقال[1]:

«إنَّ العقدة بين الدين والعلم (العلم الغربي) هي أنَّ الأول يقول بوجود عالمٍ فوق الطبيعة، يتنزَّل منه جميعُ ما في الكون من كائناتٍ ماديّة، وقوى عالمية، وهو الأصل الأصيل في وجود العالم المحسوس.

وينبغي على هذا الأصل القولُ بوجود الخالق المدبِّر، والروح

---

(١) مجلة الرسالة ـ العدد الممتاز (٤٤٩) ٩/ ٢/ ١٩٤٢م.

الإنسانية، والإلهامات الحيوانية من الإبداعات التكوينية، والوحي، وخلود الإنسان في عالم الأرواح المجرَّدة، والعلمُ ينكر كلَّ ذلك، ويعدُّه من الخيالات التصوّرية، ويُقرِّر أنَّ المادة قديمة، وأنَّ كلَّ ما صدر في عالمها حتى القوى العقلية، والروح الإنسانية إنَّما صدر بواسطة النواميس الطبيعية الملازمة للذرّة المادية على سبيل التدريج والتطورات المتعاقبة.

تورَّطَ العلمُ أخيراً في بحثه الجديد ـ عن عالم ما فوق الطبيعة ـ على أسلوبه المعروف من التجربة والتمحيص، وبدا لألوفٍ مؤلَّفةٍ من رجاله بصيصٌ من نوره، فأثبتوا نتائجَ تجاربهم وحداناً وجماعاتٍ في مؤلَّفات، ومحاضر، قال عنها فيلسوف أمريكة الكبير (وليم جيمس) أستاذُ جامعة (هارفرد) في كتابه (إرادة الاعتقاد):

«إذا صدَّقنا الجرائد وأوهام الصالونات خُيِّل إلينا أنَّ الضعفَ العقلي، وسرعة التصديق هما الجامع بين أعضاء هذه الجمعية (يريد جمعيـة المباحث النفسية الإنكليزية) وأنَّ حبَّ العجائب هـو الجامعُ المحرِّك لها، ومع هذا فيكفي أن تُلقي نظرةً على أعضائها لِدَحْض هذه التهمة، فإنَّ رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ (سرجوك) المعروف بأنَّه أشـدُّ الناس شكيمةً في النقد، وأعصاهم قياداً للشكّ في جميع البلاد الإنكليزية، ووكيلُها المستر (آرْثر بلفور) أحد رؤساء الوزارات الإنكليزية وعالمٌ شهير، والأستاذ (ج. ب لنجلي) علاّمةٌ شهير، ويمكن التنويه من أعضائها العاملين بالأستاذ (لشه) الفيزيولوجي الشهير، وتشمل قائمةُ

أعضائها رجالاً كثيرين، كفاءاتهم العلمية أشهرُ من أن تُذكر، فإذا طُلب مني أن أنوِّهَ بجريدةٍ علمية تكون مصادر أبحاثها ممحصةً بأدقِّ الأساليب فإني أنوّه بمحاضر جمعية المباحث النفسية، لأنَّ الفصول الفيزيولوجية التي تنشرها الجرائد الخاصة لا تبلغُ في دقة النقد مبلغَ هذه المحاضر المذكورة».

وما كتبه الأستاذ في المؤلفات المستقلة والمقالات المسلسلة يزخرُ بآراء الكبار من أساتذة العلوم الطبيعية، وهم بأستاذيّتهم المعترف بها، أكبرُ من أن يوصموا بالشعوذة، والحقّ أنَّ بعض أدعياء التنويم المغناطيسي في بلاد الشرق يجعلونه أداةَ كسب، وليسوا من البحوث المتعمّقة في شيء، فيظهر كذبهم الشائن، وتندفع الجرائد إلى مهاجمة البحوث الروحية بنوعٍ عام، وأنا أقول لهؤلاء: هل إذا قام دجالٌ ما بعلاج المرضى، وجمعَ حوله من ضعاف العقول مَن يدعو إلى الاستشفاء عليه، ثم ظهر جهلُه ودَجَلُه، أيكون ذلك مدعاةً للهجوم على الأطباء المعترف بكفاءتهم، بدعوى أنَّ بعض من مارسوا الطب دجاجلة! إذا لم يكن ذلك معقولاً، فلماذا نخصُّ أدعياء التنويم المغناطيسي بحكمٍ عام يمتدُّ إلى كلِّ باحثٍ متخصص في فهم المسائل الروحية عن علمٍ غزير، وهدى بصير..

واصلَ الباحثُ جهده في إثبات العالم الروحي، وأكَّدَ أنه بعمله الدؤوب في هذا الاتجاه لا يدعو الناس إلى الاعتقاد ببقاء الروح فحسب، بل يدعوهم إلى صلاح أمرهم في الحياة الدنيا، لأنَّ الذي

يعرف أنه سيُحاسَب ويُسأل عما قدَّمت يداه، يكون ذلك زاجراً له عن فعْل السّوء، ومتى حاسبَ الإنسانُ نفسَه ارتقاباً لحسابٍ آخر سيواجَه به في مقبل حياته الأخرويّة، فإنَّ دواعي المعصية تكون أشدّ زجراً، وأوقع تأثيراً، وإذا كان الموتُ نهايةَ كلِّ شيءٍ في نظر الماديّ الملحد، فالمسألةُ مسألة إصلاحٍ دنيوي قبل أن تكون إحاطةً بعالم الغيب.

ولعلّ الأستاذ وجدي يردُّ بذلك على مَن هاجمه قائلاً: إنه يجب أن ينصرفَ إلى أمور الحياة بدل أن يبذل جهده في أمورٍ ميتافيزيقية لا جدوى منها!

وهذا المعترض المغرض مخطئ من ناحيتين:

الناحية الأولى: أنَّ تأكيدَ العالم الأخروي وثيقُ الأسباب بصلاح الإنسان في عالمه الدنيوي، وهذا ما عناه قول الله عزّ وجل ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٥ ـ ٦].

والناحية الثانية: أنَّ الأستاذ وجدي لم يترك مسائل الإصلاح في الدنيا في أكثر ما كتب، فمؤلفاتُه شاهدةٌ بالمناداة بهذا الإصلاح، ولكنّه يجعل الدين سبيلَ الإصلاح، وشريعة الإسلام هي القانون المسيطر على شؤون الناس، ويكفي الأستاذ تثقيفاً لأبناء جيله أنّه عرضَ عليهم أفكار أعلام الفكر في العالم الغربي، وقدَّم خلاصة آرائهم كما وردت في بحوثهم الضافية، متعرّضاً لنقد ما يجده موضعاً للنقد! فليت شعري أيكون بعد ذلك كله لاهياً عن شؤون الحياة؟؟!.

على أنَّ بلاءَ الباحث الكبير بممثلي الأديان كان مماثلاً لبلائه بذوي الإلحاد، فأكثرُ الفريقين ينكر جهادَ الرجل في هذا النطاق مع الفارق الواضح بينهما، ففريقُ الإلحاد ينكر وجودَ الروح وعالم الغيب وإله الكون إطلاقاً، وفريق المتديّنين ينكر أن يصلَ البحث العلمي المعاصر إلى شأنٍ من شؤون الروح، وعلينا أن نصدِّق النقل الوارد في الكتاب والسنّة دون محاولةٍ معاصرة لتأييد ما في الكتاب والسنّة.

ويردُّ عليهم الأستاذ قائلاً[1]:

«إنَّ هذه الدراسات العلمية المحضة التي عاداها ولا يزال يعاديها رجالُ الدين في هذه الملل قد مُحِّصَتْ تمحيصاً لم تنله العلوم الطبيعية ذاتها، وذلك لغرابتها، وشدّة ما كانوا يكذّبون بها، فقد أثبتت هذه الدراسات والتجارب العلمية، وجودَ عالمٍ فوق الطبيعة، يتحكَّم في عالمنا الأرضيّ، ومُصرِّفٌ له، وكانت الحاجةُ ماسّةً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى هذا الفتح العظيم في العلم، وقد كانت المعلومات التي لم تبلغ التعليل قد بلغت حدّاً مُيئساً، واكتشف النّقدةُ العلميون جهات ضعفٍ في العلم نفسه لا يمكن الإغضاءُ عنها، وفي هذه النقطة من الغرور العلمي ظهر علمُ ما فوق الطبيعة ودُرست ظواهره، ومُحّصت تمحيصاً دقيقاً، وتولاّها رجالٌ من ذوي الكفايات الممتازة أوصلوها إلى

---

(١) خلاصات شتّى من بحوثٍ متفرقة، للأستاذ، نشرت بالأزهر والرسالة وغيرهما.

غاياتٍ بعيدة، وقعَّدوها على أصولٍ وطيدة، بحيث صارت أهلاً لأن تُخصَّصَ لها دراساتٌ في بعض الجامعات الكبرى كجامعات أكسفورد وكمبريدج ويُورك وجامعاتٍ أمريكية أخرى. . .

وهذه المستكشفات الحديثة تفتح أمام العقل الإنساني حقائقَ كانت فلسفةُ العلم المادي قد جعلتها من المحالات العقليـة، مثل وجود قـدرةٍ عاليـة تديـر الكون والكونيـات، ووجـود روحٍ في جسـم الإنسان مسـتقلة عنه، تخلدُ بعد انحلاله، ومثل بعثة أرواحٍ عالية للأمم في فتراتٍ من الدهر سُمّوا الرسل ليهدوا النـاس إلى الخيـر، ويزعوهم عن الشـرّ، ويمهدوا لهم سـبل الارتقاء.

والأسـتاذ وجدي ليـس وحدَه الجازمَ كـلَّ الجـزم بصحّـة هذه الأبحاث، فإنَّ أصحاب المعامل التحليلية من كبار أساتذة العلوم في أوروبة قد فعلوا الذي لا يستطيع فعلَه من الفحص الدقيق على أصحّ الآلات تحليلاً لظوار تُرى وتُعلَم دون أن يعلمَ أحدٌ شيئاً عن حقيقتها، وبجمع هذه الظواهر في مجالٍ واحد، أُلِّفت الكتب المتخصصـة، وأُقيمت الندوات المتكرّرة، واتَّجه عالـمٌ كبير مثل العلاّمة (ألفرد جوزيف لودج) مدير جامعة برمنغهام وأستاذ الطبيعة بجامعة ليفربول، ورئيس المجمع العلمي البريطاني مع رئاسةٍ شرفية وعلمية لجمعيات رنتجن، وجمعية الطبيعة، وجمعية الراديو، والحجّة الأولى في كلٍّ ما يتعلَّق بمباحث الأثير، اتَّجه هذا العالم إلى تأليف كتابٍ يجمع خلاصة أبحاثه

على مدى خمسين عاماً سمّاه: (كيف ثبتَ لي خلود النفس البشرية) وقد كتب له تمهيداً مستفيضاً قال فيه[1]:

«القولُ بخلود النفس البشرية بعد الممات، وبأنَّ الموت طرحٌ للجسد الماديّ ليس غير قول قديم وُجِدَ منذ وُجِدَ البشر، أمّا الحجج التي تؤيد هذا القولَ فبعضها دينيٌّ قائمٌ على التسليم بوجود خالقٍ رحيم حكيم، وبعضها وجدانيٌّ يرجع إلى نفور النفس الغريزي من فكرة العدم، وإني في هذا الكتاب لا أعتمد على هذين النوعين من الحجج، وإنْ كنتُ أحترمُهما، وأقدِّرهما قدرهما، بل لست أنوي أن أحاجَّ أو أجادل، فنظريَّتي قائمةٌ على أساسٍ من الاختيار الفعلي، وعلى قبول طائفةٍ من ظواهر يمكن لكلِّ إنسانٍ أن يشاهدها بنفسه، إذا تجشَّم عناء التجريب، إني أعرفُ خطورةَ كلمة (حقيقة) من الوجهة العلمية، ومع ذلك أقول دون أدنى شك: إنَّ بقاء ذاتية الفرد بعد موته، هو عندي حقيقةٌ قام عليها الدليلُ الحسّي، لقد وصلتُ إلى هذا اليقين بدراسة خصائص نفسيّة غامضة لم يلتفت إليها العلم حتى الآن، ولا يرتاح إليها فيما أظنُّ رجالُ الدين، لذلك أرى لزاماً عليَّ أن أُذيعَ من آنٍ لآن، ما يبرّر مثابرتي على هذه البحوث، ويعبّر عن اقتناعي التام بصحّة ما وصلت إليه».

لقد احتشدت أمام وجدي هذه الأدلة المستقاة من كُتب الكبار من

---

(١) (كيف ثبتَ لي خلودُ النفس البشرية) بقلم لودج، وتعريب الأستاذ عبد المغني علي حسين.

علماء الغرب، ثم نظر فوجد جامعات أوروبة وأمريكة المشار إليها من قبلُ تهتمُّ بدراسة هذه الناحية، وتخصِّص لها الأقسام العلمية المستقلة التي تأتي كلَّ يومٍ بجديد، أمّا جامعاتنا في العالم الإسلامي فتشدِّد النكير على هذا الاتجاه. . وتعتبره حديث خرافة، وكان على من ينكرون هذا الفتحَ العلمي أن ينقدوه نقداً سديداً في بحثٍ منطقيٍّ قويٍّ البرهان، فيكونوا حينئذٍ أصحابَ معرفةٍ تحقُّ الحقَّ، وتُبطلُ الباطلَ، ولكنهم يكتفون بالإنكار، ومثل هذا الإنكار السطحيّ يقوم به أيُّ ناطقٍ يتحرَّك لسانُه بالقول دون معرفةٍ أو دراية، وقد فكَّر الأستاذ وجدي في ضرورة البدء بهذه الدراسات على النطاق الجامعي أسوةً بجامعات الغرب، ورأى جامعةَ الأزهر الشريف أقربَ الجامعات ـ منطقياً ـ إلى تحبيذ هذا الاتجاه، فكتب مقالاً جادًّا تحت عنوان (التيارات الفكرية العالمية والأزهر) قال فيه[1]:

«إنَّ الأزهر الذي أرادتْ العنايةُ الإلٰهية أن تجعله مثابةً علمية للمسلمين، لا يزالُ يُعنى بالمؤلفات نفسها التي كان يُعنى بها آباؤنا الأولون، لحياطة الدين من شبهات المتشككين، ومذاهب المضلِّلين، ولكنْ أين ما عليه المتكلّمون من ذلك العهد، مما عليه خلفاؤهم اليوم؟! وماذا كنتَ قائلاً حين تعلم أنَّ أكثر ما يُعنى به الأزهر الآن من دفع الشبهات والاستنكارات قد انقرضَ أهلُه منذ قرون، وحلَّت محلَّها

(١) مجلة الرسالة ـ العدد (٦٥٣) ٧/ ١/ ١٩٤٦م.

مذاهب ونظريات تحتاجُ للفهم الدقيق، ويحتاجُ دحضها أو تعديلها إلى النظر البعيد، والعلم الغزير.

كان آباؤنا يُعْنَوْن بعلم الكلام لمجرّد دحض شبهات من الدين، ونحن نطالبُ اليوم بوجوب تقرير دراسة التيارات الفكرية العالمية في الأزهر، لا لهذه الغاية فحسب، بل لمقصدٍ لا يقلّ عنها قيمة، وهو لما في هذه الدراسات من الأثر العظيم في رفع مستوى النظر والتفكير، وتوسيع مجال الفهم للشؤون الإنسانية، وهو ما يجب أن يكون عليه رجل الدين الذي جعل العلم أساسه الركين».

ولا يقصر الباحث توجيهَه على الأزهر فقط، بل يمتدُّ به في مقالٍ آخر إلى المدارس جميعها فيقول(١):

«إنَّ العلمَ الذي يُدرَّس الآن في مدارس المسلمين قائمٌ على الأصول المادية البحتة للقرن التاسع عشر، فتجد كُتبها التي بين أيدي الطلبة لا تزال تردِّد لهم النظريات الرثّة العتيقة التي تخيَّلها (ديمقريطس) اليونانيّ منذ أكثر من ألفين وثلاثمئة سنة، وهي «أنَّ المادة لا تفنى ولا تتجدَّد» على حين أنَّ علم القرن العشرين قد توصَّل إلى إفناء المادة، وإحالتها إلى قوة، فأثبت بذلك أنَّ المادة لم تكن، ثم كانت، وهذه المعرفةُ لها قيمةٌ عظيمة في الدراسة الدينيّة، لأنَّ القول بعدم تجدُّد المادة

---

(١) الرسالة ـ العدد (٤٤٩) ـ ٩/ ٢/ ١٩٤٢م.

وفنائها يـؤدّي إلى القول بقِدَم العالم الماديّ، وهو أسـاس المذهب المادي، وحِصنُه الحصين».

أما ما يركِّز عليه الأستاذ في هذا النطاق فهو (البحوث الروحية) التي يقول عنها[1]:

هذه البحوث الروحية التي أمضت قرناً كاملاً تحت فحص أعتى العقول البشرية، قد أثبتَتْ وجود عالمٍ روحانيّ، وشاهدتْ حوادثَ من قبيل تحكُّم الروح في المادة تحليلاً وتركيباً، وخرْقاً للنواميس الطبيعية خرقاً لا هوادةَ فيه، فاتَّسعت أمام أنظارهم مناوحُ النظر العالي، وأدركوا بالحسّ فسادَ النظرية الآليّة، التي كانوا يعلِّلون بها وجودَ الكون الماديّ، ونظامه واتساقه! هذه المستكشفات الحديثة تفتحُ أمام العقل الإنساني حقائقَ كانت فلسفةُ العلم المادي قد جعلتها من المحالات العقلية، مثل وجود قدرةٍ عالية تدبِّر الكون والكونيات، ووجود روحٍ في جسم الإنسان مستقلة عنه، تخلُد بعد انحلاله، ومثل بعثة أرواحٍ عالية للأمم في فتراتٍ من الدهر، سمَّاهم الناسُ الرسل ليهدوهم إلى الخير، ويزعوهم عن الشر، ويمهّدون لهم سبيل الارتقاء، فالسدُّ الوحيد الذي أراه يقاومُ تيارَ الإلحاد المندفع الذي يكتسح أمامه الأمم والشعوب، هو أن يتضلَّع علماءُ الدين من هذا العلم الجديد، ويستخدموه لحلِّ شبهات المشتبهين، وكبحِ جماح المستهزئين، وما المانعُ لهم من ذلك؟ وهو يزيدُ في

(١) الرسالة ـ العدد (٧٥٧) ـ ٥/ ١/ ١٩٤٨م.

دعوتهم تأثيراً، ويُلقي على حججهم نوراً، ويقدعُ من معاطس المتفلسفة الذين يتخيّلون أنهم وحدهم الذين خلصوا من أوهام العقائد، وكل ما عداهم يرسف في أغلالها، ويتعثَّر في أذيالها، ويحمِّل عقله تصديقَ خيالاتٍ لا وجودَ لها».

هذا بعضُ ما أنقله عن الأستاذ توضيحاً لاتجاهه الروحي، وقد اقتنعتُ به اقتناعاً عقلياً دفعني كثيراً إلى معارضة من يخالفونه، وفيهم مَن أحملُ له تقديراً خاصاً لكفاحه الوطني، وحماسته الدينية، وهو زعيم مصر الفتاة الأستاذ (أحمد حسين) فقد نشر بمجلة (الثقافة) مقالاً عن محمد فريد وجدي كلُّه إطراءٌ صادق لجهود هذا الباحث العظيم، واستنكارٌ لمن لا يحتفون بآثاره على الوجه المنشود، وهو عَلَم الأعلام في جيله، غير أنه بعد أن دعا دعوةً ملحّةً إلى إعادة طبع (دائرة المعارف) التي مضى عليها أمد بعيد، حتى نفدت من السوق، ذكر أنه يتحفَّظُ شيئاً ما على بعض أبحاثه الروحية، ولم يذكر أسبابَ هذا التحفظ، فرأيتُ أن أكتبَ مقالاً أعارضُ فيه ما دعا إليه الأستاذ (أحمد حسين) من هذا التحفظ، وقلتُ فيما قلت[1]: «إنَّ وجود الأستاذ محمد فريد وجدي في مصر كوجود (أولفر جوزيف لودج) في إنكلترة، وإذا كان المثقفون قد أقبلوا على دراسة آراء (أوليفر لودج) الروحيّة، فيجب أن تنال آراء وجدي حظَّها من الدراسة، ولي في هذا المجال تجربةٌ إنسانية، فقد قُدِّرَ

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد (٥٤) ـ مارس سنة ١٩٧٨م.

لي أن أفقدَ عزيزةً عليَّ، وضاق بي الحزنُ حتى كدتُ أنفجر، وهُرعتُ إلى مطالعة ما كُتب في السلوى، مبتدئاً بابن مسكويه، والغزالي، وابن القيم، وابن سينا، وإخوان الصفا دون جدوى، ثم اهتديتُ إلى مقالاتٍ علمية متتابعة كتبها العلامة محمد فريد وجدي بالمجلّدين الحادي عشر والثاني عشر من (مجلة الأزهر) سنتي ١٣٥٩ ـ ١٣٦٠هـ، تحت عنوان (ثبات الروح الإنسانية حسّياً مع أدلة جديدة قائمة على الدستور العلمي) فوجدتُ حالاتٍ كثيرة فُحصت بمنتهى الدقة في أوروبة لكبار العلماء هناك، تدلُّ على بقاء الروح، وتنطِقُ بأنَّ الموتَ سفرٌ من مكانٍ إلى مكان، فاسترحتُ مطمئناً عن يقين تجربتي إلى أنّي سأقابلُ الروحَ العزيزة التي فارقتْني، مستنداً إلى آراء علمية ونصوص قرآنية. فإذا كان هذا بعضُ ما أنتجه كفاح الأستاذ وجدي في هدم المادية الملحدة فأكرم به من كفاح»[1].

وما دمتُ أتحدَّث عن الجهاد الشاقّ الذي بذله الأستاذ في مكافحة المادية، وإحقاق عالم الغيب، فإنّي أشير هنا إلى نموذجٍ من الحالات الروحية التي أشرتُ إليها من قبل، تلك التي تؤكِّد أنَّ الموتَ ليس خاتمة الحياة، وإنما هو سفرٌ من مكانٍ إلى مكان، وهي حالاتٌ تستدعي النظر والتريُّث في الإنكار، وأكثر الذين قاموا بها من كبار العلماء في الغرب، ليسوا رجالَ دينٍ يؤيِّدون مذهباً يعتنقونه، ولكنّهم يحبّون البحث لوجهِ

---

(١) الجزء السابع من مجلة الأزهر ـ رجب ١٣٦٠هـ ـ المجلد الثاني عشر.

البحث الخالص، وهذا أدْعَى للثقة بما يفعلون.

أكَّد الأستاذ وجدي في مقدمة هذه الأبحاث أنَّ الحياة الاجتماعية إذا قامت بدون الاعتقاد ببقاء النفس بعد الموت فإنها حينئذٍ تكون كئيبةً دامسة، لأنَّ الحياة لا تبتسم لشخصيةٍ تعتقد أنها صائرةٌ إلى الانحلال، وأنها رهنُ المنايا التي تخبط خبطَ عشواء، وأنَّ الواجب يقضي عليه أن يذيعَ ما اهتدى إليه العلمُ من الأدلة الحسية على بقاء الروح، وأنَّ أحسنَ كتابٍ جامع للتجارب العلمية، والمشاهدات الحسيّة هو ما وضعَه الأستاذ (إرنست بزّانو) في كتابه (خروج النفس من الجسد وعودتها إليه) لذلك قام الأستاذ الصبور بترجمته على صفحات (مجلة الأزهر) تباعاً.

أكرِّر أنَّ الأستاذ وجدي قضى قرابة نصف قرنٍ من عمره السعيد في نُصرة الاتجاه الروحي بما يملك من أدلةٍ ذات تقدير، ولم يكن وحده المنفرد بذلك بين علمائنا في مصر، فقد كان الفيلسوف الروحي الأستاذ (طنطاوي جوهري) والأستاذ (أحمد فهمي أبو الخير) والدكتور (رؤوف عبيد) من فرسان هذه الحقبة، وقد بذلوا الجهد الماديّ والعلميّ ليؤدوا رسالتهم الروحية قدر ما يستطيعون، وقد انتقلوا جميعاً إلى رحمة الله، فلهم تحيات المخلصين من العاملين».

* * *

دائرة معارف القرن العشرين

نشأ محمد فريد وجدي نشأةً عصاميّة في تعلّمه، حيث ودّعَ المدرسة التّحضيريّة ليتلقى علوم العصر بمفرده، وكانت اللغة الفرنسية قد دانتْ له قراءةً وكتابة، فجعلها نافذته إلى الاطّلاع على العلوم الحديثة، ووفقّهُ الله إلى دوائر المعارف العالمية التي تُرجمت إليها، فكانت مادةً كبرى لتحصيله، وقد وافتْه بكل ما يطلب في ميادين العلوم المختلفة مما لم يُوجَد له نظير في المؤلفات العربيّة، وليعلمَ القارئ أنّ ذلك كان في نهاية القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين، حيث لم تكن لدينا كليّات جامعية تُصْدِرُ مؤلفاتٍ عن العلوم المعاصرة، ولم يكن لدينا أساتذةٌ يشرحون مسائل الطبيعة والفلسفة وعلوم التربية والاقتصاد والسياسة، بل كانت المطبعةُ لا تُصدِرُ غير كتب التراث، وما يدور حوله من مقتبسات وتعليقات.

وقد وُجد من المترجمين أمثال محمد مسعود وأحمد فتحي زغلول، ولكن عملهما في هذا النطاق لم يتجاوز الفُصول الاجتماعية والسياسية وحدها كما انتشرت ترجمات القصص الأوروبية في الصحف على نحو سيئ الاختيار في أكثره، إذ كان المراد تسلية القارئ لا إمتاعهُ

بضربٍ من الفن الأدبيّ يُريه كيف تُشرّح العواطف، وتُوصف الأحاسيس، وتُكشف السرائر الدفينة للشخصيات، مع شرح المُلابسات والأسباب.

لذلك رأى فريد وجدي نفسه مضطراً إلى استذكار معلومات الدوائر العلمية المهمّة، وكأنّه يستعدُّ إلى أداء امتحان فيما يُحصّل، وكانت طريقته أن يُلخّص هذه المعلومات في جذاذات مختلفة مع تنوّع علومها، واختلاف موادها، لِيَرْجَع إليها مُوجزةً ملخصة بعد أن قرأها في أمّهاتها مسهبة، ونظر فوجد لديه بين هذه الجذاذات المتناثرة ما يملأ مجلّداً ضخماً، ففكّر في بني وطنه، وقال في نفسه:

«إذا كان الله عزَّ وجلّ قد رزقني القدرة على شراء الدوائر العلمية الأوروبية، ثم على قراءتها واستيعابها، والعمل على تلخيصها في هذا الكمّ الهائل من الأوراق، فلماذا لا أتقدّم بها للقرّاء، ليجدوا فيها ما أجدُ من ألوان المعرفة الغائبة، والدراسة القاصية عن متناول أيديهم؟».

ومع أنه كان مشغولاً بأبحاثه الكثيرة الخاصة بتوضيح مقاصد الإسلام، وردّ الشبهات الظالمة التي أُلصقت به، فقد كان بجانب ذلك يرى من حقّ أبناء أمته عليه أن يصدرَ لهم ما جمعه من هذه الدوائر في مُعجم علميّ سماه (كنز العلوم واللغة)، وقد انتهى من طبعه سنة ١٩٠٥م ولم يُرد ـ مع ما ذخر بها من مسائل العلوم المعاصرة ـ أن يخليه مما يدلُّ على الكمال العقلي، والإبداع العلمي، مقتبساً من أقوال الأساطين الكبار ما يدل على طموحهم الإنساني الرفيع، كما راعى الحالة المتواضعة للعلم

في مصر، فضمّ إلى هذا الكنز ما كان القارئ مفتقراً إليه من العلوم الطبية والصحيّة والفوائد المنزلية، وقال عنه في صدر المقدمة:

«دائرة معارف عامة تحتوي على فصيح اللغة العربية، وخُلاصات العلوم العقلية والنقلية، والطبيعية والتاريخية والعمرانية، وتراجم المشاهير، وفيها من الفوائد الطبية والعلاجية. والوسائل الحيوية ما يحتاج إليه الإنسان في سائر أحواله المعيشة».

وواضح مما تقدم أن هذا العمل يُحسبُ للرجل في مضمار الإصلاح الاجتماعي مثل أن يُحسبَ له في مضمار البحث العلمي، لأنه رأى حالة القارئ المصري بخاصةٍ، والقارئ العربي بعامةٍ مُجدبةً فقيرة، فقدم له ما يُساعدهُ على إصلاح عيشه، وتنظيم حياته، وعلاج جسمه في ضوءٍ من العلم الصحيح، فحاول أن يضيء مصباحاً يأتلق في سواد الليل الدامس.

وليست الوطنية الصحيحة هي الكتابةُ في مسائل السياسة وحدها، كما فهم أكثر الناس ويفهمون، ولكنّ الوطنية الصحيحة هي خدمةُ الأمة في شتّى ميادين الحياة، خدمةً نافعةً تُيسِّر على المواطن أمور معيشته. وتُريه أقرب السبل إلى إحاطة نفسه من شرور الأمراض، وآفات الجهالة، وضيق الأفق العلمي، والذين يُكافحون في هذا المضمار أبطالٌ حقيقيون.

وهذا ما فهمهُ الشاب الناهض حين قرأ واستوعب، ثم لخّص وأوجز، ثم جمع ونشر، فأفاد الناس فائدةً كبرى، دون حرصٍ على استهواء الغرائز في قصّةٍ خليعة أو ترجمة مريضة لفنّان شاذ!.

ثم تقلّبت الأيام بالرجل، وخاض بحار الصحافة المائجة بأهوالها وأعبائها، حين أصدر جريدة (الدستور) على نحو ما أشـرنا من قبل، حتى إذا انتهت خاتمة الدسـتور إلى نهايتها المتوقّعة، رأى أن ميدان الإصلاح الحقيقي قد اتسع أمامه في ضرورة تأليف دائرة معارف عامة تشملُ ما جدّ بعد عصور الازدهار العربي من تقدّم فكري في دنيا العلم والفلسفة والأدب والاكتشافات الحديثة، وأنّ ما سبق أنْ نشرهُ في مجلد (كنز العلوم واللغة) هو بذرةٌ ضئيلة لم يتسنَّ لها أن تنمو وتزهر وتُورق، وعليـه أن يُعجّل نماءَها بإصدار موسوعةٍ شـافية وافية يُسميها (دائـرة معارف القرن العشـرين) وهو عملٌ خارق لا يكادُ ينهض به فردٌ واحد، ولكنّ الإرادة القوية، والعزيمة الجبارة، هوّنتا كلّ صعب، فخلع عنه أوهام التردّد، واندفع إلى المحيط الزاخر عابراً أمواجه العلمية المتلاطمة على مدى ثماني سنواتٍ متصلةً، حتى أخرج للناس دائرة معارفٍ راقية في عشر مجلدات، وفي ما يقرب من تسعة آلافٍ من الصفحات، لم يخلُ منها حرف واحد من فائدةٍ محققة. وقد تمّ ذلك ما بين سنة ١٩١٠م، وسنة ١٩١٨م، فصدرت الموسوعة حافلة، ولعلّ مقدمة الجزء الأول منها تكفي لإيضاح منهجها الرائد، حيث قال الأستاذ محمد فريد وجدي[١] بعد حمد الله و الصلاة على نبيه: «فقد وضعنا كتابنا (كنز العلوم واللغة) قبل خمس سنوات، وكان غرضُنا الأول منه، أن نحصر معلومات البشر

(١) مقدمة الجزء الأول من الموسوعة، ص٣، الطبعة الثانية.

كلها في دائرةٍ واحدة، ليلمّ بها المطالعُ إلماماً جمليّاً، فيستفيدَ منها لعقله وروحه وجسده قدر ما تسمح به الحال، فجمعنا بين اللغة والعلوم النقلية والعقلية والطبيعية على اختلاف أصولها وفروعها في مجلد واحد، مرتّبةً ترتيب المعجم لتسهل مراجعتها على الطالب، وقد لقي عملنا هذا غاية ما يُتاحُ لمثله من الإقبال والتقدير، سواءٌ من جانب الأمة أو من جانب الهيئات الرسمية، فكما تسابق الناس لاقتنائه أسرعتْ نظارة المعارف، فاعتمده مجلسُها العلمي رسمياً، وتلاه الأزهر العامر فقرّره لمكتباته، فكانت هذه الشهادةُ المزدوجة أحسن مكافأة للمؤلف بعد جهاده الطويل وسهره المتواصل.

ولكننا اليوم وقد آنسنا من وقتنا فراغاً، ذكرنا حاجة الأمة إلى دائرة معارف، أغزر مادةً وأجمع فوائد، فإنّ الذي كان تكفيه بالأمس أن يقرأ في مادةٍ من المواد العلمية خلاصة موجزة أصبح لا يقنع إلا ببحثٍ مستفيض، وهو مسوق إلى ذلك بعاملين: عامل الشهوة العلمية، وعامل الحاجة إلى استكمال أسباب الحياة المدنيّة، فللطالب وللمعلّم وللطبيب وللكاتب حاجاتٌ متنوعة من اللغة والمذكّرات والإحصاءات والأصول والفوائد يُحبُّ كل منهم أن يجدها دون إضاعةٍ للوقت في بحث وتنقيب، لأن الوقت أصبح لدينا كما لدى غيرنا من ذهب، ولكن من أين لهم هذا إلا بدائرة علومٍ مستكملة لا تدعُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، ذكرنا هذه الحاجة العظمى وكنا في الأربع السنين الماضية دائبين على جمع ما فاتنا جمعُه في (كنز العلوم واللغة) فأجمعنا على وضع دائرة معارفٍ

على أسلوبٍ يناسب الحاجة العصرية، ليكون بإزاء سابقة كدائرة معارف (لاروس) بجانب قاموسه الصغير، فعزمنا أن نتوسع في قسم اللغة توسّعاً لا يدعُ حاجة في نفس، وأن نبسّط في القسم العلمي تبسّطاً يبلغ بالطالب غاية ما يرمي إليه، جاعلين نُصب أعيننا أن يكون الكتاب جامعاً بين الحاجة العقلية، والحاجة المعيشية، فكما يحرصُ عليه العالم ليمتح منه في نظريات العلوم، يحرص عليه الرجل العاديّ ليبحث فيه عن مُسكّنات آلامه، وصحة أهله وعياله، ووجوه السير في أعماله، وأمور دينه، وكل ما يحتاج إليه في معاملاته أمام المحاكم والبوليس والبريد، والتلغراف والمجالس الحسبية والأوقاف مما لا سبيلَ إلى الاطلاع على سواه.

فبدل أن نقتصر على بعض اللغة، نُلمّ باللغة كلها، فلا ندعُ لمقتنيه حاجةً لسواه، وبدل أن نكتفي من تاريخ أرسطو بعمودين كما فعلنا في (كنز العلوم) نأتي عليه في صفحتين، وبدل أن نلخّص علم الطبيعة في صحيفة، نُلخّصه في خمس صفحات... إلى آخر ما جاء في هذه المقدمة الكاشفة!.

وإضاءةً لما في هذه الدائرة العظيمة من ذخائر علميّة بالغة الأهمية أُشير إلى مقالٍ لي كتبته في الجزء الأول من كتاب (أهم مئة كتاب في مئة عام) حين طلبت مني إدارة الهلال أن أقوم بتعريفٍ لدائرة المعارف الوجدية باعتبارها إحدى الظواهر العلمية الرائعة في هذا العصر، وقد نُشر في المجلد الأول ص١١٩ وما وليها من الصفحات، وقد قلتُ فيه:

«إذا كان من المستغرب الآن أن يقوم فردٌ واحد بتأليف دائرة للمعارف الإنسانية تقعُ في عشرة أجزاء كبار حيثُ يُوجد المتخصصون في مختلف العلوم والفنون والآداب في كثرةٍ كاثرة، تتحدث عنها عشرات الكليات والمعاهد والأكاديميّات، فليس من المستغرب في مطلع هذا القرن أن ينهضَ العلامة الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي وحده بعبءٍ تنوءُ به العصبة أولو القوة إذ استشعر حاجة العالم العربي إلى موسوعةٍ تجمع معارف العصر، وتطلّع ذات اليمين وذات الشمال، فلمس فراغاً مخيفاً في وسائل المعرفة للقارئ العربي، ولو أخذ يتعقّب من يستطيع أن يشاركه في تحرير بعض الأبواب، لتعذّر عليه أن يُخرِجَ جزءاً واحداً من الأجزاء العشرة لوجود أكثر من مبرر للنكوص والتردد، ولكنه اصطحب عزيمة الأبطال من ذوي الهمم النادرة، ليقوم وحده بهذا الجهد الجاهد دون ملل، فكان مثله مثل من يعمدُ إلى جبلٍ شاهق يسدّ آفاق الكون، لينسفه نسفاً بجهده الفردي، وليس عجيباً أنْ يفكر هذا التفكير، ولكن العجيب أن ينتقل هذا التفكير من حيّز الخيال إلى حيّز الحقيقة. فلم تمرّ ثمان من السنوات حتى وجدَ القارئُ العربيّ بين يديه موسوعةً كبرى تجمع شتات المعارف، وقد سبقتها موسوعة للبستاني وولده لكنها لم تتم، ولكنّ موسوعة فريد وجدي كانت نظاماً آخر، إذ تفي بحاجة القارئ العربي المسلم في كلّ اتجاه يريد.

وأعجبُ ما نعجب له أن يقوم ناقد فيقول: إنّ عملّ وجدي غير موضوعي، إذ كان الواجبُ أن يقومَ به المتخصّصون، لا أنْ ينفرد به

وحده، حتى يأتي على الوجه الأكمل، ثم يضرب المثل بدوائر المعارف الغربية، التي يعكف على إنتاجها أساتذة البحوث المتخصصة في تحديدٍ صارمٍ لا يعرفُ الشمول.

ومثلُ هذا الناقد مثلُ من يـأتي إلى طبيب واحد في قريةٍ منعزلـة ليقول له: لا تبذل جهداً ما في معالجة عشرات المرضى الذين يتساقطون من حولك، لأنك لا تحسن غير معالجة مرضٍ واحد فحسب، ولك أن تجهل جميع معلوماتك العامة، لأننا في زمن التخصّص! ولتدع المريض يموت دون إنقاذ!!

هذا النوعُ من النقاد لا يعترفُ بظروف الزمان والمكان، وبدلَ أن يقول: إنّ جهداً جباراً من جهود المعرفة الإنسانية قام به عالمٌ واحد يجب أن يُستقبلَ بالتقدير والإعجاب، راح يُهوّن من قيمة عملٍ ضخم، لو بدأنا في مثله الآن لانتظرنا عشرات السنوات حتى نظفر بشيء ذي بال، وإني لأتساءل: لماذا لا نبدأ الآن والزمنُ غير الزمن، والحال غير الحال؟.

ونستمرّ في دائرة التعجب لنذكر أنّ هذا العمل الرائع في حينه لم يُقابَلْ بما يجب من التنويـه الحافل في صحف يومية تتقاذفُ بالشـتائم الساقطة ملء صفحاتها المشؤومة، وفي مجلاتٍ أسبوعية تقف في أمرها على التطرّف والاستهواء، وإذا سكتت أقـلامُ المشغولين بأنفسـهم وأحزابهم عن تقديـر هذا العمل الضخم فـإنَّ الجمهور قد تلقف هـذه الموسـوعة في إقبالٍ نادرٍ، إذ نفدت طبعتها الأولى سـريعاً، وأعيدت

الطبعة الثانية في زمن متعاقب لتجد الذيوع الكثير، ولكنّ صمت ذوي الأقلام عن الإشارة بهذا الجهد الحافل قد عبَّر عنه الأستاذ الكبير (داود بركات) رئيس تحرير جريدة الأهرام حيث أفرد الافتتاحية الصادرة بتاريخ ٣/ ٤/ ١٩٢٥ لتقدير هذا العمل، والثناء على هذه الموسوعة، وقال فيما قال: رجلٌ واحدٌ مفردٌ، يقومُ بعمل جادّ يسهر عليه الليالي، لا ليتلألأ على صدره نيشان، ولا لتُدفع له رتبة، أو يُقامَ له حفل تكريم، والمسؤولون مشغولون بكل شيء عن العلم والأدب، لا يعرفون عن المؤلف إلا أنه أديبٌ كاتب، على حين نجدُ المنافقَ والدسّاس والمُداجي يُقدَّم على صاحب الدائرة في كل شيء، يُقدّم عليه بالمال ينصبّ له انصباباً، وبالمقام يرتفع ويعلو، وبالتقديم الذي لا ينتهي عند حد، أما وجدي فإنه في عزلة، وإنه مجهولٌ».

هذا ما قاله (داود بركات) ويلمسُ منه القارئ حسرةً على النبوغ المهدر، والجهد المضاع».

ومرت الأيام، ووُجد من النقاد بعد سنوات من تطاولوا إلى نقد دائـرة المعارف، وفيهم من تنزّه عن الغرض في نقده، ومن حاول أن يكون أسـتاذاً يوجّه من لا يسـتطيع أن يدرك شـيئاً من قوله، فضلاً عن نقده، والليالي تلد العجائب.

ولنترك هؤلاء إلى ناقد أديب، وكاتبٍ لامع هو الدكتور (محمد حسين هيكل) صاحب المؤلفات الخالدة في الأدب والتاريخ والسياسة،

فقد كتب في تحليل الدائرة بحثاً علمياً نشره في جريدة السياسة ثم جمعه في كتابه المعروف (في أوقات الفراغ) وقد أثنى عليها بدءاً، ثم استشهد ببعض نماذجها فقال[1]:

«وما نشكّ في أنّ عدداً كبيراً من القرّاء يجد في مراجعة هذا الكتاب فائدةً له غير قليلة، فأنت إذا رجعت في الكتاب إلى كلمةٍ من الكلمات رأيتَ تفسيرها اللغوي، ثم انتقلت في أحيان كثيرة إلى بحث طويل ينطوي تحت هذه الكلمة من تاريخٍ أو فلسفة، خذ مثلاً لفظ (مصر) لقد كتب المؤلف عنها في مجلده التاسع ٢٢٦ صفحة، (من ص١٥ إلى ص٢٤١) جمع فيها تاريخ مصر القديم والحديث، وتكلم عن تقسيم البلاد، وعن التعليم فيها، وعن قوانينها النظامية، وعن دينها العام، ثم خذْ كلمة (إله) تجد بحثها في الجزء الأول من ص٤٨١ إلى ص٥٦٢، وتجدُ المؤلف يبدأ الكلام عن (الله)، بقوله: العقيدة بوجود الخالق فطرةٌ فطرت عليها النفس الإنسانية، أو هي في مرتبة العلوم الضرورية التي تحصل للإنسان كثمرة من ثمرات مواهبه العقلية، ثم يجيءُ بكلماتٍ لكبار الفلاسفة على إثبات وجود الله، وفي هذه الكلمات والبراهين شيءٌ يتمتع به الذهن، وقد ترى في هذه المادة غير البحث في الإله، وأدلة وجوده، فلتاتٍ عن العلم والمادة وغيرهما، ثم ينقلك المؤلف إلى رأيه الخاص في المسألة، وعقيدته بالله (عقيدة في درجة المحسوس

---

(١) في أوقات الفراغ، ص١٦٣، ط. ثالثة.

بلا دليل) وكذلك بحثه في المذهب المادي، والمذهب الروحيّ.

ثم راجعْ كلمة (موت) في الجزء التاسع تراها قد استغرقت منه (٢٦) صفحة بينها خمس صفحات من رسالةٍ لابن مسكويه في علاج الخوف من الموت، وفيها ثماني عشر صفحة عما يجب للمسلم بعد الوفاة من جنازة وصلاة ودفن.

وأنت كلما رجعت في دائرة المعارف إلى شيءٍ من الشؤون الروحية، فأنت واجدٌ دائماً بحثاً، كما أنك واجدٌ رأياً خاصاً للمؤلف مُنتهٍ منه إلى نتيجةٍ معينةٍ، كذلك كلما رجعتَ إلى شاعر من الشعراء أو كاتب من الكتاب، أو مؤلف من المؤلفين في الفقه فأنت واجدٌ شيئاً من تاريخ هذا الشاعر أو الكاتب أو الفقيه، وغير قليل من شعره وما كتب.

وللمدن والبلاد العربية حظ عظيم من عناية المؤلف، فالأندلس وبغداد ومكة كانت مواضع بحثه، وإن كان لمكة من هذه العناية القسط الأوفر، ولكن بغداد لم تحظ منه بأكثر من صفحة واحدة».

هذا بعض ما قاله الكاتب الكبير محمد حسين هيكل، ومنه نعرف استيعاب الباحث لكثير مما يعالج من الشؤون، كما نعرف أنه يحرص على إبداء رأيه الخاص في كثير مما يتعرض له من المسائل، فليس الرجل جامعاً فحسب، ولكنه نقّادٌ وموجّه وشارح.

ولعلنا بعد ذلك نردّ في حجة واضحة على من يقولون: إنّ الأستاذ غير أزهري النشأة، فهو لا يتعمقُ البحوثَ الدينية، كما حاول (السيد

محمد رشيد رضا) أن يقرر ذلك في لحظةٍ من لحظات غضبه المتسرّع، لأنّ الدائرة ببحوثها الإسلامية المستفيضة تؤكّد رسوخ الأستاذ في الأصول الأولى للتشريع، وقد كتب عن القرآن والحديث وعلم الكلام والتفسير ما لم يكتبه بعضُ المتخصصين، الذين يكتفون بالمناصب والألقاب، وبأيسر جهد نستطيع أن نستخلص من دائرة المعارف، كتاباً في الفقه الإسلامي، وكتاباً في قصص الأنبياء، وكتاباً عن أعلام الإسلام، وكتاباً عن عقائد الإسلام فيما يسمّى بعلم الكلام. فهل كتب الذين يرمونه بعدم الاطلاع على كتب المتأخرين شيئاً مما كتبه في علم واحد! لقد ذكر الدكتور هيكل أنّ الأستاذ وجدي كتب في مادة (مصر) (٢٢٦) صفحة، أيدري القارئ كيف جمعت هذه الصفحات، وكيف قرأ المؤلف العلامة عشرات الكتب التاريخية في شتى العصور القديمة والحديثة ليكتبَ هذا الجزء الرائع من الكتاب، وليقدمه موجزاً خالصاً من اللجاجة والفضول.

وكذلك نضرب المثل باتجاهٍ مباعد في ميدان البحث الفلسفي، فنذكر مثلاً ما كتبه عن الفيلسوف الإغريقي (أفلاطون) في الجزء الأول، فقد قدّم في عدة صفحات متوالية ما يكفي القارئ خوض ركام هائل مما كُتب عن أفلاطون غامضاً مبهماً لا ينتهي إلى وضوح! أما كفاهُ جدارة وألمعية أنّه جعل من آراء الفيلسوف الغامضة متّسعاً للإبانة الشافية، وأنه أنزل فلسفته من عليائها لتخاطب قارئي الدائرة على اختلافِ مستوياتهم العقلية!.

وأرجع إلى النقد الصريح الذي وجهه الدكتور محمد حسين هيكل

إلى الدائرة حين أكّد أنَّ الدائرة العلمية الصحيحة لا يقومُ بها رجلٌ واحدٌ مهما كانت كفايته، وإنّما الأصل أن يُعهد لجماعة من الباحثين بكتابة المواد المختلفة، كلٌّ في ميدان تخصّصه، وقد عرضتُ إلى هذا النقد في صدر الفصل، وأوضحتُ كيف أنَّ الأستاذ رأى الميدان خالياً فاقتحمه وحده، وبذل فيه جهد المستشهد، وما كان له أن يُلام.

وقد اتّجه نقدُ الدائرة إلى أمورٍ ذكرتُها في مقالي عنها بكتاب (أهم مئة كتاب في مئة عام) ولا أتركُ هذا المجال دون أن أشير إلى خلاصة ما قيل منقولاً عما كتبت.

ولقد ازدحمت الدائرة بمختلف المواد العلمية، فكان من المشاهد أنّ الكاتب يستوفي الكلام مبسوطاً في مادة، وموجزاً في مادة أخرى، وفق ما لديه من المراجع القريبة من متناوله، وهذا النقدُ ليس خاصاً به وحده، فكلُّ باحث يكتب موضوعه وفق ما يتيسّر له من المصادر، وفي (دائرة المعارف الإسلامية) التي كتبها أعلامٌ متخصصون من أساتذة الاستشراق، يرى القارئ هذا التردد بين الإيجاز والإطناب مع أنّ الباحثين مختلفون، ويكوّنون لجاناً ممتدة إلى شتى الدول من فرنسية وألمانية وهولندية وإنكليزية وأسبانية وغيرها، ولا تعيب الباحث أن يفيضَ في بحوثٍ درسها حقّ دراستها، وأصبحت لديه ذات مناوح واسعة الأنحاء، كمسائل المادة والروح والألوهية والقرآن والوحي والنبوة ومذاهب التطور والارتقاء، والأسطورة الدارونيّة، والتنويم المغناطيسي، فأكثر هذه المباحث تكاد تكون فصولاً مستقلة يكتبها باحث متخصص، لأنّ

العلامة (فريد وجدي) قد اهتمّ بها منذ أخذ يقرأ ويفهم ويكتب، حتى صارت جزءاً من مقوماته الفكرية، وإذا كانت معاجم أوروبة هي مرجعهُ المباشر في قضايا العلم الحديث، فإنّ المؤلفات المعاصرة في اللغة العربية للأعلام الكبار من أمثال محمد عبده وعلي مبارك ورجال البعثات الأوروبيـة من لدن محمد علي إلى عهد المؤلف كانت موضعَ التفاتـه العلمي، حيث ترددت أسماء محمد حسين الرشيدي، ومحمود عمر الباجوري، ومحمد فهمي حسين، ومحمد كامل الكفراوي، وعيسى حمدي، ومحمـود صدقي، ومحمد لبيب البتنوني، وأحمد عيسـى، وعلي مراد الكيماوي، وحسين الهراوي، حتى جاز للدكتور محمد طـٰه الحاجري أن يقول: إن هذه الأسماء المعاصرة تبيّنُ أن وجدي لم ينفرد بتأليف الدائرة وحده، والأشبه أن يقال: إنه انفرد بوضعها، وهذا ما أخالف فيه الدكتور محمد طـٰه الحاجري، لأنّ النقل عن هؤلاء المعاصرين في كتبهم الذائعة، لايختلفُ عن النقل عن القدماء من أمثال الغزالي والرازي والفارابي وابن سينا وابن مسكويه وابن حزم. فكما رجع العلامة فريد وجدي إلى المراجع القديمة رجع إلى المراجع الحديثة سواء بسواء، وهوَ هُو الناقل والملخّص والمستوعب والمناقش.

ولو أنّه كلّف بعض معاصريه بكتابة بعض المواد، لقلنا: إنه لم ينفرد بالبحث، ولكنه طالعَ ونقّبَ واختار ثم لخّص ما رآه أهلاً للتلخيص، فكيف يقال: إنه لم ينفرد لأنه رجع إلى المعاصرين!

ولعلّ ما يُثبت جدارة هذه الموسوعة أنّ الذين انتقدوها في فصولٍ

مسهبة، قد جعلوها من مصادرهم العلمية كالدكتور محمد حسين هيكل حيث كانت من مراجعه الموثوقة فيما ألّفه من تاريخ العصر الإسلامي الأول! وغير الدكتور هيكل من زعماء الفكر الحديث كثير.

وقد ظلت الحاجة ماسةً إلى دائرة معارف القرن العشرين، فطُبعت للمرة الثالثة ١٩٧١م بدار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت، وقد ظهرتْ في الثلاثينات وما بعدها من هذا القرن ترجمةٌ عربية لدائرة المعارف الإسلامية التي كتبها أساتذة الاستشراق، قام بها نخبةٌ من شباب كلية الآداب المصرية، فلم تستطع الموسوعة الأوروبية أن تحجب بريق الموسوعة الوجدية، إذ إنَّ أكثر من كتبوا بها من المستشرقين، قد صدروا عن أوهامهم الخاصّة بالإسلام، ولم يرتفعوا إلى مستوى النظر المجرد، مما اضطرّ القائمين على نشر هذه الدائرة أن يشفعوا بعض المواد بتعليقات لكبار العلماء في مصر، ومن هؤلاء الأستاذ محمد فريد وجدي نفسه، إذ أبلى بلاء حسناً في كشف كثير من أخطاء هذه الدائرة الأوروبية في الصحف والمجلات عقب صدور أجزائها، وقد قال بصدد بعض هذه الأخطاء: «بقيتْ لنا كلمةٌ نوجهها لحضرات الأفاضل، الذين يترجمون هذه الدائرة، هي أنها تشمل على الكثير من التهم الباطلة على الإسلام ورسوله، وهمْ يعلمون أنه لا يدفع بعض هؤلاء المستشرقين إلى التورط في هذه الخطة المريبة إلا ما يحملونه في صدورهم من البغضاء لهذا الدين».

وما قاله الأستاذ وجدي قاله الأستاذ محمد كردعلي وأحمد زكي

باشا ومحمد أحمد عرفة، ويوسف الدجوي وعباس محمود العقاد[1].

ولا زلت أذكر مما قاله الأستاذ محمد كردعلي: «إنّ الدائرة قد احتفلت بترجمة الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، وتحدّثت عنه مقدرة لا لشيء إلا لنزعته الإلحاديّة، مع أنها لم تذكر شيئاً عن أحمد شوقي، ومحمود سامي البارودي، وإسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وهم من أعلام الشعر. وهذا المثال وحده يغني عن كل تعليق»[2].

هذا وقد كنتُ أرجو من الأستاذ وجدي أن يُفرد ما كتبه بالدائرة من فصول إسلامية ممتازة في كتب مستقلة، لتكون أيسرَ تناولاً، وأسهلَ تداولاً بين أيدي القارئين، حيث لا يستطيع أكثرهم أن يجمعوا المجلّدات العشرة في مكاتبهم الخاصّة، لأن هذه البحوث الجيدة باستقلالها الفكري، وإقناعها المنطقي جديرةٌ بأن تكون مصدر إشعاع منير.

* * *

---

(١) مجلة نور الإسلام، ربيع الأول ـ سنة ١٣٥٣هـ، ص٢١٢.

(٢) الثقافة عدد ١٨ ـ سنة ١٩٣٩.

المصحف المفسر

كان همّ كثيرٍ من المفسرين في القديم والحديث أن يُظهروا مقدار ما حصّلوه من الثقافة العلمية فيما يفسرون به كتاب الله أكثر مما يُظهرون المعنى المراد جليّاً واضحاً لا لبس فيه، لذلك مُلئت كتب التفسير بحشود من مقرّرات النحو والبلاغة واللغة من الناحية اللسانية، وبحشودٍ من مقررات الأصول وعلم الكلام والمنطق والفلسفة في الناحية التشريعية والعقدية، وأصبح القارئ حائراً لا يدري أين يتجه في هذا العجاج المنتشر حول آيات الكتاب المبين، حتى قال بعضُ الدارسين عن كتاب (مفاتيح الغيب) للإمام الرازي: إنّه جمع كلَّ شيءٍ غير التفسير! وهو قولٌ مبالغٌ فيه، ولكنّه يرسم حقيقة هذه الحشود المكتظّة، والنصوص المتراصة، والجدل المتدافع، يزحمُ بعضه بعضاً دون ضرورة داعية، بل لأدنى مناسبة تُساق الاعتراضاتُ، وتُعقّب بالإجابات، وكأنّنا في معارك، وكنت أظنُّ أنَّ هذه التخمة العلمية في كتب التفسير قد نشأتْ في القرن الرابع حين تلاطمت الثقافات المختلفة، ولكنّي رأيتُ ابن قتيبة يعيبها، وينعى عليها، إذ نشأت مبكرة في عهده، فقد قال في مقدمة كتابه (غريب القرآن)[1]:

---

(١) مقدمة الغريب، ط الشروق، ص٨.

«وغرضُنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا أن نختصر ونكمل، وأن نوضح ونجمل، وألا نستشهد على اللفظ المبتذل، ولانكثر الدلالة على الحرف المستعمل، وألا نحشو كتابنا بالنحو وبالأحاديث والأسانيد» وهذا نظرٌ صحيح من ابن قتيبة، لأنّ للنقاش الجدلي موضعاً آخر، وكأنه ألّف كتابه عن (تأويل مشكل القرآن) ثم أتبعه بكتاب خاص ليفسح المجال فيما تحاشاه في كتاب (الغريب)، لأنَّ المشكل في صميمه كتابُ نقدٍ وتمحيص.

وقد كثرت التفاسير بعد الرازي ما بين موجزة ومسهبة، حتى جاء مطلع هذا القرن حافلاً بما نُشر من كتب التراث في التفسير كبيرها وصغيرها، وقد عكفت الدوائر العلمية في الأزهر على مِثل (الكشاف) وحواشي (البيضاوي) وتطلّع المثقفون إلى تفسيرٍ موجز مبسط، فكان (تفسير الجلالين) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي هو المختار من بين التفاسير الموجزة كالنسفي والبيضاوي، ولكن هل يقرأ أبناء الثقافة المدنية تفسيرَ الجلالينْ دون عائق معترض، إنّ هذا التفسير كان صدًى لثقافة جيله مهما أوجز، فهل يبدأ أحياناً بإعراب الكلمة دون معناها، وكأنّ الإعرابَ يدلُّ على المراد، ويحدُّد قراءاتٍ مختلفة دون أن يبيّن وجهتها العربية، ويُعنى بتحديد الألفاظ الأعجمية التي تسرّبت إلى العربية، ونزل بها القرآن، وأعظمُ نقدٍ يُقدّم إليه أنّه اشتملَ على أشياء تاريخية لم يقمِ الدليلُ على صحتها، كحديثه عن كُتب السّحر التي تُنسب إلى سليمان عليه السلام، ووصفه الألواح في سورة الأعراف بأنها من

سور الجنة، وتفسير ما ورد في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف ٢٤] على نحو مستبعد، وهذا وأمثالهُ يحتاج إلى تمحيص.

وقد كان لتفسير الجلالين حينئذٍ شهرةٌ خاصّة إذ أذيع عن الأستاذ الإمام (محمد عبده) أنّه لا يحمل في يده حين إلقاء درسه التفسيري بالرواق العباسي غير ملزمةٍ من (تفسير الجلالين) وما حمل الإمام الملزمة إلا ليتأكد من المعنى اللغوي فحسب، ثم يفيض بما فتح الله عليه في تفسيره الحكيم، وقد نُشر تباعاً بمجلة (المنار)، فكان من أعظم الأسباب في رواجها!.

لقد احتاج الشاب المثقف المدافع عن الإسلام محمد فريد وجدي إلى أن يقرأ كتب التفسير، فرآها بعيدة المنال بما تزدحم به من الآراء، ولا أجدُ أولى منه بالتعبير عن مشكلته إزاء هذه الكتب، فقد أبان في مقدمة تفسيره ما ارتطم فيه من عثرات دفعته إلى تأليف تفسير يسهّل إدراك معانيه، فذكر في صدق ما نأخذ منه مجال العبرة حيث يقول:

«إنّني حوالي سنة ١٣٢٣ حاولتُ أن أقرأ القرآن قراءة تدبّر وفهم كما أمر به مُوحيه سبحانه وتعالى، فأعوزني أنْ أجدَ من التفاسير ما يبلّغني أمنيتي من أقرب الطرق وأسهلها، فإنّ المطولات لا يتّسع لتلاوتها وقتُ أمثالي من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم، والمختصرات قُصد بها حلول المسائل الفنية من التفسير، وكان مرادي تفسيراً يعطي الألفاظ العربية حقها من البيان، ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل

الفنية[١] مع بيان أسباب نزول الآيات ليتجلّى للقارئ المعنى بكل جلاله، فأخذتُ أضع تفسيراً لنفسي، وشرعتُ أكتبه على هامش مُصحفٍ، لأتخذه عمدة في تلاوتي للقرآن الكريم، وقبل أن أتمّه أدركتُ أنَّ هذا العمل طُلبةُ كلّ تالٍ للقرآن العظيم، فرأيتُ أنْ أتمَّ ذلك التفسير وأطبعه، ليعمَّ انتشاره ففعلت، وهو هذا الكتاب الذي أقدمه للقراء، راجياً أن أكون بهذا العمل سبباً في نشر معاني كتاب الله بين ناسٍ، لم يكونوا ليبلغوها في حياتهم، إما لأنّ أعمالهم لا تمكّنهم من الاطلاع على التفاسير، وإما لأنّ مادتهم العلمية لا تسمح لهم بإدراك أغراض المؤلفين السابقين.

ثم رأيت تتميماً للفائدة أن أجعله على شكل المصاحف العادية، فاستكتبته باليد، وطبعتهُ بالحجر على ورق نباتي[٢]، وجعلتُ تفسير كل صحيفة في ذيلها ليسهل الرجوع إلى معنى أي لفظ أو أية آية في حالة التلاوة، والحمد لله أولاً وآخراً.

غير أنَّ الاستقبال الحسن الذي استقبلت به الأمة هذا التفسير، حملنا على أن نزيده إتقاناً، فرأينا أن نكلّف أحد الحفّارين المشهورين بأخذ صورةٍ من أجمل المصاحف العثمانية خطّاً بالزنكوغراف، على ما في ذلك من بذل نفقات طائلة، وأن يُحيط كلّ صحيفةٍ بتفسيرها من جهاتها الثلاث، بحيث لايخرج تفسير كل صفحة عنها بقدر الإمكان[٣]، وقصدُنا

---

(١) يريد الاصطلاحات العلمية.

(٢) أي ورق أصفر، وكانت كتب العلم حينئذٍ تطبع على هذا الورق.

(٣) وهذا الذي ابتكره الأستاذ وجدي صار سنة لكتب التفسير التي طبعت من بعد=

من ذلك أن يكون حظّ هذا التفسير بالغاً الغاية من الجودة، وأن يجيء طبعه نظيفاً إلى أقصى حد تبلغهُ صناعة الطبع، ولم نجد في كلٍّ ما بذلناه من النفقات، وما تكبّدناه من المتاعب في إبراز هذا العمل على هذه الصورة ما يحملنا على الزهو بجهدنا، لأنّ كلَّ جهدٍ يُبذلُ في خدمة الذكر الحكيم، ويتفق لمصلحة الأمة، يجب أن يعتبر قليلاً في جنب الواجبات الكثيرة التي تتحتّم على كلِّ فردٍ حيال هذا الدين».

وبعد حديث يدور هذا المدار، اتجه الأستاذ إلى إيضاح خطته في التفسير فقال:

«وهنا يجب عليّ أن أذكر أني استخلصتُ هذا التفسير من الآراء المُجمع عليها لدى أئمة التفسير، وأقطاب أهل السنة، فلم أخرج به عن سننهم قيد شعرة ليوافق مذهباً من المذاهب، أو يؤيد رأياً من الآراء الفردية، ولو اضطرّني الكلامُ على أنْ أبين رأياً لي، أو لأحدٍ من غير أهل السنة، نبّهتُ إليه، وعزوتهُ إلى قائله، حتى يكونَ القارئ على بينة.

وقد راعيتُ في تفسيري هذا أن أُعنى باللغة عنايةً لم يُعْنَ بها مفسّرٌ من السابقين[1] فإنهم فيما يظهر لغزارة مادتهم اللغوية، لم يلمُّوا من لغة القرآن إلا بالغريب الذي يعلو عن تناول الخاصة، ولكني رأيت أنّ الكتاب

= كالجلالين والبيضاوي وما ألّفه المحدثون من بعده، ومن سنّ سنّةً حسنةً فله أجرها.

(١) يريد ممن قرأ تفاسيرهم.

الكريم قد جمعَ أوجه كلماتٍ في اللغة العربية، وعقائل من مفرداتها، ونحن أحوجُ ما نكونُ إلى التقوي فيها، لنحفظ وجودها من عبث العجمة، فشرحنا المفردات شرحاً وافياً، ودلّلنا على أصولها، وأتينا بمشتقاتها، والتزمنا أن نشرحَ اللفظ حيث وجدناه، ولو صادفنا في كلّ صفحة من صفحات المصحف، وهذا أيضاً ما لم يعمله مفسرٌ من السابقين، فإنّه إذا أتى على شرح اللفظ في سورة من السور، ثم صادفه في سورة أخرى، أهمله في الشرح اعتماداً على سبق الكلام فيه».

وكلّ ما ذكره الأستاذ في هذه المقدمة قد جاء على وجهه الصحيح، فلم يكن مدّعياً أدنى ادعاء، وإن كان الأستاذ الدكتور محمد طه الحاجري[1] يرى أنه لم يلتزم بما خطّه التزاماً دقيقاً، فأفرط في جانبٍ، وقصّر في جانب آخر، ولكنه في الغالب قد وقف عند حدود ما التزمه، فجاء مؤدياً للغرض الذي أراده أداءً كافياً من ناحية العناية بتفسير المعاني تفسيراً يجمع إلى الدقة والقصد القربَ واليُسر، دون أن يعرض لرأي خاص، إلا أن يضطره الكلام إلى ذلك، وقد وقع منه في هذا مواضع قليلة، نبّه إليها الأستاذ الحاجري، واختار منها[2] هذه النصوص:

١ ـ من ذلك ما ذكره في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، فقد علّق عليها

---

(١) محمد فريد وجدي للدكتور الحاجري، ص٩٢.
(٢) المرجع السابق نفسه.

بقوله: «ربما يكبر على التالي للقرآن، أن يعتقد أنَّ الملائكة يجادلون الله، والحقيقة أنَّ هذا تمثيلٌ لحال الملائكة، عندما علمُوا في حالهم الروحاني أنَّ كائناً سيظهر على الأرض يكون من أمره مايكون من الفساد، فجاشت في صدورهم هذه الاعتراضات، وألهمهم الله الرد عليها على نحو ما نراه، وهذا تأويلٌ واجب، لأنّ الله لا يُرى ولا للملأ الأعلى».

٢ ـ من ذلك ما علق به على تفسير آية النسخ ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، إذ يقول: «إن النسخ ضروري في الأحكام بسبب تطوّر الأمم أو ترقيها أو تدليها، وبما أنَّ الإسلام دينٌ عملي، فلا مناصَ له من مسايرة المجتمع الإنساني في تقلباته، حتى يبلغَ به كماله، أليس هذا أولى من بقاء الأحكام على حالة واحدة، فيضطر الآخذون بالدين إلى تركها، واللجوء إلى تشريع أجنبي»!

وكذلك ما علق به على تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فقد قال: إنّ إشارة الكتاب إلى معجزة إبراهيم هذه تشير إلى أنّ في الإنسان قوّى إلـٰهية في إمكانها ـ بتوفيق الله ـ أن تبعث الحياة في الجمادات، وقد دلّت الأبحاثُ في المغناطيس الحيواني في هذا العصر، على ما يجعل هذه المعجزة معقولة علمياً».

هذه نماذج ثلاثة اختارها الدكتور الحاجري، ولها نظائر لم أشأ أن أتعقبها، لأنَّ المجال مجال استشهادٍ لا مجال استقصاء!

وكان المنتظر من قارئي هذا التفسير أن يعرفوا رسالته، وأن يقدّروا وجهة كاتبه، ولكنّ بعض الأشياخ قد وصفوه بالقصور، ورأوا أنَّ المؤلف أعجز من أن يستوعبَ ما في بطون الأمهات، ولعمري هذا هو اللغو بعينه، لأنّ معنى ذلك أنَّ مثل هذا الذي كتب في الإسلام والمدنية وفي المرأة المسلمة وفي حقائق الإسلام وشبهات خصومه مما يعجزون أن يكتبوا مثله لا يستطيعُ أن يقرأ كلاماً عربياً ويلخّصه كما يفعل طلاب المدارس!!

وغفر الله لشيخنا التقي الورع محمد الجهني رحمه الله حين شنَّ على الأستاذ وجدي حملةً في كتابه (العمل المبرور في ردع أهل الغرور) لا لشيء إلا لأنه يشرح قضايا العلم الحديث، ويحاول تفسيرها في ضوء ما يُعرّفُ من حقائق الإسلام! والجهني مخلصٌ غيور، ولكن أفقه العلميّ لا يتسع لقراءة ما يسطره الكاتب الكبير، فمضى يرميه بما لم يكن منه، ولعلّ الذين يصفون تفسيره بالقصور، يعرفون أنّ الرجل قد فسَّر بعض الآيات بإسهابٍ حين اقتضى الحال تفسيرها في (دائرة المعارف) فأتى بما يشرحُ الصدور تعمقاً واستقصاءً.

ومعي الجزء الأول من (الدائرة) الآن أطالعُ صفحاته وقد بلغتْ ثمانمئة من الصفحات، فأجد قبساتٍ من نور الذكر الحكيم تشعّ بنور في

سطوره، ومن ذلك ما جاء عن بني إسرائيل تفسيراً لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٥٤]، إذ ذكر قولَ المفسّرين: إنَّ معنى قوله تعالى[1]: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أنّ موسى أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، فشهروا سيوفهم وخناجرهم، ونزلت عليهم ظلمة من السماء، فأخذ بعضهم يقتل بعضاً، فأحصوا القتلى فبلغوا سبعين ألفاً، ثم تاب الله عليهم. يذكر ذلك: ثم يقول تعقيباً عليه: «إذا كانت رقة الشعور والندم على الذنب قد بلغت بهم أن يقبلوا اقتراح موسى في قتل بعضهم بعضاً، ألا يكفي هذا في توبتهم، والتوبة ندم.

ولنا في هذه الآية رأي نبديه، وهو أنّه لا يعقل أن يكونَ جميع بني إسرائيل قد عبدوا العجل، فلا بد أن يكون منهم من بقي على إيمانه، فلما جاء موسى ووجد قومه شطرين، أمر مؤمنيهم أن يقاتلوا كافريهم حين أبوا الرجوع إلى الإيمان، فحدثت بينهم موقعةٌ مات بها خلق كثير، فذلك معنى قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي فليقاتل بعضكم بعضاً، حتى تجتثَّ جرثومةُ الكفر، ذلك خير لكم.

ويصحُّ أن يكونَ معنى قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي اقتلوها قتلاً

---

(١) دائرة المعارف: ١/ ٢٩١.

معنوياً بإماتة رعونتها، وكسر شرتها، فإنّ النفسَ أمّارةٌ بالسوء، وخيرُ الناس من قتلها رياضةً، وأماتها ورعاً ونزاهةً.

والرأي الأول أرتاحُ إليه، وليس معنى ذلك أني لا أخالفُ الأستاذ في بعض آرائه، ففي موقف آخر تعرّض إلى (ذي القرنين) فكتب بحثاً مركّزاً يجمع ما قاله الغربيون وأبرز المفسرين من العلماء، ونقل أقوالاً عن علي بن أبي طالب ووهب بن منبه والبيضاوي والرازي والنيسابوري مما يدل على أنه غير الإسكندر المقدوني، ثم رأى أن يخالفهم فقال[1] ما ملخّصه:

«أما نحن فنقول: إن ذا القرنين المذكور في القرآن هو الإسكندر، ولكن كيف يتفقُ ذلك مع ما نعلمه من أنَّ الإسكندر في آخر أيامه قد دعا إلى عبادتـه والسجود أمامه، بل مع ما ثبت من أنـه كان يعبد كل إلـٰهٍ يصادفه، ويقرّب له القرابين والضحايا، وليس في وسع أحد أن يَفْتَئِتَ على التاريخ، فيزعم أنَّ الإسكندر كان منزّهاً عما يكونَ به من الصفات، أو أنه ليس الإسكندر المذكور في التاريخ، والقرآن لم يذكر أنه كان نبيّاً أرسل لهداية الناس، وغاية ما ذكره أنّ الله مكّن له في الأرض! ثم أسهبَ في موضع آخر غير هذا الموضع مادة (قرن) في تفسير الآيات الكريمة، على نحوٍ يقضي بأنّه الإسكندر وهو رجلٌ ذو حسنات وسيئات ولا يمنع أن يكونَ هو المقصود» ذكرت ذلك لأبيّن أنَّ قراءة النصوص التي جاء بها

---

(١) دائرة المعارف: ١/ ٣٢٤.

المفسرون لم تكن لتُعجزَ الرجلَ كما توهّم من يرجمون بالباطل دون تحقيق. فها هو ذا في مادة (قرن) يستوعب ويدحض ويؤيد! وإن كنتُ مع هذا كله لا أميلُ إلى أنَّ (ذا القرنين) المذكور في سورة الكهف هو الإسكندر كما يتجه الأستاذ لأمور قوية ذكرتُها في كتابي (قضايا إسلامية)[1] وأهمها أن تاريخ الإسكندر الداميّ لم يكن معروفاً بفظائعه المنكرة لدى من قالوا: إنّه ذو القرنين من المفسرين، وقد ظهرت الكتبُ المترجَمةُ الآن تنقل عن معاصريه ما دوّنوه عنه من فظائع القتل والتدمير والتخريب، وإحراق المدن والبلاد، وتنكُّره لأخلص أصدقائه الذين شادوا ملكه، فيأمر بقتلهم في ساعة سكره! ومثل هذا لن يكون الملك الذي قال الله على لسانه: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾[الكهف: ٨٧ ـ ٨٨]، هذا رأيي المخالف.

وفي تحقيق كلمة (التأويل) بالجزء الأول نفسه أفاض الأستاذ وجدي في المقصود من اللفظ، واستشهد بنصوص الطبري والنيسابوري، ليسرد ما وضّحناه من الأمور المتقابلة، و(دائرة المعارف) ليست كتاب تفسير، ولكنّ ما جاء فيه من شرح آيات الكتاب لمناسبات كثيرة، يدلُّ على تعمّق الأستاذ في الفهم الدقيق لكتب العلماء، ولو جمعنا ما كتبه في (الدائرة) بأجزائها العشرة خاصّاً بالتفسير لكان لنا جزء كبير، يدلُّ على أنّ ناقديه في هذا المجال لا يعرفون من هو على وجهه الصحيح.

---

(١) قضايا إسلامية للدكتور محمد رجب البيومي: ١/ ١٩٠ وما بعدها.

ونحن نرى اليوم الكبار من أعيان التفسير المعاصر يقدّمون بين يدي مؤلّفهم الكبير، كتاباً مستقلاً يتحدّث عن القرآن جمعاً وترتيباً وقراءةً ونسخاً، وكل ما يتعلق بعلوم القرآن نجد ذلك في تفسير (جمال الدين القاسمي) و(الطاهر بن عاشور) و(أحمد مصطفى المراغي) وغيرهم ممن أجادوا بما فتح الله عليهم به من التأويل.

وقد كان (فريد وجدي) سابقاً لهؤلاء جميعاً، ومن حذا حذوهم، حين كتب مؤلفه (صفوة الفرقان) ليكون مقدمة شافيةً لشرح الكتاب المبين، وقد استشعر ضرورةَ هذه المقدمة الوافية حين تحدّث عنها في خاتمة المصحف المفسَّر، فقال:

«وإذا أدرك القارئ[1] هذا الغرض بقيت في نفسه حاجةٌ ملحة إلى تفهم مرامي القرآن البعيدة، وحكمته البالغة، وأصوله القويمة، ومبادئه الحقة في تقويم الإنسانية، وكبح جماح الحيوانية... فرأيتُ أنّ من تمام هذا العمل الذي انتدبنا إليه أن نضع كتاباً خاصاً في هذا الموضوع، يُعنى عنايةً خاصة، فنذكر الأصول الجليلة التي غيّرت مجرى العلوم والأفكار، وبدّلت الأرض غير الأرض، والأمم غير الأمم، وجعلت من تلك الشرذمة في سنين قليلة أمة أقامت أمر الله في الأرض، وأرغمت معاطس الجبابرة من القياصرة والأكاسرة، وخلّصت الشعوب من آصارٍ كانت عليها

---

(١) قارئ المصحف المفسر.

كالجبال حملاً، نعني بذلك أن ندرس تلك الأصول على الطريقة العلمية، وأسلوبها الطبيعي».

هذا ما وعد به الكاتب في خاتمة التفسير، وحين نشر هذا الكتاب بعد ثلاثة أعوام، نجده ذا بحثين مفترقين:

أما البحثُ الأول، فيدورُ حول ما أشار إليه في خاتمة التفسير، إذ تحدث عن أثر القرآن في ارتقاء النفس البشرية بما ظلّ يتحدث عنه طول حياته، ولا أعني أنّه يكرّر ما يقول، بل أعني أنّ رسالة الإسلام قد تغلغلت في أعماقه، وملكت أجوازَ تفكيره، فهو دائم البحث في أهدافها ونتائجها، وكلُّ بحثٍ تالٍ يصل به إلى جديد يضطر إلى الحديث عنه متصلاً بما كتب من قبل.

وأما البحث الثاني، فخاص بتاريخ القرآن جمعاً وقراءةً وتدويناً ونزولاً، ويقول[1] الدكتور الحاجري بصدده: إنّه لم يأتِ بجديد فيما قال، ولم يكد يزيدُ عما في كتاب (الإتقان) للسيوطي! وهذا حقٌّ، ولكنّه لا ينقصُ من مزيّة الكتاب، إذ ما عسى أن يقولَ المتحدّث عن تاريخ القرآن نزولاً وجمعاً وقراءةً وتدويناً غير الواقع الذي سجّله الأقدمون!.

هذا بعضُ ما أقولهُ عن (المصحف المفسّر) وعن مقدمة المصحف المفسر التي سمّاها الأستاذ (صفوة العرفان) ولا أترك القلمَ حتى أقررَ أنّ

---

(١) محمد فريد وجدي للحاجري، ص٩٠.

العناية قد أسعدت هذا التفسير، فطبع عشرات الطبعات، وقامت (دار الشعب) في الستينيّات بطبعه في أجزاء متوالية عدة مرات حتى بلغ المطبوع منه ما يقربُ من مئة ألف نسخة! وقد حاكاه فضلاء من العلماء، فكتبوا التفسير الموجز، مثل الشيخ (حسنين محمد مخلوف) والشيخ (عبد الجليل عيسى) و(ابن الخطيب) وغيرهم، ولكلٍّ جزاؤه وفضله، وإن كان الأستاذ بالنسبة إليهم متبوعاً غير تابع، وسابقاً غير لاحق.

* * *

مهمة الإسلام في العالم[1]

حين تولى الأستاذ وجدي رئاسة تحرير (مجلة الأزهر) جعل يكتب في مبدأ أمره افتتاحيات دينية في مسائل شتى لا تجمعها رابطة غير تجلية بعض الأمور الدينية والاجتماعية المعاصرة، ثم رأى من واجبه أن يكتب فصولاً متسقة تحت عنوان واحدٍ يكونُ نظاماً لعقدها المتناسق، ولعلّ أهم موضوع شغل باله، هو رسالة الإسلام في الحياة، وكيف جاء هذا الدين الخالد لينقذ الناس من الظلمات إلى النور، وقد سبق أن جال جولات كثيرة في هذا النطاق. وأفرد كتباً خاصة به مثل كتاب (الإسلام دين عام خالد) ولكنّه رأى أن انتشار (مجلة الأزهر) بعد اقتعاده فيها مقعد الرئاسة قد ارتفع إلى ثلاثة عشر ألفاً من الأعداد، وأنه مطالبٌ أمام هذه النفوس المتعطشة لكلماته الصائبة أن يُبدعَ كتاباً خاصاً برسالة الإسلام، يجمع في نطاقه ما يمكن أن يُقال عن هذه الرسالة الخالدة، وإذا كان قد

---

(١) أصدرته الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بمجمع البحوث الإسلامية بتقديم وجمع ومراجعة الدكتور محمد رجب البيومي في (٣٢٠) صفحة، سنة ١٩٨٩م.

سبق ببعض هذه الفصول في مقالاته على مدًى متطاول، فقد آن أن يركز رأيه الجوهري في رسالة الإسلام في فصول جديدة، وإذا متّتْ إلى فصوله القديمة ببعض الأفكار التي يجب أن تتماثل وتتشابه فإنّها في موضوعها الدقيق (مهمة الإسلام في العالم) أحرى أن تكون عملاً مستقلاً، يقرأه المطالع، فيجد الوصف الحيّ لرسالة الإسلام.

وقد انتقل الرجل إلى رحمة الله دون أن يجمع هذه الفصول في جزء خاص! ولما كنتُ أعلمُ ما تضمّه من النفائس الثمينة، التي يجبُ أن تكون مستقلة في كتاب خاص، لا أن توزّع على أعداد بلغت ستة وعشرين عدداً، فقد سعيتُ إلى أمانة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر طالباً أن تجمع هذه البحوث في كتاب خاص، وموضّحاً مدى رسالتها الحيّة في تقديم فكرة حقيقيّة عن الإسلام، وقد لمستُ استجابةً سريعةً لما قدمتهُ من اقتراح، فعُهد إليَّ بجمع هذه الفصول، وتقديمها في بحثٍ شاف. وسرعان ما نهضتُ بهذا العمل، فحرصتْ أمانة المجمع على أن يظهر في أحسن رونق من الطبع والورق والتنسيق، وتداول القرّاء هذا الكتاب، وكأنّه أثرٌ جديد لمؤلّف لا يزالُ يردّد أنفاسه في الحياة.

وسأوضح في هذا المجال العناصر الجوهرية لهذا المؤلّف الممتاز، نقلاً عن المقدمة الطويلة التي افتتحتُ بها هذا الكتاب، ولا أزالُ أذكرُ بالتقدير فضل أخي الأستاذ الدكتور (عبد الودود شلبي) أمين الدعوة بالمجمع، الذي حرص على إظهار هذا الكتاب في أحسن مظهر، والذي سارع بتقدمةٍ موجزة تبيُّن اتجاه المؤلف الكبير، ولعلّ القارئ قد

تشوّق إلى عرض سريع يفي بالمضمون الجوهري لكتاب نادر عزيز، وهو مضمونٌ يُغني عن كثير جداً مما قيل في هذا المجال.

بدأ الأستاذ مقالته الأولى بتمهيدٍ واعٍ ذكر فيه أنّ الإنسانية تتدرّج نحو الكمال بخطًى ثابتة، وأنَّ الجماعات البَشرية وإن تناحرت وتحاربت فهي مسخّرة بقوًى تمخضها مخضاً، لتستخرج منها خلاصة ما أودعته فطرتها من الخصائص الكريمة، وقد تزولُ أممٌ في هذه الحروب حتى ليظنَّ الناسُ أنَّ العالم الإنساني مدفوعٌ للدمار المحقق، ولكن أجزاءه حينئذ تتفاعل كما تتفاعل المواد الكيماوية لتُخرجَ مركّباً جديداً، يجمعُ كل المزايا المتفرقة، ليؤدي عملاً جديداً يكونُ خطوةً تاليةً في طريق التقدم والازدهار.

وفي إيضاح هذه القضية تعرّض الكاتبُ لتاريخ الإنسانية حين عاشتْ آماداً طويلة متناحرةً متفرقة، حتى رأت أن تعمل على التقارب والمسالمة لتبادل الثمرات، وتبادل المنافع، فرأتْ أممُ البشر أن تقيمَ علائق التكافل الاجتماعي ليكمِّلَ بعضُها نقص بعضها الآخر، فنشأت التجارة العالمية، وتمهدّتْ وسائل الاتصال بإقامة السفارات، وتهيئة التراسل، وتداول البعثات، لتتلاقى الوجوه على خير، وتحلم بعهد زاهر يقوي الأواصر، ويلغي المسافات.

وقد شاء الله أن يتمّ ذلك كله قريباً أو بعيداً حين بُعث محمد ﷺ برسالة الإسلام، لينفتح به عهد سلامٍ شاملٍ، لم تكن لتتخيله عن طريق

الدين، لأنّ كلَّ أمةٍ أَلِفتْ أن تتحجّر على معتقداتها، وأن ترى غير من لا يؤمنون بهذه المعتقدات أعداء ألدّاء، تجبُ مقاومتهم بأقصى درجات العنف، فجاء الإسلام ليقرّب بين هؤلاء المتناحرين، فيعلن أنه في أصوله الاجتماعية ليس بدينٍ جديد، ولكنه الدين الأول الذي أوحاه الله إلى نوح والنبيين من بعده، فإذا رأى الناس أدياناً تختلف أصولها فذلك من تحريف أتباعها، لما نزل من دين الله، وقد كان الإسلام خاتمة الأديان، ليقوم الناس منه على أصل جامع يشمل أدوات الكمال الإنساني، إذ هتف القرآن الكريم، بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٣ ـ ١٥].

ولكن كيف جمع الإسلامُ الناس كافة على مبدأٍ واحد، سؤالٌ يبسطه الأستاذ فريد وجدي، ويمهد للإجابة عنه بوصفٍ موجز لحالة العالم قبل الإسلام، إذ كان الأفق العالمي مكفهرّاً بسُحُبِ الاضطرابات الوحشية في كل مكان، وكان أجمعُ الرؤساء للثقة والطاعة أشدَّهم

صيحةً في نيران الحروب والمعارك، ولم يكن يأخذ بالعواطف إلا شيء واحد هو المغنم المادي، فيندفع القويّ للفتك بالضعيف، معتقداً أنه أرقى منه عنصراً، وأوفى عقلاً، وأهلاً للرئاسة والتحكم والاستعلاء، وفي هذا العهد المشحون بالفواجع أوحى الله لرسوله الكريم ﷺ أن يرفع علم الأُلفة العالمية، وأن يضع للناس أساسَها تحت نور الوحي، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإعلانُ هذا الأصل في عالمٍ كلُّ ما فيه يدعو إلى الفرقة، ولا يطمعُ في الوحدة، يؤكّد أنه صادر من رب العالمين، لأنّ عقل الحكيم مهما حلّق في جوّ المبادئ الصالحة، لا يستطيع أن يعدو طوره، فيفكّر في أصل عالميّ كهذا الأصل، إذ بدأ الله بنداء الناس كافة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهو من لُبّ البلاغات الحكيمة في الإقناع، إذ ذكّرهم بأصلهم الأول الذي صدروا عنه، فهم وإن اختلفوا بيئةً ولوناً ومعيشة أولادُ آدم وحواء، وهذا تذكيرٌ يتخطّى كلّ ما أقامه الناس من الحوائل، وما أوجدته العادات والتقاليد من عوائق.

فإذا استعد السمع لفهم ذلك، تلاه الغرض من التذكير، وهو أنَّ الله جعل الناس شعوباً وقبائل ليعرفَ بعضهم بعضاً، وليقوموا على سنة من التآلف والتوادّ، ليكون ذلك ماحياً للتناكر والعداء، اللذين جعلا العالم ساحة حربٍ لا يقر فيها السيف، ولا يهتف فيها العقل بالرشاد، ولم ذلك والعالم كله من أصلٍ واحد؟ هنا تشعر النفس بسرّ ذلك الأصل

دون أن تتردد في قبوله، لولا ما يثور بها من نوازع التعصب، وجنوح كلٍّ جماعة إلى الزعامة، محتجةً بشرف الجنس، ونقاء الدم، ولكنّ الإسلام يضع للشرف ميزاناً آخر، إذ تُعقّب الآية على ما تقدم، يقول الله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أي أخوفكم وأعملكم بما أمر من العدل والإنصاف والمساواة والوفاء بالعهد.

بهذا الأصل السامي أصيبت العصبية في مقتلها، وجُدع أنفُ الجنسية من منبته، وسقطت جميعُ ضروبِ الخلافات الاجتماعية إلى الحضيض، الذي هي أولى به، فلم يبق ما يمنعُ أن يعيش الناس إخواناً متعاطفين غير أن تجدّ مبادئ أخرى للأفضلية، بها يشرفُ المرء على المرء، وتعلو الأمة على الأمة، هذه المبادئ التي سجّلها الله تعالى في قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فإذا أراد إنسانٌ أن يتسامى في الحياة ففي طاعة الله، حين يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير، وكذلك إذا رغبت أمةٌ في هذا العلوّ المحمود، وكلّ وسائله مما يُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل ليعيش الكونُ في سلام.

وليس إصدارُ الحكم بالمساواة بين البشر كافياً لإنقاذ البشرية من التناحر، بل لابد من العمل على تنفيذ الحكم عملياً، وكم رأينا من قوانين ممتازة جاء بها المفكّرون، ولكنّ بُعْدها عن التنفيذ قد أضاع قيمتها

الحقيقية، وقد سعدت الحقبة الأولى في صدر الإسلام بالتنفيذ المباشر، إذ كان المسلمون كأسنان المشط، لا فرق بين عبدٍ وحرّ، وعربي وأعجمي، وبهذه المساواة ساد الناس شعورٌ بالأخوة، فأصبح العربي أخ العربي، لا يسألُ أخاه من أيّ القبائل أنت؟ ومن شذّ في لحظةٍ فافتخر بنسب، وجد المعارضة اللائمة، فاعتذر عن شذوذه سريعاً، وتاب إلى الله مما أجرمَ متذكّراً قول رسول الله ﷺ: «لقد أذهبَ الله عنكم رجسَ الجاهلية، وتفاخرها بالأنساب، ليس لعربي على أعجمي فضلٌ إلا بالتقوى».

وبهذه الروح النبيلة صار قادة العلم في الإسلام من الموالي، وامتدت رقعة الإسلام إلى القارات الثلاث في أقلّ من قرن، لأن الذين دخلوا في الإسلام من أهل أفريقية وآسية وأوروبة لم يستشعروا في الفاتحين غير المساواة العادلة، والمعاملة الرحيمة، فقد نظروا فوجدوا أنفسهم إخواناً لمن انتصروا عليهم في ميدان الحرب، فرجعوا بدينهم، وانضووا تحت لوائه طائعين غير مكرهين.

ونحن نرى أن أكبر ما يصدّ الناس عن الانضواء التام تحت قانون واحد، هو ما انتشر بين الدول من التيارات القومية، وترجيحها على العالمية، حيث ذهبت كلُّ دولة ذاتُ شكيمة حربية إلى الاعتزاز بموطنها، والمباهاة بالقومية المتعالية، ناظرةً إلى غيرها نظرة المترفعَ المتعالي، فأخذت البغضاء تمتد في الصدور، متجهة إلى إشعال جذوات الحرب، وحلَّ الدمار بعشراتِ المدائن، والهلاكُ بملايين الأرواح.

ولو تشبّع الناس جميعاً بروح المساواة، التي دعا إليها الإسلام، لانطفأتْ نيران المطامع، وساد السلام.

وقد يكون الأمل في ذلك بعيداً غير قريب، ولكنّه غير مستحيل، إذ تحقّق عملياً في مفتتح صدر الإسلام.

ويتساءل الأستاذ (محمد فريد وجدي) عن مقوِّمات الإسلام الأساسية التي تُوجب انتشاره، فيجدها تشمل أرقى المبادئ الإنسانية التي تنهض بالعالم إلى ذِرْوة الاستقرار الهادئ، وتجنّبه زعازع القلق والاضطراب، ومن هذه المبادئ حسن التعامل مع غير المسلمين، ورعاية حقوقهم التامة دون تحيّف، والعطف عليهم بالبر والإحسان، إذ يقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وهذا أصلٌ خلقي لم تعهده البشرية قبل الإسلام، إذ كان أهلُ كل دين يعتبرون الخارج عنه عدواً مهدور الدم، ولكن الإسلام ضمن الحماية للأجانب، فأخذوا يتنقلون في ربوعه آمنين.

وفي مجال الدعوة للإسلام، نجده يفترق عن غيره في سلوكه الإعلامي، لأن الدعاة في الأديان الأخرى يصحبون الجيوش الفاتحة ليقهروا الناسَ على الدخول في دينهم، فإن أبوا فالقتل والاستئصال.

ولكنّ الإسلام تنزّه عن هذا العدوان، وهو لا يدعو أحداً إلى اعتناقه إلا بالحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن، فأين ذلك

مما نشاهده الآن لدى بعض المتعصّبين من دعاة الأديان، حين يُبيحون اختطاف القاصرين، وإغراء المرضى والمحتاجين، وتهديد الضعفاء ليدخلوا في دينهم دون اقتناع؟.

وكم أنفقوا من الأموال الطائلة ليجبروا الناس على انتهاج سبيلهم بغير طواعية؟ فصدق عليهم قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ومن أصول الإسلام ما كشفه لأنصار ملّته من أنّ اختلاف الناس شيءٌ طبيعي، فلا يجب إجبارهم على مذهب واحد ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، فهذا الأصل يفسحُ الصدر للمخالفة، ويعدّها شيئاً طبيعياً، لا شذوذ فيه، إذ لا بدّ أن يُوجدَ في الناس من يُعانِدُ الحقَّ مهما سطع الدليل، فأنزل الله قوله ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٩ ـ ١٠٠].

وبهذه النصوص الكريمة حاط الإسلام الدعوة حتى لا تتقمص غيرةُ الدعاة روحاً من الإكراه والمخاشنة، تلجئهم إلى الإرهاب والقهر، وقد تحقق هذا عملياً، لأنَّ دعاة الإسلام يرون في التزام النص القرآني

فريضةً لامحيدَ عنها، حتى في مواطن الحرب، التي تندفع فيها العواطف إلى مدى متأزّم، إذ أوجب الله على المسلمين ألا يُجْهِزوا على جريح، وألا يقاتلوا مستسلماً، وألا يتبعوا من يحيطون بجيش العدوّ من الخدم، ونهى عن قتل المرضى والزمنى، فأين ذلك كله مما نراه الآن من إرسال القذائف المدمّرة على الآمنين في ديارهم، فتحصدُ مئات الأرواح من المسالمين، الذين لم ينهضوا إلى ساحة القتال؟ أين ذلك من هول الغازات السامة، وغيرها مما تقشعرُّ له الأبدان؟.

وقد استجاب المسلمون في عهود الفتح إلى كلّ ما أمر به الإسلام من أصول، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وبلغت الأمة الإسلامية في أقل من قرنٍ ما لم تبلغه الدولة الرومانية في ثمانية قرون، لأن العمل في الإسلام قد تجرّد لله وحده، فكان كل مسلم يعتقد أن الله رقيبٌ عليه فيما يأخذ، وفيما يدع، وأنَّ المصلحة الشخصية لابدّ أن تقف خلف المصلحة العامة، دون أن تعارضها.

وهذا الأصل كان أفعل في نفوس المسلمين، وتكميل غاياتهم من جميع كتب الأخلاق، لأن الإسلام قد اعتبر كل عملٍ لا يُقصد به وجهَ الله عزَّ وجلّ، مردوداً على صاحبه، وقد قال ﷺ: «إذا التقى الصفان نزلتِ الملائكة تكتبُ الخلقَ على مراتبهم، فلانٌ يقاتل للدنيا، فلانٌ يقاتل حميّة، فلانٌ يقاتل عصبيّة، ألا فلا تقولوا فلانٌ قُتل في سبيل الله! فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل ربه».

وإنّ الأمة التي تجرّدُ عملها لوجه الله يسهلُ عليها أن تجري على السّمت الذي يرسمه الله لها من الصدق والأمانة، والعطف والرحمة والإنصاف، وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، ومجانبة الآثام الظاهرة والباطنة، فإن كانت مدنيةٌ تنعم في بحبوحتها الإنسانية كلها فهي هذه، وكلّ ما عداها صورٌ لمدنية زائفة، تقترب بالإنسان إلى مدى الحيوان، والعالم اليوم مهدّد بالأزمات الاقتصادية، ولن يكونَ ذلك بغير الرجوع إلى هذه الأصول الخلقيّة التي تعرف لكلِّ إنسانٍ مكانه.

ولكن كيف يرجعُ الإنسان عن بواعث الغيّ إلى حدود الاعتدال؛ ونحن نشاهدُ الآلاف من البغاة يتهوّرون، ثم لا يرتدعون؟.

يقول الأستاذ محمد فريد وجدي في الجواب عن ذلك: إن العمل على طهارة القلب ونقاء العاطفة، مما يمهد للسلوك الإنساني الصحيح، إذ إنّ لكلِّ إنسانٍ عقلاً مُدْركاً، وقلباً عاطفاً؟.

فمُقوّماتُ العقل هي صدقُ النظر، وقوةُ الإدراك، **ومقوّمات القلب** هي رهافة الشعور، ونبل العاطفة، ولا بدَّ منهما معاً ليصبحَ الإنسانُ ذا مستوًى خلقيّ لائق.

وقد شُوهد في تجربات الحياة وأحوال الأمم السابقة والمعاصرة أنّ العقل قد استوفى حقه من الرقي، فبلغ بالعلم مبلغاً رائعاً، ساعده على تسخير كل القوى لخدمة الإنسان، وطيّ الأبعاد المترامية، علواً وسفلاً، وشرقاً وغرباً للخضوع لرغبته، ولكنّ نصيب القلب لم يكتملْ بعدُ لدى

المجموعة البشرية، ليوازي نصيبَ العقل في تطوّره الواثب، وبهذا وُجد اختلالٌ واضحٌ في طريق التقدم البشري، إذ أصيبت الإنسانية بكوارث أليمة حين حققت تقدّماً علمياً اتُّخذ وسيلةً للدمار، ولو تحقق بإزائه تقدّم عاطفي لتوازت الكفّتان، فلا يندفع العقلُ لإحداث وسائل التدمير في غيبة القلب الحسّاس، والشعور الرقيق، وقد جاءَ الإسلامُ مُنادياً بوجوب العناية بتقدّم القلب والعقل معاً، دون أن ينفردَ أحدُهما بالنفوذ.

فالإسـلامُ في نصوصه الصريحـة، قد عُني بتربية العقل والقلب معاً، فكما منح العقل سـلطانه في التمييـز بين الحق والباطل، أعطى القلب سلطانه، ليقود الإنسان إلى العواطف النبيلة، ويفتح له كوّة إلى عالم الروح، كي يستمدّ من نفحاتها ما يقوى بها على الدواعي المؤذية، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة قَ: ٣٧]، ولم يقُلْ: لمن كان له عقل إيذاناً بسلطة القلب في الردع، وعدم كفاية العقل وحدَه في قيادة البشرية، فقد يُصادِفُ أنْ يعقلَ الإنسانُ ما تجرّه عليه المنكرات من أضرار، ومع ذلك يقارِفُ هذه المنكرات مع اعتقاده بأضرارها، لأنّه لم يُرزق القلب الرقيق، الذي يُشيحُ بعاطفته عن المنكرات، فلا يسمحُ لصاحبه بارتكابها، وكم رأينا من أناسٍ يقارفون الربا والخمر والزنا وغيرها من الموبقات، وهم يدركون بعقولهم كل الإدراك بلاياها المبيدة بالفرد والمجتمع، وهؤلاء قد فقدوا القلب الحسّاس، الذي يرتاع لهذه الموبقات، فيدفع صاحبه إلى البعد عنها.

وقد نبّه الإسلامُ إلى أنّ القلوب تضعفُ بالأمراض المعنوية عن أداء مهمتها الكريمة في حياة الإنسان فقال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]، وعلّل عدم الإذعان للحق بمرض القلب، وقد قال ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحتْ صَلَحَ الجسدُ كلّهُ، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كله ألا وهي القلب».

ثم دفع الإسلام بمهمة القلب إلى أقصى الغايات، فجعل النجاة في اليوم الآخر موقوفةً على سلامته من الآفات المعنوية، إذ يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩].

فإذا تركنا القلب إلى العقل فإننا نجدُ الإسلامَ قد حرص على استقلاله ونموّه الطبيعي، فأزاح الحدودَ عن طريق المعرفة الصحيحة، ورفع الحوائل المانعة دون النظر السليم، ففي الوقت الذي كان فيه رؤوساء الأديان يحرّمون على أتباعهم مطالعة العلوم النافعة، وارتياد الآفاق الفكرية الهادية، بعث الله محمداً ﷺ داعياً إلى الفكر الراشد، والنظر الصائب، مستعيناً بكل قواه على الإرشاد العاقل والرأي السديد، لتتنبه جميعُ القوى العقلية إلى وظائفها الصحيحة، ولتكتسب المناعة الطبيعية حيال ما يُلقى إليها من التعاليم المنافية للعقل.

وقد قرر علماءُ الإسلام أنّ إيمانَ المقلِّد غيرُ مقبول، لأنَّ التقليدَ كما يكونُ في الحق يكونُ في الباطل، والمرادُ من هذا أن يشعرَ كلُّ

مكلَّفٍ بـالتبعة الملقاة على عاتقه، فينساقَ إلى إعمالِ قواه العقلية في الاسـتدلال والاستنتاج حمايةً له من التحجر الأدبي الذي يسـهل على المغرضين إغراءه بما يشتهون.

دعا الإسلام العقلَ إلى النظر في الكائنات المحيطة، وفي النفس المستترة الباطنة، وفي الأولى سبرٌ لأغوار الكونِ، وكشفٌ عن أسراره، وفي الثانية دعوةٌ إلى تحليل النفس البشرية، والوقوف على دواعي علوّها وانحدارها، ومعرفة ما يسيّرها من الغرائز والأهواء، كما انتقل بالفعل إلى النظر في التاريخ العالمي منذ وعى الإنسانُ وجوده، ليعرف قارئ هذا التـاريخ علائم الرقيِّ الناهض، وبواعث الهبـوط المتخلّف، فقال عزَّ وجلّ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

فليت شعري! أيعقل في منطق الحصفاء أنَّ قوماً ينزّل عليهم هذا الوحي الكريم، داعياً إلى صدق النظر، وعمق الاطلاع، يجوزُ لهم أن يهملوا الانتفاع بعقلوهم وقلوبهم، أم أنَّ واجبهم الأقدس أن يطيعوا ما أُمِروا به من التفكير الصحيح، والسعي الجادّ وراءَ الحقائق، ليزيحوا عنها غبارَ الأباطيل؟.

إنّ الإسلام قد علّق ظهوره وامتداده على إجالة النظر، وإدامـة

التفكير، حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فَفُهِم مما سبق أنَّ الإنسانَ متوزّع بين العقل والقلب، ولن يستطيع أن يغامس الحياة على وجهها الصحيح بواحدٍ منها فحسب، لأنّ القلب يدفعُ به إلى السموّ النفسيّ، بعيداً عن جواذب المادّة، والعقل يضعه في مكانه الطبيعي بين الأحياء، ولو تُرِكَ الإنسانُ على طبيعته التي فطره الله عليها، لعاش سعيداً في ظلّ عقله وقلبه حين يؤدّيان رسالتهما في توافقٍ وانسجامٍ، ولكنّ البيئة التي يتأثّر بها في محيطه قد تدفعه إلى إيثار العقل وحدهُ، أو القلب وحده، فيفقد توازنه النفسيّ، ويرتكب شططاً، لا تنقطع أخطاره عنه.

لهذا جاء الإسلامُ داعياً إلى التوفيق بين مطالب الروح ومطالب العقل، لأنّه ليس بروحٍ مجردة حتى يمكنه أن يقاطعَ المادة، وليس بعقلٍ مجرّدٍ حتى يفقدَ أشواقه وآماله، وقد يكونُ الجمعُ بين هذين الطرفين محيّراً للفكر لدى من لا يعرفُ الحكمة التي بُني عليها الإسلام، لأنّ هذا الدين لم يقصر الرقي الروحي على أعمال العبادة، ولكنه عمّمه في جميع الأعمال الصورية والمعنوية، بل رفع الأعمال التي يتعدّى نفعها للمجتمع فوقَ الأعمال التي تقتصرُ فوائدُها على العامل وحده، فالذي يعمل لإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، وللتبحر في علمٍ يُستفادُ منه، يُعتبرُ في شريعة الإسلام مجاهداً في الله حقَّ جهادِه، ومتقرّباً إلى حضرته العلية بأفضل ضروب العبادة.

وإذنْ فقليلٌ على الإسلام أن نقول: إنه آخى بين مطالب الروح ومطالبِ العقل، بل الأجدر أن نقولَ: إنه وحّـدَ بينهما باعتبـار أنّهما مظهران للطيفة الربانيّة، التي أودعها الله صدر الإنسان، واستحقّ بها أن يُشرّفه بخلافته في الأرض، ليدعو إلى تأسيس دولة الحق.

والحق ـ كما يقول وجدي ـ هو وجهةُ الإسلام في كل تشريع، لأنّ الحق هو العدلُ الخالص، وقوامُ كلِّ خير في الأرض والسماء، والباطلُ هو الفاسـد الزائل، وعلّة كلِّ وهن واضطراب، والحق أصل أصيل، والباطل واغل دخيل، وقد أفاض الكاتب في تأييد ذلك بالأمثلة الشافية من كتاب الله، ووقف وقفة متأملةً عند قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فأشار الأستاذ إلى أن الله يشبّه الباطل بالزبد الذي يعلو على وجه الماء حين يتدفّق سيلهُ في الأودية، وبالزبد الذي يطفو على المعادن إذا صُهرت ليتخذَ منها الأواني والحليّ، وشبّه الحق بالماء الذي يروي الأرض والناس، وبالمعادن التي تبقى بعد نفي الكدورات عنها، ويقول: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ سُدًى لخلوّه من الفائدة.

وأما الماء والمعادن التي تستخلصُ من شوائبها، فتبقى في الأرض لينتفعَ الناس بها، فأيُّ عاقلٍ يعوِّل على الزبد الذي لا فائدة منه، ويترك المواد التي عليها المعول في الحياة؟

ولشدة عناية الإسلام بالحق سُمّي دين الحق، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣]، ووصف آياته وتعاليمه بالحق، فقال تعالى في وصف القرآن: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال جلّ ذكره: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٨].

والتزامُ الحقِّ في الإسلام هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه ربُّ العزة عباده، وامتنّ على رسوله ﷺ بأن هداه إلى الصراط المستقيم، وقد كان أهلُ الملل والنحل يدَّعون أنهم يسلكون الصراط الموصل للكمال.

وأقول: إن ذلك يكونُ صحيحاً لو لمْ ينحرفوا عن تعاليم الأنبياء، فتاهوا في طرائق غير مستقيمة، لذلك قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ونحن نعلمُ أنّ الدعوة إلى الصراط المستقيم دعوةٌ للرقي والكمال، لا دعوة للاستعباد والتسخير، لأنّ كلَّ حائدٍ عن الصراط المستقيم تتقاذفه السبل المعوجّة، فيقع في تيه الضلال، لذلك كان التمسُّك بصراط الله المستقيم، هدفاً أصيلاً للمسلم، يدعو الله من أجله في صلاته أن يهديه إليه، وأن يقيه صراط الذين غضبَ عليهم والضّالين.

وقد علم الله أنَّ الأممَ كالنفوس لا بدّ لها من النزاع والشجار، وأنّ

الحربَ سنةٌ طبيعية لا مناصَ من قيامها، وقد شُرعت في الإسلام للدفاع عن الحقّ وحده، ولنشر دعوة الحق، وكان التطبيق العملي لمبادئ الإسلام في الحرب مبعثَ فخرٍ لمن لمسوا عدالة المسلمين بعد انتصارهم في شتى مواقع الفتح الإسلامي، وقد كتب المحايدون من غير المسلمين تاريخ الحروب الأولى أيامَ الفتح فسجّلوا غرائبَ نادرة، تُصوِّرُ النزاهةَ والرحمةَ والعدل للمنتصرين.

وهنا قارن الأستاذ وجدي بين سُلوك المسلمين وغيرهم ممن انتصروا في الحروب، فتحدّثَ عن الدولة الرومانية، وكيف كان محاربوها يُغيرون على المدن الآمنة، فيجعلون عاليها سافلها، وكيف كانوا يجبرون الأمراء والملوك ممن انهزموا أمامهم على أن يجرّوا العربات كالخيول، حيث يجلسُ الإمبراطور ووزراؤه في المراكب مستمتعين بإذلال أعدائهم، وإنزالهم منازل الحيوان، هذا مع الأمراء والملوك، أما الرعايا فإذا نجوا من الأسر أو القتل، فأمامهم الضرائب الفادحة، والمصادرات الظالمة.

وقد كان (آتيلا) ملك الهون يفتخر بأنّه أباد المنازل بأحيائها، وأنّ العُشب الأخضر لا ينمو حيث يصلُ جوادُه! وكذلك كان ملك المغول (جنكيز خان).

ولكنّ الإسلام قد حرَّم على المنتصرين من أبنائه أن يسلكوا مسلك الطغاة، فقال عزَّ وجلّ لنبيّه الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال جلَّ ذكره: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا

﴿يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣].

والذين يدرسون تاريخ الأمم المنتصرة يعلمون أنَّ الانحلال قد دهمها لما ارتكبته من المظالم، ولو سلكتْ سبيل المصلحين لدام لها الفوز والانتصار، إذ لا يرثُ الأرضَ غير فريق عادلٍ صالح تطبيقاً لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [سورة صٓ: ٢٨].

ولقد قُدّر للأمة الإسلامية أن تنبسط في البلاد، وأن يمتدّ رواقها على شعوب كثيرة تختلف أصلاً ولغةً وعاداتٍ وديناً، وكان لهذه الشعوب نظمها وقوانينها، ولكنّها تركت هذه النظم إلى قوانين الإسلام باختيارها، ولا يُعقل أن يتمَّ ذلك إلا إذا كان القانون الإسلامي قد بلغَ أرقى ما يدركه العقل من معنى العدل، وما تطمحُ إليه النفس من نعمة المساواة، بحيث تستجيبُ له النفوس عن طواعية، حيث تجد فيه راحتها الشافية، فشهد العالمُ لأوّلِ مرّةٍ في تاريخه أمماً تتحوّل إلى طاعة قانون واحد، تلمسُ في موادّه راحتها البالغة، لأنّ الإسلامَ لم يجرّد الأممَ من طيباتها، ولكنّه استخدمَ هذه الطيبات في حمل أعباءِ الفكر، ومساندةِ بناء العلم، وقد شهد له أعداؤه بذلك، فلم ينكر عليه أحدٌ أنه أنقذَ الأمم المظلومة من جهالة مطبقة، وظلم طاغٍ.

وهنا تفد على ذهن الأستاذ محمد فريد وجدي مفتريات المتعصبين في أوروبة حين يزعمون أنَّ الإسلامَ قام على السيف، فيرّد بأنَّ هذا زعمٌ يكذّبهُ الواقع الملموس، ولأنَّ ما قام على السيوف يحتاجُ في حفظه إلى السيوف، ثم يؤوُل أمرهُ إلى الانهيار، ولكنَّ الإسلام قام على دعوة إصلاح عامة للناس كافةً، فأحدث انقلاباً عالمياً، نقل به الإنسانية من حالٍ متجمدة، إلى حالٍ تأدّت بها إلى أبعد غايات الرقي، ويقولُ الأستاذ في وضوح: لستُ أنكِرُ أنَّ السيف قد لعبَ دوراً في إحداث هذا الانقلاب، ولكنَّه لم يكن السبب الرئيسي فيه، وهذه سنّةُ كلّ انقلابٍ إصلاحيٍّ في الأرض، حتى بين أبناء الأمة الواحدة، فالأمةُ الإنكليزية لم تَصِلْ إلى ما وصلت إليه من التكامل الاجتماعي والدستوري؛ والأمة الفرنسية لم تستطع أن تعلن حقوق الإنسان بمجرد الدعوة الإنسانية إليها، بل كان السيفُ في الأمتين أداة الانتصار، والمسيحيّة قد حرّمت القتال، ولكنَّ الدعوة إلى المسيحية لم تنتصر إلا بالسيف، حين حارب أصحابها خُصومهم ليتمكنوا من تثبيتها، وقد جاء الإسلام بدعوته إلى الأمم عامةً، فلا بدّ أن يقاوم من يقف في وجهه دون أن يسبق الإسلام إلى الاعتداء.

ولنا أن نتساءل: في أي سبيل حارب الإسلام؟

والإجابة الصادقة تعلنُ أنَّ الإسلامَ قد جاهد في سبيل إنشاء مدنيّة عالمية فاضلة، وبعضُ الناسِ يظنون المدنية تنافي الدين، ولا تلتقي معه، فالمدنية عندهم هي التمتع بثمار الحضارة، وعجائب المخترعات

الصناعية، والزخارف الفنية، أما الدينُ ـ فيما يفهمونه ـ فهو الزهد في طيبات الحياة، والبعد عن أطايبها، ومكافحة الميول المدنيّة مكافحةً لا هوادةَ فيها، وإذن فالمدنيةُ والدينُ لا يلتقيان.

هذا ما وقر في بعض الأذهان! وفي سبيل تفنيده أفردَ الأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله صفحات رائعة خلاصتها أن المدنية التي نعدّها اليوم أزهى المدنيات هي المدنية الأوروبية، فهل ضمنتْ لأهلها راحة البال، وهناء النفس، أم اندفعتْ بهم إلى صراعات دامية، وحروب بعيدة، بحيث أصبحت في أمسّ الحاجة إلى تقويم؟! إنّ أصحاب هذه المدنية لا ينكرون نقائصها، ويُجاهرون بأنها في حاجة إلى إضافات جديدة لتحمي العالم من الانهيار، ويتطلّبون مثلاً أعلى يكون واقياً من الانحلال المبيد، فأين يوجد هذا المثل؟ إنه يوجد في الدين الذي يُعلّم الرحمةَ والإيثار، وبذل المال والنفس.

ويزيدون فيزعمون أنّ الدين يُحرّمُ النظر، ويصدّ العقل عن سبحاته، ويستشهدون بما كان يصنعه باباوات الكنيسة من كبتٍ للآراء، وتحريم النظر المستقلّ، وهذا عيبُ الدين لديهم! فليتهم يعلمون أنّ الإسلامَ بمنجاة مما يتخوّفون، وأنه لا سيطرة فيه لغير الله.

وقد قرر الإسلام أن النفس البشرية نفحةٌ إلهية، وكما فتح الإسلامُ باب الارتقاء الروحاني، فقد فتح باب الارتقاء المادي، فلم يُحرّم علماً نافعاً، ولم يضع للعلوم حدوداً، وقد استنهض الهمم للشؤون الصناعية،

والإبداعات الفنية، وأباح كلّ ما يسعد النفس، إلا ما كان عادِياً على الفضائل النفسية، مثيراً للقوى الشهوية، وعدّ الارتقاء في المجال العلمي فتحاً إلـهياً يُثاب عليـه الموفق لاكتشافه ثواب كلّ عاملٍ على الارتقاء الإنساني، وإذنْ فالإسلامُ لا يعادي المدنية، لأنّه في صميمه دين المدنية المثلى.

وقضية المدنية وصلتُها بالدين تحتاجُ إلى مزيد عناية، لأنّ أوروبة المعاصرة قد جعلتهما من التعارضُ بحيث لا يلتقيان، وكان من الخبث المغرض أن يعمدَ كثيرٌ من المستشرقين إلى الانتقاص بهذه القضية من الإسلام، حتى لكأنّه والمسيحية شيءٌ واحد، وهذا ما تنبه إليه العلامة محمد فريد وجدي حين أشبعَ هذه القضية فحصاً وتحليلاً، فأخذ يتساءل قائلاً:

إذا كانت المدنيّة ثمرةَ الجهودِ التي يبذلها الإنسانُ لتحسين حياته الماديّـة، وتسهيل محاولاته المعيشـية، والذهاب في ترقية وسـائله الحيوية، وحاجاته الأدبية، إلى أبدع ما يمكن أن تصل إليه تحت ضوء العلوم والصناعات المختلفة، فما الذي أوجد ما يتخيّله بعضهم من التنافي بين الدين والمدنية؟.

يجيب الأستاذ وجدي فيقول: إنّ الذي أوجد هذه الهوّة السحيقة بين الدين والمدنية في نظر بعض الآخذين بمبادئ الحياة العصرية اليوم، هـو أنّهم خلطوا بين المدنيـة بمعناها الصحيح، وبين ما أوجـدهُ أهلُ

الإباحة من التعديات المحرّمة على العلم والفلسفة والأخلاق الفاضلة، تحت ظلِّ الحرية الشخصية، ومصدر هذا الخطأ هو مايراه الناس بأعينهم من اهتمام الأمم قاطبةً بالمتع النفسيّة من مأكل ومشرب وملبس، دون الاهتمام بمراعاة الآداب الصحيحة، التي يُوجبها العلمُ الصحيح.

فالعلم الصحيح يلتقي مع الدين تماماً في تحريم الخمر والميسر، والتهتك الفاضح، والزنا والربا والمخدرات والانحلال الخلقي، ولكنّ الذين يهيمون بهذه الرذائل لا يقيمون للعلم وزناً حين يُحرّم هذه المضار، ويبيّن لهم عواقبها الوخيمة، إذ لا همّ لهم سوى إشباع ملاذّهم الشهوانية التي تعتبر في رأيهم من مُعطيات المدنيّة المتحضّرة، وهم بذلك يعترفون تماماً أنَّ ما يدعونه بالمدنية المتحضرة يتنافى مع العلم، إذ لا يعترفُ العلم بغيرِ ما يرفعُ الخلق، ويقي النفس من التهلكة.

وإذا كان العلم يتلاقى مع الدين تماماً حين يؤيّد ما جاءتْ به الشريعة السماوية، فقد جَبُن هؤلاء المتحلّلون عن أن يقولوا: إنّ المدنيّة الشهوانيّة تتعارض مع العلم، فينكشفوا أمام الناس، فذهبوا إلى القول بأنّ هذه المدنية تتعارضُ مع الدين، ولكي يطمئنوا أنفسهم بعض الشيء، خطوا خطوةً تالية، فزعموا أنَّ الدين بمعارضة هذه المدنية المتحللة يُعدّ متخلّفاً رجعياً لا يواكب سير المدنيّة في تقدّمها السريع.

وإذنْ فالنّزاع القائم بين المتحلّلين والمترفّعين ليسَ بين المدنية والدين فقط، ولكنّه بين المدنية والعلم أيضاً، لأنَّ الناس متى لزموا

حدود الحكمة في مطعمهم ومشربهم وسلوكهم الجنسي والكسبي، وامتنعوا عن كل ما يقرره العلم من ضررٍ بصحتهم وعقولهم، ولم يخرجُوا في ملاهيهم وملاعبهم عما رسمه لهم العلم من آداب وتقاليد، صيانةً لأموالهم وأخلاقهم وأعراضهم أقول: إذا لزمَ الناس حدودَ الحكمة في ذلك كله بطلت المعاقرة والمقامرة والملاذّ الجنسية المحرّمة، وغيرُها مما يستنزف الأموال، ويفسد القلوب، ويُمرِضَ الأجسامَ، وانصرف الناس إلى مطالب الروح العليا، فتنقلب القضية ليصبح التسابقُ في مضمار العمل الصالح، والإنتاج المفيد، صناعةً وتجارةً، وأدباً وشعراً، ورسماً وتمثيلاً، وهنا يجد الإنسانُ متنفسه الصحيح حين يقضي أوقات فراغه فيما يُنعش روحه بالعطر، ويدفئ قلبه بالحنان، ويحمي جسمه من غوائل المرض المفاجئ من كثرة ما يهدمه من شرب الخمر، والإسراف في الملذّات، وسهر الليل الطويل فيما يحطّمه تحطيماً، ويسرعُ به إلى الهاوية دون انتظار.

وبمراجعة هذه الأفكار نؤكّد أنّ المدنية الحقيقية ليستْ مدنية من يتمتعون بالملذّات المحرمة، ولكنّها مدنيةُ من ينصرفون عمّا حرّمه الدين والعلم معاً إلى الابتكار العلمي والإبداع الفني في شتّى الميادين الراقية.

وما تقدمت المدنية هذا التقدّم السريع لأنّ الناس قد انغمسوا في الشهوات، فالشهواتُ موجودة منذ نشأ الإنسان، ولكنّ المدنيّة تقدمت على أيدي أناسٍ انصرفوا عن هذه الملذات، وعكفوا على مسائل العلم في معاملهم المنعزلة، وتحت أطباق الأرض في المناجم، وفوق أجواز

الفضاء في مهبِّ الريح، حتى حقّقوا نصراً حاسماً على معميات الكون، وهم بعدُ في حاجة ماسةٍ إلى توجيهات الدين، لتكون أعمالهم سائرة مع الهدي السماوي، وما قامت الحروب الفاتكة مستغلّةً ما أحدثه العلم من أدوات التدمير إلا وهي بعيدةٌ كل البعد عن وحي الدين، وباتباع هدايته القويمة يعتدلُ الميزان، ويسودُ السلام.

وإنّ المدنيّة في حقيقتها لا تفوحُ زهرتها إلا حين تستجيب إلى أوامر الدين، وحين يتمسّك أربابها بنواميس الخلق الرفيع، بل إنها لتزدادُ بهجةً وأريجاً، وتكتسب سطوعاً وتألّقاً، فيتوحّد فيها الحق والجمال، ويتآخى الإبداعُ والجلال، وتصبح الحياة جنة وارفة الظلال، يجد فيها الخائف أمناً، والمحتاج عوناً، والضعيف ركناً، لا كما هي عليه الآن، نار موقدة، تلفحُ وجوه المستمتعين والمحرومين معاً على حدٍّ سواء، كما قال الأستاذ فريد وجدي في بيانٍ ساطعِ البرهان.

ولكنْ متى يصلُ المجتمع الإنساني إلى هذه الدرجة؟ يُجيب الأستاذ على ذلك فيقول ما ملخّصه:

كُلّنا نعرفُ أنّ المجتمعات قد قامت على الحاجات المادية، والمصالح القومية، دون نظرٍ إلى اعتبارٍ أدبيٍّ آخر، وقد استطاعت بفضل تكاتف أبنائها أن تأمن شرَّ الغوائل الماحقة من الجماعات والغارات، ثم رأت بحكم تطوّرها الزمني أن تخضع إلى ما يوجب راحتها من التزام مبادئ عادلةٍ في المعاملات التجارية، والأحوال الشخصية، والحدود

الجنائية، فأخذت تُحرّم العدوان على النفس والمال والعقار، وتفنّنَتْ في رسم الحدود لصيانة كلّ ما تحرص عليه.

ولكنّ هذه الحدود كانتْ ذات أنانيـة مريضة، لأنها تهدف إلى صيانة المجتمع الخاص، دون المجتمع الإنساني، فهي تُعاقبُ من يقتلُ فرداً من أبناء مجتمعها، ولكنّها تشجّعُ على الغارة والقتل والسلب من دولة أخرى، فالأخلاقُ لدى الأمم في أرقى عهودها ـ وما زالت كذلك لدى الدول المستعمرة ـ أخلاقُ المناسر، وقطّاع الطرق، وعصابات اللصوص.

وقد يعدّ ذلك غريباً للنظرة الأولى، ولكن إذا نظرنا إلى أيّة دولة مستعمرة نجدها تحترمُ حقوقَ الإنسان في موطنها الأصلي، ولكنها تهدرُ هذه الحقوق في مستعمراتها التي تسلبُ خيرات أهليها، وتبيدُ من تراه حجر عثرة في طريقها، حيث يقفُ في وجهها، فيطالبُ بحقوق الإنسان في وطنـه، هذه الحقوقُ التي لا تعترف بها الدولة المسـتعمرة إلا في موطنها فحسب.

كما نقل الأستاذ وجدي عن (معجم لاروس) الفرنسي المعروف بدائـرة المعارف ما تورطت فيه هذه الأمم التي كانت تتزعّم شـعوبَ العالم، وهي في جوهرها العاري عن الزخرف، تصوغ النظم الوحشية، في قوالب قانونية، أما من جهة فضائلها كالشجاعة والنظام والإخلاص لمبادئ الجماعة وحدها فهي بعينها أخلاق قطّاع الطريق، وأما وطنيّتها

فهي لا تجد مورداً لها غير السلب والنهب والابتزاز، ومن أدلة فضائلها أمام مَنْ أرهقتهم باستعبادها أن يُعملَ في رقابهم السيف، وأن يُجبرَ الضعفاءَ على أن يكونوا كالحيوانات، يجرّون عربات النصر، إذ يركبها الطغاة من الحاكمين.

هكذا كانت الدولة الرومانية حين جاء الإسلام لينقذ العالم من الاستعباد، فأوجد أمة تجعل رابطتها العامة هي الإخلاص للبشرية جميعها، دون تفرقةٍ بين الأجناس، فهي أمّة عالمية حسّاً ومعنًى، وهي المثلُ الأعلى لما سيكون عليه سكّانُ الكرة الأرضية، حينما تسمو عقلياتهم، ويدركون أنّ الأرض جميعها لله، وأنَّ فروق اللون واللغة والبيئة ليست فروقاً طبيعية توجب التقاطع والتناحر، ولكنها فروق سطحية أوجبتها سعة الأرض، وبُعد الاتصالات، وتباين اللهجات، فإذا بلغت الجماعات البشريّة هذا الفهم حدث التعارف العام بين البشر، وتلاه سلامٌ لا يعكّر صفوه معكرٌ من أي نوع كان!.

وهذا المثل الرائع للحكم قد طبعه الله بطابع الحكم الإلـٰهي، إذ جعل الإنسانَ خليفة الله في الأرض، حين يعملُ على إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، وحين يؤلّف المتمثلون لشريعة الله أمةً عادلة ذات إخاء وحرية ومساواة، وهي مهمة خطيرة نوّه بها القرآن الكريم، حين قال الله عزَّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فالأمة الإسلامية منتدبةٌ من الحق لخلافة الله في الأرض[1]، وليس في هذا ما يجرح كبرياء الأمم الأخرى، ولا ما يحطّ من عزتها، لأنّ هذا الانتداب ليس وقفاً على شعب بعينه، ولكن على مَنْ يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، ويؤمن بالله.

وفي استطاعة كلّ شعب يؤمن بهذه المبادئ، ويعمل بها، أن يرث هذه الخلافة، لأنّها ليستْ وقفاً على جنس من الأجناس، ولم يشترط لها بينةً من البينات، ولكنها ملكٌ لكل من تمسّك بمبادئها، فإن حاد عنها نزعَ الله عنه سِمةَ الخلافة تحقيقاً لقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

ثم ختمَ الأستاذ محمد فريد وجدي كتابه الرائع بقوله: فإذا قام المسلمون بدعوةٍ إلى دينهم مؤسسةٍ على التنويه بهذه الأصول الأولية في الإسلام، فإنّها تؤثر في العقول والقلوب بوصفين:

(١) أولهما: بأنها دين.

(٢) ثانيهما: بأنها ذات إصلاح شامل، والإسلامُ في ضوء ذلك كلّه لا يحتاج إلى أكثر من أنْ يُعرَّف التعريف الجدير به، وهو بقيامه على الفطرة الإنسانية، واستناده إلى العقل والعلم تحلّ من الأفئدة محلَّ الحقائق الأولية، فلا يجدُ مقاومةً ما إلا من أسرى الأوهام!.

---

(١) أي أن الإنسان خليفة من قبل الله تعالى لا أنه خليفة عنه. (الناشر)

فمنْ مِنَ الناس لا يُحبّ أن تعلو كلمة الله في الأرض، وأن يسودَ الحق سيادةً يسقطُ معها كلّ باطل، ويضمحلّ كلُّ زورٍ، فتزولَ جميعُ الفوارقِ بين الناس!.

* * *

السيرة المحمدية

تمتازُ السيرةُ النبوية الشريفة بأنّها لا تنفصلُ عن الإسلام في شيء، إذ هي التطبيقُ العمليُّ لجلّ ما نزلَ به القرآنُ الكريم من تشريع، لذلك سُئلت عائشةُ رضي الله عنها عن أخلاقِ رسول الله ﷺ فقالت كلمتها الشهيرة: «كان خلقه القرآن».

وإذا كان الأستاذ وجدي قد أفرغ جهده في إيضاح رسالة الإسلام في العالم، وتبيين ما هدى به الناسَ حين أخرجهم من الظلمات إلى النور، فقد كان لزاماً عليه أن يتبع ذلك بنموذج من التطبيق العملي لهذه الرسالة ممثلاً في سيرة رسول الله ﷺ.

وإذا كان الكثيرون من أفاضل الكتّاب المعاصرين ومَنْ سبقهم قد تتبّعوا سيرة رسول الله ﷺ بكل احتفاء، فإن مثل العلامة فريد وجدي في سعة أفقه، وبُعد غوره، جديرٌ أن يضيفَ الجديد إلى ما كتبه سابقوه، وهذا بعض ما نرجو أن نوفّقَ إلى تحليله في هذه الصفحات.

وقد نُشرت هذه السيرةُ فصولاً متتابعةً في افتتاحيات (مجلة الأزهر)[١] على مدى سبع سنوات، فذاعتْ ذيوعاً حميداً، إذ كانت نهجاً

(١) وقد جاء عنوان الفصول (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة).

فريداً في البحث، وقد رأينا كثيراً ممن كتبوا في السيرة المطهرة ينقلون عن الأستاذ دون أن يشيروا إليه، وكأنّهم رأوا أنَّ عدم جمع هذه الفصول الرائعة في كتاب مستقل يُبيح لهم أن ينْهبوا أفكارها دون الإشارة إليها، وإذا فعل ذلك من يتصدّرُ لكتابة سيرة الرسول ﷺ، فقد جانب الأمانة، التي هي أبرز صفات من يتحدّثُ عنه، وكان من المنتظر أن يقتدي بأمانة نبي تعرَّضَ لسرد حياته، وتمجيد أخلاقه ﷺ.

وقد دفعني هذا السطو الجريء إلى جمع هذه المقالات الرائعة في كتابين صدرا عن دار النشر المصرية اللبنانية، فشفيتُ صدري من سارقٍ أكبَّ على تراث الأستاذ ونسبهُ لنفسه، وقد افتضح أمرهُ حين جمعتُ هذه الفصول، وذاعت بين الناس في كتابين مستقلّين لهما بريقهما الأخّاذ.

وقد ذكر الأستاذ محمد فريد وجدي في مطلع حديثه عن السيرة المحمدية أنَّ مثقفي اليوم لم يعودوا يقنعون بسرد الأحداث التاريخية دون تحليل، كما لم يعودوا يكتفون بالتسليم بوجود النبوة دون أن يبحثوا ماهيتها ودوافعها، أهي حاجةٌ من حاجات الروح الإنسانية لا محالةَ من وجودها، والاهتداء بهديها؟ أم هي مجرّد ظواهر اجتماعية متكررة تولّدها ضرورة الاجتماع، مثل ظواهر الارتقاء في الحياة الإنسانية؟ والوحي الذي تعتمدُ عليه النبوة، كيف يؤمنُ به المعاصرون دون دليلٍ معاصرٍ يقدّمه الكاتبُ محسوساً ملموساً لا تمتري فيه العقول، فالزمنُ زمنُ التنقيب الفاحص، ولا بدَّ للسيرةِ أن تُعْرَضَ في لونٍ فكري يرضي كلَّ

متعطش للمعرفة، ويقنع من يمتري في الحقّ لشكوكٍ تقوم في نفسه!.

وقد لاحظَ العلامة (فريد وجدي) أنّ كثيراً ممن تحدّثوا عن السيرة النبوية من المسلمين، وهذا حق، كان معتمدهم على الأساليب البيانية، والبراعة الخطابية، ولم يُعنوا بحاجة العقول المجبولة على التشكك إلى الاطمئنان المتثبت.

كما أنَّ بعضهم قد اندفع إلى تسجيل إسرائيليات مزعومةٍ ما كان لها أن تكتبَ، ولم يبخسِ الأستاذ مَنْ كتبوا من زملائه بتمحيصٍ ونقدٍ فأشادَ بعملهم الجيد، وذكر أنّهم تركوا أشياء دلت عليها البحوث العلمية المعاصرة، ولم يطرقها في مجال تـأييد السيرة النبويـة كاتبٌ إلى هذا الزمن، لا سيّما وقد أصبحَ القول الفصل للعلم المؤيد بالبرهان، وكل قول لا يؤيده العلم الحقيقي هو خيالاتٌ لدى مفكري اليوم، فوجبَ أن تدرس السيرة تحت ضوء العلم.

شرعَ الأستاذ يكتب فصول السيرة النبوية ابتداءً من المجلد العاشر من (مجلـة الأزهر) وقد صدر في سنة ١٣٥٨هـ حتى المجلد السـابع عشر، وقد صدر في سنة ١٣٦٥هـ، ولكنّ السيرة النبوية في صميمها قد وقفت عند نهاية المجلد الرابع عشر، الذي صدر سنة ١٣٦٣هـ، وما كتبه الأستاذ بعد ذلك قد جاء خاصاً بتعاليم الإسلام وهديه العالمي، وإن جعله تحت عنوان (السيرة المحمدية) ولو كنتُ مكان الكاتب، لجعلتُ تعاليم الإسـلام خاصةً بموضوعٍ مستقل عن سـيرة الرسول ﷺ، وهي كذلك أيضاً فيما كتب، ولكنّه تمسّك بعنوان السيرة المحمدية، فشمل هذه الفصول جميعاً!.

وماذا عليه لو جعل السيرة مستقلةً بأحداث الرسول ﷺ فامتدّ بالعنوان إلى نهاية المجلد الرابع عشر، ثم بحث عن عنوان جديد لهذه القوانين الهادية والإصلاحات المفيدة التي أتى بها الإسلام! ولو كان لي أن أقترحَ شيئاً بالنسبة لجمع هذه الفصول لاقترحتُ أن تصدر في جزئين متوالين، يخصّصُ الأول لسيرة رسول الله ﷺ واقفاً عند نهاية المجلد الرابع عشر، ويخصص الثاني للحديث عن هداية الإسلام! وسأقتصر الآن في مجال التحليل على الجزء الأول لأنه من موضوعنا في صميم الصميم!.

إنّ أول موضوعٍ بدأ به الباحث هو موضوع النبوة والأدلة العلمية على حدوث الوحي، وهو موضوع عالجه الباحثون من قبلُ، ولكنَّ معالجة الأستاذ محمد فريد وجدي كانت جديدةً من وحيه الخاص، وقد قال: إنَّ الأدلة المنطقية على صحة النبوة كثيرة، ولكنَّ العقولَ المعاصرة تتطلَّعُ إلى الأدلة العلمية الملموسة، لا إلى الأدلة المنطقية المعقولة[1]، وعلى مَنْ يريدُ أن يتقدّم بالدليل العلمي المشاهد في رأي الباحث أن يتساءل عن أمور ثلاثة:

---

(١) دافع عن الأدلة المعقولة خير دفاع العلامة الجليل الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية في كتابه العلم (موقف العقل والعلم والعالم من من رب العالمين وعباده المرسلين)، وقد ناقش فيه محمد فريد وجدي مناقشات مطولة. (الناشر)

١ ـ هل في الـوجود المحسـوس ما يـدلُّ على حدوث معرفـة الكائنات نفثاً في الروع من غير طريق الحواس؟ .

٢ ـ هل توجدُ حوادثُ إنسانية يقرّها العلم نفسهُ تثبِتُ وجودَ اتصال باطني بين النفس وبين عالم أرقى منها؟ .

٣ ـ هل يمكنُ أن يعترفَ العلمُ بوجودِ عالمٍ روحاني فوقَ عالم المادة يسوّغ اعتبار الوحي أمراً ممكناً[١]؟ .

هذه هي الأسئلةُ التي تصدّى الأستاذ للإجابة عنها بما يملِكُ من جهد فكري، فقال عن السؤال الأول وهو الخاص (**بمعرفة بعض الكائنات لأشياء كثيرة نفث في الروع عن غير طريق الحواس**): إلهام الحيوان أمر ظاهر لا شك فيه، فالفراش متى وصلَ إلى الطور الثالث من حياته يضعُ بيضَه على أوراق خضراء، وهذا البيض لا يفقس إلا في الفصل الثاني بعد وفاة الأمّ، فيتهيأ الوليد الجديد ليأكلَ من الورق الأخضر، ويتساءل الكاتب: مَن الذي علّمَ إناثَ الفراش أنَّ صغارَها تحتاج إلى الغذاء؟ هل هدتها الأمهاتُ إلى ذلـك وهي لم تر أمّاً في حياتها؟ هل هديـت إليها بعقولها؟ إنها ليست ذات عقول، فلم يبق إلا القول بالإلهام.

ثم استعرض الأستاذ حشرات وحيوانات شتّى مثل (النيكروفر)

---

(١) مجلة الأزهر المجلد العاشر، ص٩٠.

التي تموت بعد أن تبيضَ مباشرةً، وتجمع جثثاً حيوانية لأولادها الصغار قبل أن تموتَ، ومثل (البومبيل) من آكلة الحشائش، وقد هيأت لها الأم ما تتغذّى به من الحيوانات لأنها في الفترة الأولى من حياتها لا تستسيغ أكل الحشائش؟ فمن أدراها أنَّ صغارها ستخرجُ من آكلة الحيوانات؟.

أمثلة شتى استعرضَها الأستاذ ليثبتَ أنَّ الإلهامَ يأتي نفثاً في الروع لدى الحيوان، فلا يستبعدُ لدى الإنسان، ولم ينسَ أن يذكرَ ما قاله الطبيعيون في الردّ على ذلك بأنّ هذا الإلهام عادة موروثة، فهي داخلية إذن، فقال مفنّداً هذا الردَّ: كيف يعقل أن تتفق عليها هذه الحيوانات في كلّ زمان ومكان؟ وكيف تورثها لأخلافها وقد ثبتَ علمياً أنَّ الوراثةَ للصفات والعادات غير ممكنة؟.

وأنا أزيدُ على الأستاذ فريد وجدي فأتساءل؟ إذا كانت هذه الاحتياطات عادات موروثة فكيف اهتدى إليها المورِّث الأول؟ ومن الذي دلّه على أن يكتشف غيباً لا يكتشفه إنسان مفكر فضلاً عن حشرة صغيرة! إنّ الإلهام الخارجيّ ثابتٌ إذن.

وفي الإجابة على السؤال الثاني **(الذي يتساءل عن حوادث إنسانية يقرها العلم نفسُه تثبِتُ وجودَ اتصال باطني بين النفس وبين عالم أرقى منها)** ذكر الأستاذ ما عرفَ عن عقليات تتصفُ بالعبقرية، تأتي بقفزات مدهشة! والأستاذ لا يستشهد بالعبقرية ليثبتها لمحمد ﷺ، فهو يرى أنّه نبيٌّ موحًى إليه، ولكنّ مظاهر العبقرية لدى بعض البشر، وهي الأمر

الخارق للعادة، والصفة التي لا تخضعُ لقانون، هذه العبقرية قد وُجدت فعلاً، فرأينا من الناس ـ وقد شاهدنا ذلك عياناً في مصر[1] ـ من يضربُ رقماً حسابياً مكوّناً من خمسة أعداد في رقم مماثل، ويأتي بالنتيجة صحيحةً في سرعةٍ عجيبةٍ! فكيف اهتدى ذلك الشخص إلى الجواب، وقد يكون أمياً، لا شك أن اتصالاً راقياً كان يمدّه بما لا يستطيعُ أن يقومَ به كبار النابغين بديهةً دون عدّ، ومتى ثبتَ أنَّ هناك اتصالاً للعبقري! فأولى أن يكونَ هذا الاتصال العلوي للنبيِّ!

مرة أخرى، أقول: إنّ الأستاذ وجدي لا يثبتُ العبقريةَ لمحمد ﷺ ليجعلها أساسَ النبوّة، ولكنّه يقولُ: إذا تصوّرنا العبقريَّ في الحياة بأعماله الخارقة! فمن المعقول أن نتصوّر النبيَّ ﷺ بإلهاماته الصادقة؟ فما العبقريُّ حينئذٍ إلا مثل مقرِّبٍ فقط.

وقد استعرضَ الأستاذ أمثلةً شتّى لأناسٍ في الغربِ أدهشوا العالم بخوارقهم الحسابية والرياضية والموسيقية والشعرية، ناقلاً قوله عن المشهود لهم من كبار الأكاديميين في إنكلترة وفرنسة، لينتهي إلى وجود اتصالات روحانية باطنية تمدّ الإنسان عن طريق العقل العادي.

أما السؤال الثالث **(عن اعتراف العلم بعالم روحاني فوق المادة)**

---

(١) انظر قصة الشيخ (رمضان السيد أحمد رزق) وهو شيخ أزهري ضرير في كتابنا (طرائف ومسامرات)، ص٩٠ وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

فقد تحدّث عنه الأستاذ وجدي بإشباع مستفيضٍ في كتاب (على أطلال المذهب الماديّ) ثم أوجزَ حديثَه في مقالٍ مركّزٍ، ليثبت ماقاله الروحانيون من أساتذة الجامعات الأوروبية عن القوى المجهولة التي تظهر آثارُها أمامهم، ويحارون في تعليلها، ولكنّهم على تحيّرهم في التعليل لا يستطيعون أن ينكروا وجودها، وهي تأخذُ عليهم كلَّ سبيل!.

لقد بذل الأستاذ جهده في إثبات الإلهام بما استطاع من الأدلة العلميّة، وإذا كان لكلِّ كاتبٍ مَن ينقده في بعض قوله! فحسب الأستاذ أنْ أضافَ جديداً يصلحُ للنقاش، وأذكر أنَّ السيد محمد رشيد رضا قد تحدّث في كتابه الرائع (الوحي المحمدي) عن إمكان الوحي السماوي بأدلة فكرية غير التي اهتدى إليها الأستاذ! وللقارئ الحريص أن يستوعبَ ما قاله الأستاذان، وأن يتابع ما دارَ حول ذلك من نقاش مفيد.

وقد قال الأستاذ وجدي في خاتمة حديثه: ولسنا نريدُ أن نثبت إمكان الوحي بالاستناد إلى اكتشاف هؤلاء العلماء فيما وراء الطبيعة، فقد أثبتنا وجوده بالحسّ من الغرائز التي طبعت عليها الحيوانات، ومن حوادث العبقريات، ولكننا نستأنس بها في بحثنا هذا دلالة على أنّ الإنسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيه فتوحات الروح من طريق النبوة، وفتوحات العقل من طريق العلم[1].

---

(١) المجلد العاشر من مجلة الأزهر، ص١٦٨.

على أننا إذا تأملنا ما أورده الأستاذ في هذه النواحي الثلاث فإننا نجد الناحية الأولى ثابتةً بنصّ القرآن الكريم إذ قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

أما اختلافُ العقولِ قوّةً ونبوغاً وابتكاراً ـ وهي الناحية الثانية ـ فمن المشاهد الملموس الذي لا ينكره أحد.

فإذا نظرنا ثالثاً إلى تمسّكه بما انتهت إليه الدوائر الروحية في جامعات الغرب من شواهد دالة على وجود العالم العلويّ، فإننا نجدُ هذه الشواهد مما يستأنس بها فحسب، كما قرر ذلك بنفسه، أما حقيقة الروح فهي من أمر الله! وقد قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][(١)]، وجميل أن نقف عند هذا الحد.

وإذا انتهى الأستاذُ من التدليل العلمي على ثبوت الوحي، فقد انتقلَ إلى التدليل على ثبوت النبوة، فينكِرُ أشدَّ الإنكار أن يذهبَ الماديون إلى أنَّ النبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الأولى، ويرى أنَّ الحاجة إلى النبوة أصيلةٌ في النفس البشرية، لأنَّ المجتمع الإنساني كالجسم الحي

---

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن المقصود بالروح هنا الوحي مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ انظر تفسير القرطبي. (الناشر)

ينفي بقواه الذاتية كلَّ ما لا حاجةَ إليه فيه، ولم يستطع في أي طور من أطوار حياته أن ينفي رغبتَه في العزاء النفسي أمام ما يصيب الإنسان من الكوارث، وهو عـزاء لا بدّ منه أمام الكوارث المتتالية، والخطـوب المستمرة، فقد يستحوذُ الإنسانُ على المال والجاه والسلطان، ثم يعوزه العزاء حين يقعده المرض، أو يصيبـه الموت في أعزّ الناس لديه، فما يغني عنه الثراء أو السلطان شيئاً؛ ولكن عزاءه يكمنُ فيما جاءت به النبوة من وجود ملتقًى نهائي في عالـم الغيب، به يجتمع الشمل، ويهون الفقد.

هذه الحاجة الماسّة إلى العزاء وجدها الإنسان في تعاليم النبوات ـ كما يقول الأستاذ وجدي ـ فهي التي تتولاه، وهو أشد مايكون احتياجاً إلى كلمة طيبة تشرِقُ عليه بالأمل، كيلا يظل يائسـاً تصطرع في نفسـه الهموم، فيحاول صرفها بالشراب والرحلة والاندماج في الملاهي دون جدوى، لأنّها لا تبرح نفسُه أنّى سار! ولولا ما جاءت به النبوة من العزاء ما وجد السلوان[1].

ومن أقوى ما كتبه الأسـتاذ فريد وجدي ما تحدّث عن نفسـية الرسـول ﷺ قبل النبوّة وبعدَها، ليردّ على من يذهبون إلى أنّه ادّعاها ادّعاءً دون وحي منزل! فيقول الكاتب: إنّ رسول الله ﷺ لم يشتهر قبل

---

(١) انظر كتاب (النبوة إصلاح تقتضيه رحمة الله) للشيخ سعدي ياسين رحمه الله تعالى. (الناشر)

البعثة بين قومه بمميزات تدعوه إلى التطلع للرئاسة الدنيوية، فقد كان لدى العرب قبل مبعثه من يتصدّرون لكشف المستور، بما يحترفون من قيافة أو كهانة أو طب، وكان للناس فيهم معتقدٌ كبير، إذ يسألونهم عن المجهول فيجيبون، ولم يكن لمحمد ﷺ صلة بهؤلاء حتى يتسامى للحديث عن عالم الغيب، تبعاً لكهانة أو سدانة، كما أنَّ كلَّ إنسان كُتب له النبوغُ في عملٍ من الأعمال فإنَّ دلائله تظهر عليه مبكّرة منذ نشأته الأولى، وكلّما تقدمت به السنون تضافرت الدلائل على موهبته، حتى يصبح علماً في بابه في الخطابة أو الشاعرية أو الحكمة، ولكنّ نشأة محمد ﷺ الأولى لم تكن لتدلَّ على أنّه يتهيأ لرسالة السماء في شيء، ولم يظهر لديه أيُّ ميل للتفكير في هداية الناس إلا قُبيل البعثة مباشرةً، حين حببت إليه الخلوة في غار حراء، فكان يمكثُ وحدَه متأملاً مفكّراً في ملكوت السماوات والأرض، يقول الكاتب الكبير ببعض التصرف:

إنّ هذه النفس الحائرة الثائرة، التي لم تجد في العالم المحسوس ما تعوّل عليه، أخذت تتلمّسُ بلال غلّتها في عزلة الكهوف، وظلمة المغاور، وهي محرومةٌ من ملاذ المطاعم والمكاسب، لهي نفسٌ لم تطبعَ على غرارِ النفوس العادية، وإلا فماذا كان ينقصُ محمداً ﷺ بعد أن بلغَ مبلغ الرجال، وأصبحَ له زوجة وأطفال، حتى يؤثرَ حياةَ العزلةِ في حِراء على متع الحياة الاجتماعية، أكانَ يتطلّع من وراء هذا الزهد إلى زيادة موارده المالية، وتحقيق ذلك لا يكون إلا في الأسـواق العامة

للتجارة دون الاعتزال[1].

وبيئتهُ العربية لم تكن لتهتمّ بالمسائل الروحية، ولا ترى السيادة في قريش لذوي التحنّث والإخبات، فلماذا لجأ محمد ﷺ إلى حِراء قُبيل البعثة؟ إنَّ القلوب الكبيرة تلهَمُ أنها مستقرٌ لأسرارٍ خطيرةٍ، وهذا ما أُلهمه رسول الله ﷺ حين حُبِّبَتْ إليه الخلوةُ، فآثر الاعتزال.

لقد أصيبَ محمد ﷺ بالخوف حين جاءه المَلَكُ لأول مرة، فما سرّ ذلك؟ ثم أصيب بالحزن حين فتر عنه الوحي، حتى عاد إليه فأمره بالدعوة إلى الإسلام! أيكون قد تخيّل أو اختلط عليه؟ إنَّ المتخيّل والمختلط عليه لا يأتي بقرآنٍ معجزٍ محكَمٍ، وإنما قصاراه أن يهذي بما لا يُفهم، وقد جاء محمد بتجديد الدعوة الإلهية خالصةً من الشرك، ونجحَ أكبرَ النجاح في تجلية حقائقها، وإفحام خصومها، فكيفَ يكونُ مختلطاً عليه فيما يبلغه للناس من كتاب الله، والمختلط عليهم من الهاذين والمسحورين لا يأتون بعمل إيجابي[2]؟!.

في أمثال هذه المعاني كتب المؤلف فصلاً عن دعوة محمد ﷺ إلى ربه، فنّدَ فيه كلَّ شبهة يتفوّه بها منكِر، لينتهي إلى قوله الرائع - ببعض التصرف -:

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد العاشر، ص٤٠٧.

(٢) انظر (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي رحمه الله تعالى. (الناشر)

اللهمَّ ما أقوى سلطانك، وأسطع برهانك!

أميّ في أقصى بيئة عن العمران، وأبعدِ مكان عن معترك العقول، ومضطرَبِ النظريات والمبادئ، وبين ظهراني قومٍ لم يألفوا النظام، ولم يأنسوا بالوحدة، ينتدَبُ أن يكونَ رسولاً للناس كافّةً، فيدعوهم للكلمة الجامعة، ملوّحاً لهم بالأصول الحكيمة، لتحقيق هذا المأرب، الذي لم يطف بخيال فيلسوف ولا مصلح قبله، مدلّلاً على إمكانه بالأدلة القاطعة، ضارباً لهم المثل العملي بتأليف أمة عالمية، ليس فيها ظل من نعرة القومية، ولا عصبية الجنسية، وبتوزيع العدالة، وجميع الحقوق المدنية بين الكافة بالسّوية.

أمّةٍ خالصة من جميع علل الاجتماع، يسودها قانون أصوله الحقوق الطبيعية، رأس مالها المعرفة، دينها العقل، سلاحها الحكمة، غايتها المثل الأعلى.

أميّ في أقصى بيئة عن العمران يأتي بكلِّ هذا بنصوص صريحة لا تحتملُ الصرف والتأويل، لا يعقل أن يكونَ كلُّ هذا من عنده! بل لا بدّ أن يهبط عليه من عالم علوي، إذ هي أرقى مما سبقها من فلسفات الأقدمين مجموعةً متضافرة!

ومن العجيب أن موحي هذه التعاليم يقرِّرَ سبقها لزمانها، وأنَّ الناس سيعرفون فضلها بعد حين ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أي دليلٍ على الوحي أقوى من هذا الدليل[١].

بهذا المنطق المتسلسل دعم الأستاذ فكرة الوحي أولاً، وفكرةَ النبوّةِ بعامة ثانياً، وفكرة نبوة محمد ﷺ ثالثاً! فجلا القتامَ عن حقائقَ خافيةٍ، وهدى إلى خيرٍ جزيلٍ.

لقد كانت إحاطة المؤلف الكبير بشبهات الغرب حولَ رسالة نبيِّ الإسلام، وتوثبه لتفنيدها في مدًى تطاول إلى أكثر من نصف قرن، كانت هذه الإحاطة دافعة إلى وقوفه المتئد أمام ما يلوكونه من هذه الشبه.

وكانت للكاتب عِفّـةُ قلمٍ تجعل ألدّ خصومـه يصيخون إليـه في احتفال، كما كان منطقه من الوضوح بحيث لا يجيز لنفسه أن يلجأ إلى الدروب الملتوية، والمسالك المعوجّة، ليحيّر مناظره، بل يلقاه على قارعة الطريق واضحاً سافراً، يفجؤه بالرد الحاسم النافذ في غير جلبة أو ضجيج.

وإذا كان ادعاء هؤلاء المتخرصين قد تكاثر حول القول بأنّ محمد ﷺ قد جاء في فترة توثبت فيها الجزيرة العربية للنهوض، وتطلعت إلى الإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي، نافرةً من جاهليتها الجهلاء، وقد لمس النبيُّ ﷺ هذا الشعور، فقاده بسهولة جعلت رسالته هينة الأداء،

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد العاشر، ص٤١٢.

سهلة المجتنى، لم ترهقه عسراً من أمره، حيث لم يزد في منطق هؤلاء على أنْ قادَ جماعةً تريد أن تتجه إلى الإصلاح مشوقة إلى مشارق الضياء.

إذا كان هذا الادعاء قد تكرّر لدى من يحاولون إنكار هذا الجهاد النبويِّ الشاق، وقد تواصوا به، حتى أخذوا يكررونه كالشيء البدهي، الذي لا يحتمل النقاش، فإنَّ الأستاذ فريد وجدي قد أُعطيَ قدرةً حاسمةً على العصف بهذا الادعاء الواهم، حين قال:

إنّ هـؤلاء المضلّلين قد نسـوا أنّه لو كان الأمرُ كما يزعمون لما استنكرَ المشركون دعوةَ الرسول ﷺ، ولالتفوا حوله مذعنين، ولكنَّ بيئة النبي ﷺ في مكة، وهي أرقى قبائل العرب إدراكاً، قد ثار ثائرها، وجُنَّ جنونها، وطفقت تحارِبُ الرسـول ﷺ وتابعيه بالاستهزاء والإيـذاء، والاضطهاد والمقاطعة، حتى اضطر المضطهَدون إلى الهجرة مرتين إلى الحبشة.

وبعد أن عانى المسلمون ما عانوا من عتو قريش، فرّوا مهاجرين بدينهم إلى المدينة، وما كاد الرسول ﷺ يقيم مع أصحابه في يثرب، حتى تعرّض لحروب طاحنة مع المشركين، فهل يعقل أن يكونَ هؤلاء الذين حاربوا محمداً ﷺ بالسيف والدم كانوا يتطلعون إلى دعوته كي تقودهم إلى النور، فلما هتفَ بها انجذبوا إليه طائعين؟.

يقول الأستاذ فريد وجدي في شرح هذه القضية ـ ببعض التصرف القليل ـ:

ألم يبلغِ الخصومُ أنَّ قريشاً وهي القبيلةُ التي يُرجى أن تكونَ قد شعرت قبلَ غيرها بعوامل التوحد والنهوض قد بقيت محاربةً للدعوة الإسلامية تؤلّب عليها العربَ، وتجمعُ لها الجموع، وتقصدُ بهم قاعدتها بيثرب، لتبيدَ خضراءهم فيها، حتى شارفَ صاحِبُ الدعوة ﷺ أن يُدعى إلى الرفيق الأعلى، ولولا أنه رأى وجوب فتح مكة عنوةً لبقيت جرثومةُ الكفر فيها، تثيرُ على خلفائه الحروب، وتنفّر منهم القلوب.

فإذا كانت في بلاد العرب هذه الفكرة عن النهوض، أكانت تتخطّى صميمَ العرب من قريش وخزاعة وتميم وهوازن وتأوى إلى قلوب أهل يثرب؟ وإذا كانت هذه الفكرةُ قد جالت في رؤوس بعض مُفكريهم، فماذا قالوا فيها من شعر ونثر؟ وقد تكلموا في كلِّ شيءٍ حتى الفسق والفجور.

الحق الذي لا مريةَ فيه أنَّ بلادَ العرب قد خلت من هذه الدعوة العامة إلى التوحيد، ولو وجدت لوصلتنا أنباؤها، إذ لا يمكنُ أن تظلَّ خفيةً، فهي شعورٌ تولِّدُه الحاجةُ في الجماعات! أما وقد ثبت ذلك بكلِّ دليلٍ، فإنَّ مصداقه من القرآن قولُ الله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦][١].

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد العاشر، ص٥٦٣.

هذا الاعتراضُ المتردّدُ في دوائر الاستشراق، قد تكرّرَ ردُّ الأستاذ فريد وجدي عليه أكثر من مرّة فيما كتب من موضوعات السيرة، كما كرره في مقالات أخرى سبقت نشر هذه البحوث بسنوات، إذ كان لا يتركُ مناسبةً تعن حتى يفردَ المقالات الضافية، متحدِّثاً عن أثر الإسلام في إصلاح المجتمع الإنساني!

وكان على الأستاذ رحمه الله أن يشيرَ في هذا الموضع إلى مَن عُرفوا في الجاهلية قُبيل الدعوة بالحنفاء، وهم بضعة نفر، لا يزيدون على خمسة أشخاص، كانوا يتعبّدون على دين إبراهيم، وقد خاصمهم الجاهليون، وأعرضوا عنهم لائمين، فكانت عبادتهم خاصّةً بهم، ولعلَّ الأستاذ حين قال: إنَّ بلاد العرب قد خلت من هذه الدعوة العامة كان يدرِكُ أنَّ دعوة الحنفاء كانت خاصة بهم، فليس لها شيءٌ من هذا العموم.

ولعلي قرأتُ له في غير هذا المجال ما يشيرُ إلى دعوة الحنفاء، وتلاشي تأثيرها في غير أصحابها، وهم لا يتجاوزون أصابعَ اليد الواحدة! ولو كان محمد ﷺ واحداً منهم فقط لما زادَ عليهم في شيء، ولكنَّ الله قد اختصّه برسالته، فجاهد وناضل، حتى أخرجَ بها الناسَ إلى النور من حوالك الظلام.

تابع الأستاذ أحداث السيرة، فتكلّم عن نشأة النبي ﷺ قبل البعثة، ثم عن جهاده في أداء الرسالة عقبها وعمّا تعرّضَ له من الإيذاء والاضطهاد صابراً مثابراً، وعمّن أسلموا معه، وشاركوه عبءَ الجهاد مقتدين به.

وإذا كان ذلك معروفاً لدارسي السيرة النبوية، فلا مناصَ للأستاذ من ذكره، ليحلّل ما تضمن من عظات، وينيرَ ما خفي من دلائل، حتّى إذا انتهى من هذا السرد الواضح المؤثر في غير جلبة رنّانة، بل في هدوءٍ واثقٍ مطمئنٍّ، عقد فصلاً رائعاً تحت عنوان (نظرة في مناهضة المشركين للدعوة الإسلامية) كرر فيه ما سبق أن قاله بشأن مقاومة الجاهلين للرسالة المحمدية، ودلالتها على عدم تهيؤ الجو الاجتماعي للدعوة تلقائياً دون وحي منزل، كما تحدّث عن صلابة الذين دخلوا في الإسلام، بحيث لم تستطع أعنفُ ضروبِ الإيذاء أن تصدّهم عن الدين الجديد.

وقد يكونُ الحديثُ في هذه الناحية غير جديد، أمّا الجديد فهو ما شرحه الأستاذ خاصاً بما أحدثه الإسلام من انقلاب لا نظيرَ له في النفس العربية، إذ أيقظ فيها العاطفةَ الدينية بعد همود، لأنَّ العرب في مكة وما حولها لم يخضعوا لأناس يتخصصون في شؤونهم الدينية، ويقومون بالدعاية لها، كما عهد لدى المتدينين في أكثر بقاع العالم، كما لم يكن لديهم صحف أو نقوش تسجِّل ما يقومون به من الشعائر الدينية، وهذا يدلُّ على أنهم يعبدون أصنامهم عن تقليد متوارثٍ من ناحية، وعن ضعفِ الشعورِ الدينيِّ عامةً من ناحية ثانية.

فإذا استطاع الإسلام أن يبعثَ شعوراً دينياً جديداً كالذي بعثه رسولُ الله ﷺ في مثل هذه البيئة ذات العبادة المظهرية فحسب، فذاك

انقلابٌ خطيرٌ لا يعهد نظيره في تاريخ البشرية، فإذا أضيف إليه غلبة الدعوة الإسلامية على ما عداها في حياة رسولها المحدودة، فقد تمّتْ معجزةُ الإسلام الخارقة، لأنَّ ما تقدّم الإسلام من دعوات دينية لم تتح لها السيطرةَ التامة في حياة رسولها، بل مضت حقب طويلةٌ حتى استطاع أتباعُ هذا الدين نشره على فترات ذات أبعاد، فالسرعةُ العاجلةُ في انتشار الدعوة آيةٌ من كبرى آياتها الخوالد.

هذه النظرات الاجتماعية العميقة تـدلُّ على ذاتية مسـتقلة لدى الكاتب، ونحنُ نعرفـه من باحثي علم الاجتماع ودارسـيه، وقد انتفع بدراسـته الاجتماعية انتفاعاً مهّد له سـبيل التحليل البصير، والتعليل الدقيق، بحيث أتى في هذا المجال بما يخالِـفُ المعهـودَ مما يعلـم الدارسون.

فنحنُ نعلم ما قيـلَ عن سـبب انتشـار الإسـلام بين الأنصار في المدينـة، وكانوا يتحاربون من قبل تحاربـاً ضارياً لا هدنـةَ فيه، حتى جمعهم الإسلامُ على الحبِّ والإخاء، وقد قيل في سبب استجابتهم السريعة إلى الإسلام أنَّ مجاوريهم من اليهود كانوا يحدّثونهم عن نبيّ حان ظهورُه في بلاد العرب، وأنّهم سيتبعونه ابتغاء العزة والاستعلاء، فلمّا سـمع المتقاتلون من الأوس والخزرج بظهور رسـول الله ﷺ، وعرضت عليهم دعوته نشطوا لاتباعه، ليسبقوا إلى ما أملّه اليهـود، فيعتزون بالنبيِّ ﷺ ويستعلون!

هذا ما جاء في كتب السيرة من تعليلٍ لانجذابِ الأنصار بالمدينة إلى الإسلام، ولكنّ الأستاذ محمد فريد وجدي لا يقبلُ هذا التعليل لأمورٍ معقولةٍ أهمها أنَّ أهلَ يثربَ لم يدخلوا في الإسلام، ولم يقوموا بالدفاع عنه إلا بعدَ ثلاث عشرة سنة من وجوده، فأين كانوا في هذه المدة وهم يسمعون من اليهود حديث النبيِّ المنتظر؟ وإذا صحَّ أنَّ اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبيٍّ في بلاد العرب، وأنّهم يعوّلون على الانضمام إليه، أفكانوا يصرّحون بذلك لأعدائهم من الأوس والخزرج، غير خاشين أن يسبقوهم إليه مع ما نعهد في بني إسرائيل من الحرص على كتمان السرّ، وعدم اطلاع أعدائهم على ما ينوون؟

ثم هل كان الأوس والخزرج من السذاجة بحيثُ يصدّقون كلام أعدائهم من اليهود، ولا يظنونهم مخادعين، وبخاصة إذا كان النبيُّ القرشيُّ لا يزال مضطهداً في قومه، وأصحابه مستضعفون في أكثرهم، لا يغنون عن أنفسهم شيئاً؟

ولماذا يميلُ إليه الأنصارُ، وهم إنما يطلبون رجلاً قوياً ذا أنصار أقوياء، يستعينون بقوته على الخصوم!

وإذا كانتِ الحربُ بين الأوس والخزرج هي التي دفعتهما معاً إلى الإسلام ليتّحدا تحت رايته، فتحتجز الدماء، أفما كانوا يدركون أنّهم بمناصرتهم نبي الإسلام تجنباً للحرب قد فتحوا أمامهم جبهةً حربيةً جديدةً هي جبهة قريش بمكة وحلفائها بالجزيرة العربية! وستكونُ العاقبة

أكثر وبالاً! كلُّ ذلك مما يجعل التعليل المدوّن في كتب السيرة واهيَ الحجة في منطق الأستاذ فريد وجدي ليذهبَ إلى أنَّ مشيئة الله وحدها قد شاءت أن تأتي بالأوس والخزرج عوناً للمسلمين في ظروف حرجة بالنسبة للمهاجرين والأنصار معاً، فألقت في قلوبهم حُبَّ الإسلام الخالص، بعيداً عن كلِّ اعتبار دنيوي، بل طمعاً في جنة الله.

ولعلَّ مما يؤيد الأستاذ وجدي في ذلك، وإن لم يذكره في مجال التعليل، أنَّ أصحابَ بيعة العقبة حين سألوا الرسول ﷺ عما ينتظرون بعد تأييده، وعدهم الجنة وحدها! لا بسيطرة دنيوية ولا سلطان أرضي! وقد قال الأستاذ في خاتمة هذه التساؤلات المحيّرة عما دفعَ بالأنصار إلى الإسلام:

لو كان لمحمد ﷺ مال أو مدد من الرجال أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال لقلنا: إن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيثُ يرجون العزّ والسؤدد، ولكنّهم حيال رسولٍ عدم الناصرَ في قومه، وليس يتوقّع له فوزٌ يطمع في خيره، فماذا الذي جمعهم على التطوع لنصرته، والتضحية بنفوسهم في سبيل دعوته؟ اللهم إني عجزتُ عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية، ولا أراه إلا آية إلهية، وكم في الأرض والسماوات من آيات يتخيّلها الجاهلون أموراً عادية[1].

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الحادي عشر، ص٢٢.

وقد تساءل الأستاذ في بحثه: لِمَ أحجمَ اليهودُ عن المسارعة إلى قبول دعوة الرسول ﷺ، وقد بلغتهم قبلَ إسلام الأوس والخزرج؟ وهو تساؤل أجابَ عنه كاتبو السيرة من السابقين، حين ذكروا أنَّ اليهودَ كانوا يتوهّمون أنَّ النبيَّ المنتظر من بني إسرائيل، فحين عَلِموا أنّه من قريش ركبوا رؤوسهم، وأنكروه، وقد بشّرت به التوراة، فحرّفوها مدلّسين.

على أننا نعرض ما أثاره الأستاذ وجدي بشأن اندفاع الأنصار إلى الإسلام، لا لنذكرَ أنّه لا يقبلُ النقاش، بل لنقدّم وجهةَ نظرٍ لباحثٍ أطالَ التفكير حتى انتهى إلى أنَّ هذا الاندفاع آية إلهية، لا تخضعُ لتعليلٍ صريح! ولنعرض نمطاً من التساؤل الحائر، الذي يقفُ بأصحابه أمامَ سدٍّ منيعٍ يحاولون اقتحامه فلا يستطيعون.

لقد اهتمّ الكاتب بموضوعه اهتماماً يظهر في استقلاله الذاتي أمام تفسير الأحداث وتعليلها، حتى فيما اشتهر منها غاية الاشتهار، فموضوع كموضوع الهجرة النبوية لم يحظَ موضوعٌ مثلُه باهتمام الدارسين، حتى خصصت به الأعداد الموسمية من المجلات الأدبيّة والإسلامية في كلِّ عام في شتى بلاد الإسلام، وحتى أصبح المتحدّثون عن هذا الحادث الجلل لا يكادون يجدون ما يقولون، فيبتعدون عنه مضطرين إلى موضوع نبويٍّ آخر، أو يتكلّفون له صياغة أدبية فنية تلمّ به إلماماً يتجدّد فيه الشكل البياني وحدَه، أما الموضوع فلم يعد يتطلّبُ المزيدَ!

هذا الموضوع الذائعُ الجهيرُ قد فتحَ الله فيه على الكاتب بمدّ جديدٍ حينَ وقف وِقفةً متأنيةً أمام انصراف المشركين عن غار ثور يومَ الهجرة دون أن يلجوه، وقد انقطعتْ أمامَه آثارُ الأقدام، وتعيّنَ أن يكون مأوًى للمهاجرَين، فيذكر الكاتبُ أنَّ القرشيين كانوا أحرص الناس على العثور على النبي ﷺ تخلّصاً مما سيجره عليهم من الحروب والمنازعات لو سَلِمَ بنفسه، واستقرَّ بالمدينة، وقد دلّهم القائفُ على أنَّ آثار الأقدام قد انتهت عند الغار.

وكان للعرب ثقةٌ مطلَقةٌ في قافتهم، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجودِ الغار، ومع عدم استحالة الولوجِ فيه من أعجبِ ما يُروى من الأحداث.

يقول الكاتب مستطرداً[1]: «رضينا أن نظنَّ أن يكونوا قد تهيَّبوا النزول إلى الغار لتفتيشه، وأن يكونوا قد تخيّلوا أنَّ من ينزله تنوشه أفاعيه وتُرديه، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيّلَ أنّهم يتركونه، ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياماً وليالي، حتى يتحققوا من خلوّه، وإلا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال في أمرٍ يعدّونه أخطر الأمور.

ولسنا نكتفي بهذا، ولكنا نقول: كان يجبُ عليهم أن يقيموا في كلِّ طريق يمكن أن يتسرّبَ منها إلى يثرب كوكبة من الفرسان، تقطَعُ

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الحادي عشر، ص٨٣.

الطريقَ على خصمهم، فإذا لم يفعلوا مع تحلّيهم بأرفع صفات الحيطة الحربية، فإنَّ إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه، ولكنّي التزمتُ في هذه السيرة ألا أتجاوز أصول الدستور العلمي، فلا ألجأ إلى الظن في موطنٍ يمكن تفسيرُه بالعلل الطبيعية، وحياةُ النبيِّ ﷺ حافلةٌ بالآيات الدامغة، فلا حاجة بها إلى ما يمكّن الخصومَ من تجريحه، لذلك فأنا أفسّـره بأنه تغابٍ من قريش عمّا هم بصدده، كما تغابوا عن هجرة كبارِ الصحابة إلى يثرب، كأنّهم اكتفوا بأن يبتعد عنهم النبي ﷺ إلى حيثُ لا يراه العرب في موسم الحج، فيفتتن بعضهم بشدة بيانه، وقوة عارضته».

ولنـا عند هذا الكلام وقفـة! فقد قال الكاتب: إنّه لم يذهب في تعليلـه لهذا النكوص عن تتبع الرسول ﷺ إلى أن الله قد صرفهم عنـه مُماشاة للعلل الطبيعية، والتزاماً بأصول الدستور العلمي! لأنّه قدّر في نفسه أنه يخاطِبُ بكتابه خصومَ الإسلام، الذين يضيقون بكلِّ تعليل غيبي لا يتماشى مع ما يلتئم حسياً مع الأحداث! مع أنّه في تحليله لموقف الأوس والخزرج من المسارعة العاجلة إلى الانضواء تحت راية الإسلام، وهم يعرفون ما سيترصدهم من تبعاتٍ ثقالٍ عقب هذا الانضواء!.

أقـول: إنّه ذهبَ في تحليلـه هذا الموقف إلى أنّه آيةٌ إلـٰهية فوقَ البحث! وإذا تعدّدت مواقف الدعوة الإسلامية التي لا تجدُ العلةَ الطبيعية المسلّمة، فإنَّ تعدّدها المتوالي يكوّن أصلاً علمياً جديداً، هو خضوع الأحداث لقوةٍ إلهيةٍ كبرى أعظم من أن تدركها عقول البشر بالتحليل! والاعترافُ بهذه الحقيقة يلزِمُ من ينكرون هذه القوة المسيطرة أن يأتوا

بتفسير علمي لما يرون من مظاهرها القاهرة، التي لا تتقيد بعرف أرضي!

فإذا عجزوا عن ذلك، وقد ظهرت آثارُ هذه القوة الإلـٰهية ماثلةً للعيان، فعجزُهم هو العيب الشنيع، الذي يجب عليهم أن يتداركوه، وليس لنا أن نستجلبَ رضاهم بالوقوف عند التعليلات الحسيّة وحدَها!

ولماذا لا تكون المعجزات النبوية التي ترادفت على أيدي الأنبياء جميعهم مسألةً علميةً، لها دستورها المطرد، الذي يتجاوز الطبيعي إلى غيره، فهي قياسية بالنسبة للأنبياء، ودليلُ صحتها العقلي والعملي ما صحبهم من توفيق استمرَّ أثره قروناً بعد قرون، ولن يوفَّق محترف كاذب في أمرٍ خدع به الناس.

وكم رأينا في صحف التاريخ من أناس خدعوا أتباعهم فترة محدودة من الزمن، ثم تكشفت الأحداثُ في حياتهم أو بعد مماتهم المباشر عن خديعتهم البلقاء، فأصبحوا موضعَ التحقير والازدراء!

وهذا نقيضُ ما حصل للرسل عليهم الصلاة والسلام، إذ عرف لهم الناس صدقهم الحقيقي، وانتشرت دعواتهم بعد رحيلهم انتشاراً يحمل عناصر صدقها البالغ! فثباتُ الدعوة الإسلامية واطرادها المتقدّم على توالي العصور مما يؤكّدُ هذه المعجزات الإلـٰهية، بل ممّا يجعل هذه المعجزات دستوراً علمياً خاصّاً برسل الله صلوات الله عليهم وسلامه.

على أنّي أرى أنَّ كفار قريش إذا كانوا قد أهملوا اقتحامَ الغار ـ كما قال الكاتب البحّاثة ـ فإنّهم لم يهملوا اقتفاءَ الرسول ﷺ وتتبعه، فقد

بذلوا في ذلك ما استطاعوا دون جدوى! ثم فرضوا المغريات من الأموال لمن يستطيعُ العثورَ عليه حيّاً أو ميتاً، وحادثة سُراقة بن مالك أشهرُ من أن تعاد! وإذن فقد أهملوا شيئاً وقاموا بشيء! وأينا يأخذُ الحذرَ في جميع أموره، فإنّك تجدُ أشدَّ العقلاءِ احتياطاً يفكّرُ ما يفكره، ويتخذُ التحفّظات الواقية، ويقيمُ الموانعَ الحاجزة ظانّاً أنه قد عمل لكلِّ شيءٍ حسابه، ثم يفاجئه الموقف بما يدلّ على نقص التدبير، ووجود الثغرات! مع أنه احتاطَ ثم احتاطَ، يخيّل إليَّ أنَّ الأمرَ في مسألة الهجرة بالذات قد جاء على ما نطق به الشاعر الحكيم حين قال:

وقايةُ اللهِ أغْنَتْ عَنْ مضاعفـةٍ ... مِنَ الدُّرُوعِ وعَنْ عالٍ مِنَ الأُطُمِ

ولسـنا بهذا التعقيب نضائل من اتجاه الأستاذ التحليلي، ولكننا نضيف شيئاً إلى شيءٍ ليطّردَ الحديثُ...

على أنّ ما امتازَ به الكاتبُ من النظر البعيد في الأحداث النبوية إذا أفحم المعارضين بدقته العلمية، فإنه يزيدُ المؤمنين إيقاناً فوق إيقان! إنّه يقفُ بعقله المنقب أمـام الحدث المشتهر، فيقلّبـه ذات اليمين وذات الشمال، حتى لا تكاد تخفى عليه خافيةٌ منه، ليستلهمه فنوناً من التحليل الصادق، تقنـع القارئَ المنصف بديهـة بقوتها النـافذة، وتحليلاتـه للغزوات النبوية هي الشاهد الأروع لما نقول، إذ اختطّ لنفسه أن يذكرَ أحـداث الغزوة كمـا يعرفها الناس جميعـاً، حتى إذا بلغ مـراده في أتمّ ما يرتجى من مثله من الوضوح المشرق، جعل يرسِلُ نظراته الجديدة

مشعَةً بضياءٍ جديدٍ، يَبْدهُ القارئَ بطرافته وقوته!

ونمثّل لذلك ببعض نظراته الصائبة في (غزوة بدر) حين قارن بين قوة المشركين العددية وضآلة الكم العددي، الذي لا يتجاوز الثلث لدى المسلمين، ثم استعرض أسلحة الفريقين، ليؤكدَ هذه الضآلة أيضاً! ثم يقول عقب ذلك: إنّ القائد الذي يدفع برجاله إلى معركة يعتقدُ أنّ عدوه متفوق فيها بكمّه وسلاحه، ويقول لجنوده مع ذلك: «أبشروا، والله لكأني أرى مصارعَ القوم» هذا القائدُ الذي يدفع بجيشه للحرب مع توافر أسباب الضعف المادي، لا يعقل أن يكون صادراً في معركته عن مغامرة إلا إذا كان يريدُ المجازفةَ بما يملك من نفس ومال وأهل، يقول الكاتب متسائلاً:

وما الذي كان يدفع محمداً ﷺ لذلك، ولم يكن مضطراً إليه بحال من الأحوال، فلا قومه قالوا له: قد غرّرت بنا، وادعيت أنك فائزٌ ولم تفز، لأنّهم كانوا هم الذين يطلبون إليه الرجعى بدون حرب، ولا مشروعه كان سيتعرّض للفشل لو رجع دون قتال، لأنَّ العدو لم يكن ينوي أن يهاجمه في عقر داره، ولو فعل لاستهدفَ للهزيمة، لأنَّ قوته لا تسمحُ له بالشروعِ في حربِ استئصال، ولا هو ـ أي رسول الله ﷺ ـ كان يخشى أن يتفرّقَ عنه أصحابه إذا عاد ولم يلق ملجأ، فقد خرجَ مراراً للاستيلاء على تجارة قريش، وعاد دون أن يعمل شيئاً لإفلاتها منه. فلم يؤثر ذلك في إيمان أصحابه به، فلم يبقَ إلا أنّه دفع قومه في هذه المعركة التي لم يستعدوا لها ثقة منه بما وعدَه الله من الفوز بإحدى الطائفتين، وقد

أفلتت إحداهُما، فلا بدَّ أن يصدُقَ وعدُ ربه في الأخرى، فدفع أصحابه إلى منازلتها، واثقاً بالنصر ثقةً لا حدَّ لها، لأنَّ الله لا يخلِفُ وعده: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٧] فحقّقَ الله ظنّه، وآتاه نصراً أيّد به حجته(١).

هذا نموذجٌ لبعض ما أشرنا إليه من نظرات الكاتب الدقيقة، وإنها لكثيرةٌ تزدحم بها الصفحات.

وقد أتاحَ نشرُ هذه البحوث مسلسلةً على صفحات (مجلة الأزهر) لكثير من العلماء أن يناقشوا بعضَ أفكارها في الصحف المصرية بعامة. وعلى صفحات (مجلة الأزهر) نفسها، فكان الأستاذ وجدي يترقّبُ كلَّ ردّ يوجَّه إليه ليعقِّبَ عليه في المجلة التي نشرته تعقيباً يتّسم بسعة الصدر، وحسن التقبل للاعتراض، وقد يكونُ في الناقدين من يدفعه الشطط إلى تهجّمٍ مسرفٍ، يقبُحُ أن يتجه إليه مَن أمرهم القرآن بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن، ولكنَّ الأستاذ في ردّه يترك هذه الأشواك المعترضة، دونَ أن يجازي ناقدَه بمثلها، بل كثيراً ما يلتمِسُ له العذرَ بشدة الغيرة، وعنف الحمية، ثم يهدف إلى اللباب الخالص، ليعلنَ وجهة نظره دون لبس! ولعلَّ الذين يشتطون في النقاش دونَ موجب أن يتخذوا العبرة من سلوك الأستاذ، فيفيئوا إلى الهدوء

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الحادي عشر، ص٣٨٩.

المتئد، لأنَّ الزبدَ يذهَبُ جفاءً، والقارئ الجاد يضيق بالتطاول والتزيّد، ويرى صاحبهما دون المستوى الجدلي اللائق.

ومن الذين ناقشوا الأستاذ وجدي على صفحات (مجلة الأزهر) فضيلةُ الأستاذ محمد عبد الله الجهني شيخ المعهد الديني بالقاهرة، حيث ذهبَ الأستاذ وجدي في حديثه عن الكتب التي أرسلها النبيُّ ﷺ إلى الملوك والرؤساء لعهده إلى الشك فيما روى من أنَّ قيصر الرومان حين جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا إليه أبا سفيان بن حرب، ونفراً من ذوي التجارة القرشية كانوا بالشام حينئذٍ، فسألهم عدة أسئلة عن الرسول ﷺ وعن آبائه، وهل عهد عنه الكذب من قبلُ؟ وهل ارتدَّ أحدٌ من دينه بعد اعتناقه؟ وهل كان النصرُ له في المعارك دائماً أو سجالاً؟ وبم يأمر أتباعه؟.

وقد أجاب أبو سفيان عن كل ما سأل! ثم قالت الرواية: إنّ قيصر لما كان بحمص جمعَ عظماء الروم وأمر أن تغلق الأبواب، وقال لهم: إنّ الفلاحَ والرشدَ في متابعة هذا النبي، فهاج الحاضرون، وصاحوا صيحة حُمُرِ الوحش، ونفروا إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلمَّا رأى قيصرُ هياجَهم طمأن خاطرهم، وزعم أنه كان يختبرهم فحسب! هذه الرواية الذائعة لم تجد ارتياحاً لتصديقها من نفس الكاتب، فأعلنَ أنه يشك فيها، وأنَّ إجماعَ كتب السيرة عليها لا يمنعُ دون نقدها، إذ لا يعقل في منطق الكاتب أن يكونَ قيصرُ الروم من سرعة التصديق بحيث يعتمدُ في

إيمانه على رواية رجال لا يعرفُ مبلغَ صدقهم فيما يقولون، ولم يسألهم عما يجبُ أن يسألهم عنه ذو دين قائم عن الأسباب التي دعت إلى نسخ دين، يتمسّك به، بدينٍ جديدٍ:

وإذا لم تكن هذه الروايـة مختلقـة كلّها، فيمكن أن تحال إلـى ما يمكن حدوثه عادةً، كأن يُظن أنَّ حبَّ الاستطلاع حملَ إمبراطور الروم أن يستحضِرَ مَنْ كان في مملكته من التجار ليسألهم رأيهم عن الدين الجديد، أما أن يتحوّل إليه بهذه السرعة ويدعو إليه قومه، وهم من أشدّ المسيحيين تمسكاً بالمسيحية، فمما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه[1].

هذا ما اتجه إليه الأستاذ وجدي، وهو ما لم يصادف قبولاً لدى الأستاذ الجهني رحمه الله، فكتب نقداً هادفاً نشره الأستاذ وجدي بمجلة الأزهر يقول فيه ما ملخصه: إنّ الأستاذ يرى أنَّ تمسّك النصارى الشديد بدينهم يحولُ دون سرعة التصديق المباشر في غير اتئاد، وأنَّ هرقلَ لم يكن من سرعة التصديق بحيث يعتمد في إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغهم من الصدق، ويرد الأستاذ الجهني على ذلك فيقول:

إنّ المطلع على (صحيح البخاري) يرى أنَّ (هرقل) سأل عما يجبُ أن يُسأل عنه، وأسئلته في منتهى الدقة، تدلّ على عقل ناضج، وعلم واسع، حتى أعجب به رواة الحديث، وقد علمَ أنَّ أبا سفيان ومَنْ معه

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الثاني عشر، ص٣٩١.

أعداء للنبيِّ ﷺ، فكلامهم الذي يشهدُ له لا يجوزُ أن يكونَ موضعَ ريبةٍ لأنه شهادة عدو.

ثم تساءل الأستاذ الجهني: هل كان النصارى يعتبرون أنَّ ديانتهم قد تمت، ولا نبيَّ بعد عيسى، وأنهم كانوا من التمسك بدينهم بحيث يستحيل أنَّ أحداً منهم يسلم بسهولة، أو أنَّ الأمرَ بالعكس، أي كانوا يترقبون نبيّاً آخر، وأنَّ منهم من هو سريعُ الانقياد إلى الحق متى ظهر[1]؟

ويجيب الأستاذ على تساؤله بالاستشهاد بقوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٣]. فالقرآن ـ كما يرى الناقد ـ يقرّر جملةَ حقائق عن النصارى:

١ ـ أنهم أقربُ الناس مودةً للمؤمنين، وهذا يستلزم أنهم أقرب لهذا الدين.

٢ ـ أنّ شيمتهم التواضع، وعدم الاستكبار والاستنكاف عن قول الحق.

---

(١) كالنجاشي مثلاً. (الناشر)

٣ ـ وأنّ منهم من إذا سمعَ القرآنَ فاضت عينه بالدمع[١].

ويتبع ذلك كله في منطق الأستاذ أن يكون هرقلُ قد استجابَ سريعاً إلى كتاب الرسول ﷺ وأن يكونَ قد دعا قومَه إلى الإسلام، فحاصوا حيصةَ حمر الوحش.

هذا لبابُ ما قاله الأستاذ الجهني مع أشياءَ جزئيةٍ تتصل بالحواشي والأطراف.

وقد ردَّ الأستاذ وجدي على مقاله متتّبعاً كلَّ ما جاء فيه، وكيلا يمتدّ بنا الحديث إلى شعبٍ كثيرة، فإننا نكتفي بالاستشهادِ بما ردَّ به على موقف المسيحيين بعامة من الرسول ﷺ حيث قال[٢]:

لم ير فضيلةُ الأستاذ من حقّي أن أرتابَ في سرعة تصديق إمبراطور الرومان معتمداً في ذلك على الآية القرآنية التي قررت أنَّ النصارى أقربُ مودةً من سواهم إلى المسلمين، لأنَّ من أخلاقهم التواضع وعدم الاستكبار، فهي تمدحُهم بهذه الخلال، ولا يقرن هذا المدح بالذم بأن يتهموا بسرعة التصديق، وقد مدحَ الله المتثبتين المطالبين بالدليل، ولم يمدح سريعي التصديق.

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الثاني عشر، ص٤٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠١.

ولو استعنا بالتاريخ في هذا الموطن لرأينا أنّ النصارى كانوا أبعدَ تصديقاً من جميع الأمم، وقد وقفت دولهم للإسلام في أول ظهوره وقفات، لولا أنْ كتبَ الله له الغلبة والانتصار لقضت عليه وليداً، وقد دخلت أمم برمتها في الإسلام كالفرس والديلم والترك، وجماعات غفيرة أخرى، تعدّ بعشرات الملايين في الهند والصين وغيرها إلا الأمم النصرانية فإنّها تمسكت بعقيدتها إلى أبعد مدى.

أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهو قول صريح في أنّ الذين فاضت أعينُهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبيِّ ﷺ من قبلُ، وآمنوا بالقرآن، فلا عجبَ أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا، وليس هذا بعجيبٍ من قومٍ تذوّقوا طعم اليقين.

هذا نمطٌ من النقاش يغني فيه ما ذكرناه عما تركناه، لأنّه يدلُّ على اتجاهه ويشي بمنحاه، وليس لي أن أفصِّل بين المتناقشين، فقد وقف معي القارئ على أدلة كلِّ مناقشٍ، وله أن يتجه إلى ما يرضاه، وقد امتدَّ النقاش في مقال آخر متجهاً إلى أمورٍ ذُكِرَتْ عرضاً في المقال الأول، وتطلّبت الردَّ الحافل بالنصوص والمراجع وقد ختمه الأستاذ وجدي بقوله[1]

(١) مجلة الأزهر: المجلد الثاني عشر، ص٥٣٨.

إنّ غرضنا من هذا كله أن ننفي عن السيرة النبوية كلَّ ما يثيرُ أعاصيرَ الجدل، مكتفين بالمسلَّمات من الحجج، والمقررات من البينات، وهذا أفعلُ في التأثير من الاستكثار مما يهيّجُ المنازعات، ويدعو إلى المناظرات.

وإخال الرجل على صواب في منحاه إذا توجّه بحديثه إلى الخصوم، أما إذا خاطبَ الكافة من المسلمين فله أن يتبسّطَ كما يشاء، وقد أخذ الأستاذ وجدي لنفسه عبرةً بالغةً في التحرّي الدقيق، إذ وجد كتباً مريبة ألّفها المبشّرون، ومَن لفّ لفّهم، تجمع الغرائب المنكرة[1]، مما سجّله السابقون بحسن نيّة في كتبهم، فنقلوها على علاّتها مطردة إلى مصادرها، وقدّموها لقرّائهم على أنها حق واقع كتبها علماءُ المسلمين من المتخصصين دون أن يتزيّدَ عليهم متزيّدٌ.

ومن أمثلة ذلك ما قام به الكاتبان الفرنسيان (لوميريس) و(جاستون دوجاريك) من وضع كتاب في السيرة المحمدية، ذكرا في مقدمته أنّهما يوردان سيرة نبيِّ الإسلام كما كتبها أتباعه، لا يزيدون حرفاً واحداً، وهو خُبْثٌ مقصودٌ، إذ يوحي للقارئ الأوروبي أنَّ هذه الأساطير المكذوبة، والروايات الملفّقة حقٌّ لا مريةَ فيه! وأيُّ سبٍّ للإسلام أبلغُ

(١) رد الأحاديث الموضوعة والضعيفة مفهوم، أما غير المفهوم وغير المعقول فهو رد الأحاديث الصحيحة كحديث هرقل مع أبي سفيان!! (الناشر)

من أن نجعلَ الخرافات المكذوبة تاريخاً لنبيّه ومقوّماً أصلياً من مقوماته، وأيُّ تشويهٍ لتاريخِ المسلمين أنكى من جمع هذه الخرافات التي كُتبتْ في مصادرها الأولى بنيّة حسنة، ثم جاء من استغلّها استغلالاً دنيئاً، فجمعها في كتاب كبير، وحرص على إذاعتها بين أيدي الأعداء والموتورين، وتلك خيانة علمية لا نظير لها، لأن جامعي الكتاب يعرفان قيمة هذه الروايات عند رواتها، ويعلمان أنّهما يجمعان كلَّ ما قيل لا على أنه حق، بل على أنه أشياء تحتمل التصديق والتكذيب، وأن إسنادها إلى رواتها يعفي الجامعَ من مسؤوليتها! فإذا كان هذان الجامعان المغرضان يعرفان طريقةَ التدوين في الكتب الأولى، ولم يكشفا عنها لقرائهما، بل سردا المكذوبات وكأنها حق، فلا تدليسَ أشنعُ مما ارتكباه! ولو رُزق الأوائل حذراً حريصاً في اختيار ما يقال لأعفوا من شرٍّ كثيرٍ.

وقد اكتفى الأستاذ وجدي بالسرد التاريخي في أبوابٍ قليلة، لم يجد لديها ما يستحقّ الوقوفَ المتئد، كحديثه عن السرايا، وعن غزوةِ يهودِ خيبر، وجلاءِ بني النضير، وعن الوفود المتعاقبة على المدينة وغير ذلك، وكأنّه رأى فيما ذكره من التحليلات في الفصول المماثلة ما يغني عن الإعادة.

ولكلّ كاتبٍ هدوؤه الذي يدفعه إلى البسط والتحليل، وتعجله الذي يدفعه إلى الردّ المتسرّع، إذ ليست ظروف الكتابة لدى من يزاولونها ممّا تسير على نمط واحد لا تتعدّاه، وكاتبُ السيرةِ التحليلي يشعرُ بتهيّب شديدٍ في كل ما يخط مخافةَ أن يزلَّ إلى خطأ غير مقصود، فيتحمل تبعة

نفسيّة تؤرقه وتضنيه، إذ ليس من يؤرّخُ لنبي الإسلام ﷺ كمن يؤرّخ لبطل عاديّ من رجال التاريخ، فمؤرّخُ النبي ﷺ يتحدّثُ عن رسول قدوة في فعلـه وعمله، وأيُّ تفسـيرٍ خاطئ لموقف من مواقفه يكونُ مظنـةَ خطورةٍ محققّةٍ! ولكن له أن يخطأ دونَ حذرٍ في تفسير مواقفِ غيرِ الرسل ممّن يخطئون ويصيبون، فتقفُ أخطاؤهم عند تاريخهم، ولا تتعدّاه إلى اقتداءٍ واحتذاءٍ، لعلَّ هذا الحذرَ البالغَ هو الذي جعلَ الأستاذَ يقتصد في تعليقـه، إذا لم تنفسحْ أمامه أبـوابُ الكلام عن طبيعـة لا تكلّف فيها ولا احتيال.

ولا نتركُ القارئَ دون أن نلفته إلى ما افتتح به الكاتبُ حديثَه عن فتح مكة، حيث أفاضَ في إبداع ذاتي هداه إليه التوفيق السديد، إذ حلّل سهولةَ هذا الفتح ويسره الهيّن على غير المتوقع المنتظر، إذ كان المظنونُ بعاصمة الشرك أن تكونَ حصينةً منيعةً لا تقع في أيدي الغازين إلا بعد أن تسيلَ حولها أنهارُ الدماء، وها هي ذي قد أسلمت مفاتيحَها دون مقاومةٍ تستأهلُ الذكرَ، فكيف تأتّى ذلك على غير توقع، لقد مدّ الأستاذ مسباره التحليلي إلى أعماق الأحداث، فرصدَ الأسباب الحقيقيةَ التي أسقطت الثمرةَ النـاضجةَ دون جهد، وحصرَها في خمسـة أسباب نشـير إليها فحسب دون أن نلخّصها، ليرجع إلى استيعابها مَن يشاء.

وقد ختم حديثَه عن الفتح الأعظم بكلمة رائعةٍ للكاتب الإنكليزي (توماس كارليل) في كتابه (الأبطال) حيث قال عن رسول الله ﷺ في تقدير وإعجاب:

«ماذا يطلب من رجل يدّعى أنه بنّاءٌ من دليلٍ على دعواه أكبرُ من أن يبني بيتاً يأوي إليه الناس، وقد جاء محمد فادّعى أنه نبي، ونشر ديناً اتبعه مئتا مليون من النفوس، ووجدوا فيه سعادتهم، وبقى هذا الدين قائماً أكثر من ألف ومئتي سنة، فأيُّ دليلٍ يُرادُ منه أن يقيمَه على نبوته بعد هذا؟»[1].

نطيلُ الاستشهاد لو حاولنا أن نسجلَ ما اهتدى إليه الأستاذ من إبداعات في التحليل النفسي، والتشريح الاجتماعي لما يتناول من أحداث، لأنَّ توفيق الله يصاحبه كثيراً فيما يزاول من هذا التحليل، وقد أُوتيَ مقدرةً فائقةً على أن يتدسّسَ إلى نفس قارئه بأيسر اللمسات، فيستولي على تقديره حين يوجِزُ، وحين يسهِبُ معاً، ولعل من خطراته الرائعة ما عقّبَ به على تقسيم الغنائم يوم الطائف، حين غمرَ الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بالعطايا، وترك كبار المهاجرين والأنصار، وقد رضوا بذلك حين استمعوا إلى وجهة نظر الرسول ﷺ!.

وقد تعمق الكاتب هذا الموقف تعمقاً اهتدى به إلى قوله السديد:

«لا يبدونَّ إلى ذهن القراء أنَّ المجتمع الإسلامي قام على تصيّد الأنصار بالمال أو بالإرهاب، أو بغيرهما من الوسائل المادية، التي تستهوي النفوسَ، وتستولي على الأهواء، فإنّ نظرةً عُجلى إلى ما حدثَ

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الرابع عشر، ص١٩٩.

في هذه الواقعة تنفي ذلك بدليلٍ محسوسٍ.

وذلك أن النبيَّ ﷺ أعطى الأمـوالَ التي غنمها إلى الذين كانوا لا يزالون مشركين، وإلى الذين أسلموا بأفواههم، ولـم تؤمن قلوبهم، وحرمَ منه أنصاره ومؤيديـه الذي حصل له هذا المال باسـتماتتهم في نُصرته، وتعرّضهم لأفدح الأهوال في تأييد دعوته، فلو كان أمرُ المجتمع الإسـلامي قائماً على هذه الأغراض الزائلـة لكفى هذا العملُ في حلّ جماعتـه، أو على الأقل لحدثت فتنةٌ تعرِّضُ وجودهم للخطر، وقـد شوهد أنه لم يحدث شيءٌ من ذلك.

على أنَّ مَن يرجع للتعاقد الذي حدث بين رسول الله ﷺ والذين انتدبوا لحماية دعوته من أهل يثرب، يرى أنّهم لم يعطوا مقابلاً لجهادهم غيـرَ ثواب الآخرة، فإنّهم لما اجتمعوا في الهزيع الأخيـر من الليل في بعض شعاب مكة، وعرض عليهم النبيُّ ﷺ ما يطلبُ منهم أن يبذلوه من التضحيات في سبيل الإسلام، سألوه: وما لنا على ذلك يا رسول الله؟ فقال لهم: الجنة، فأجابوه: رضينا بذلك، ثم انصرفوا»[1].

وللأستاذ إبداعٌ مماثل فيما افتتحَ به الحديثَ عن غزوة مؤتة، وفيما عقّبَ عليـه من حديث حجـة الوداع، إلى أن ختم حديثَـه بالكلام عن التحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى، وتركه أصحابَه على المحجّة البيضاء.

---

(١) مجلة الأزهر: المجلد الرابع عشر، ص٣٠١.

إلى هنا تمّ حديثُ الأستاذ عن حياة الرسول ﷺ، ولكنّه شاء أن يتحدّث عن مبادئ الإسلام تحت العنوان الذي اختاره وهو: (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) فشرعَ في كتابة بحوث متتالية قال: إنّه يخصها ببحثِ الروابط التي جعلت من الأمة الإسلامية وليداً مستكمِلَ الخلقة، صالحاً للبقاء على أكمل وجه[1]، فكتب ما يقربُ من بضعةٍ وعشرين فصلاً في تقرير مبادئ الإسلام، وإيضاح أثره العالمي في إصلاح الكون وهدايته، وما دعا إليه من حوافظ قوية تحمي الإنسانية من الانهيار، ولا نُبالغ إذا قلنا: إنّ هذه البحوث هي من خيرِ ما كُتب عن رسالة الإسلام في القديم والحديث، ولكنّها لا تتصل اتصالاً عضوياً بسيرة رسول الله ﷺ، وقد قمتُ بجمعها في كتابٍ مستقل تحت عنوان (فصولٌ من سيرة الرسول ﷺ).

هذا وأنا على يقنٍ من أنَّ القارئ العزيز سيحتاج إلى مراجعة كتاب السيرة المحمدية في أصله المستقلّ بعد أن لمس بعض ومضاته في هذه الصفحات



(١) مجلة الأزهر: المجلد الخامس عشر، ص١٣٣.

المرأة المسلمة

ظهر كتاب (المرأة المسلمة) للأستاذ فريد وجدي ردّاً على كتاب (المرأة الجديدة) للأستاذ قاسم أمين، وهو نقدٌ موضوعي ينظر إلى الحقائق الاجتماعية نظرةً بعيدةً عن التحيّز المغرض، وأقول: نقدٌ موضوعي لأنّ بعض الغُلاة مِمّن واجهوا قاسم أمين رحمه الله قد تركوا ميدان الجدل النزيه إلى نوع من السباب والتهكم، فلم يُقْنِعوا القارئ في شيءٍ، إذ ضاعَت آراؤهم في لُجج التطاول الكريه، أما الأستاذ فريد فقد ضَرَب المثل الرفيع في عفّةِ النقد ونزاهته، وبذلك أصبح كتابُه مرجعاً علمياً في قضية المرأة، وصار أعلامُ الفكر الحديث يرجعون إليه مستشهدين.

لقد بدأ الأستاذ ببحث تمهيدي عن المرأة في الغرب، وهو بحثٌ ضروري هادف، لأنَّ نفراً من المصلحين لدينا يَجْعلون أوروبة قِبلَة الإصلاح، وقد ضَرب قاسم أمين أمثلةً شتّى لنهضة المرأة الأمريكية والأوروبيّة مُثْنياً منّوهاً، ولكنّه شهد الله أثْنى على الحسن من أفعالها، وهجّن القبيح من استهتارها، ولم يرها نموذجاً يحتذى في كل سبيل، وجاءَ الأستاذ وجدي ليُعطي صورةً مقابلة للصورة التي أوضحها الأستاذ قاسم أمين، وليسَ معنى ذلك أنَّ محرر المرأة قد قالَ ما لم يكنْ حاصلاً،

ولكنّ معناه أنهُ اقْتصر على شيءٍ وتركَ شيئاً آخر، ووظيفةُ الناقد أن يكمّل النقص، ويضع النقاط على الحروف.

بدأ الأستاذ وجدي فأشارَ إلى تأخر المرأة الأوربية قبلَ عصر النهضة الحديثة، إلى حدّ أن يُحرَّم عليها الضحك وأكل اللحم، ثم حَدث الانقلاب الهائل الذي منَحها ما لمْ تفكِّر فيه، فأصبحَ من النساء طبيبات ومهندسات ومحاميات، وهذا في ظاهر الأمر، ولكنْ بجانب كلّ مهندسةٍ أو طبيبة أو محامية آلافٌ من بنات جنسها ينُؤْنَ تحت كلاكل الأعمال الشاقة، وتلفح وجوههنَّ النار.

أجل، غصَّتِ المصانع بالنساء الضعيفات، وشُحِنت بهنّ المخازن، مقابل أجور لا تبلّغهنّ لقمةَ العيش إلاّ بعسرٍ عسيرٍ، وقد سَبقهن الرجال بقوّتهم فنالوا من المكاسب المادية ما عجزْن عن نيله.

ثم نقلَ الكاتب آراء المتخصّصين في هذا المجال ممّن رَأَوْا ذُلّ المرأة في المصنع والمعمل، دُون نظرٍ إلى ضعفِ قواها الجسمية كأن يقول الاقتصادي الشهير (جول سيمون): «صارَ النساء لدْينا نسَّاجات وطَبّاعات، استخدمتهُنّ الحكومة في معَاملها، ولكنهنّ قوّضنَ معالم الأسرة! لقد أصبح آلافُ الآلاف وعشرات الملايين من النساء في أوروبة تُصْهَر أجسادَهنّ الرقيقة نيرانُ المصانع، وقسوةُ المنافسات».

والتفت الأستاذ إلى ما يفتنُنا في مصر حينَ نرى أسراباً من السائحات الأوروبيات يفدْنَ إلى البلاد متطلّعات إلى زيارة الأهرامات،

وغيرها من الآثار، فيوهِمْن الناظر السطحي أنهنّ بلغْنَ غايةَ الغايات في المدنيّة، وأنّ رجالهنّ قد حصلوا بهنّ أقصى ما في الراحة المنزلية، والحالُ غير ذلك، لأنهنّ مرهقات طيلة العام، وجئْن لينفّسْن عن الخناق.

لقد تحدّث الروائيون عن الخراب المنتشر في المنازل بسبب إهمال ربّات البيوت واجباتهن الأُسرية، واندفاعهنّ إلى مطالب التزيّن والتجميل، وما يجّرُ ذلك من التبذير السفيه، فكيف النجاةُ من هذا الداء الذي يُفرَض على المدنيّة الحالية، ويهدّدها بالسقوط، وإن شئتَ فقل بانحطاط لا دواءَ له.

ثم انتقلَ الأستاذ إلى إحصائياتٍ رسمية تُثبتُ انتشارَ الطلاق بين هؤلاء المتبرجات، المُفتنات في المظهر الخارجي، فذكَر ما يطولُ بنا القول لو حاوَلْنا إيجازَه، فضلاً عن سرده التام، ثم نقل ما انتهى إليه الإحصاءُ السنوي الأخير، حين قالَ كاتب الإحصاء تعقيباً على ما قدّم من الأرقام: «إنَّ الطلاق ينتشر لدينا بسرعة عظيمة، والمدهشُ أنَّ ثمانين في المئة من طَلبات الطلاق آتيةٌ من جهة النساء! مما يدلُّ على أنّ الرجل ذو أثر ضَعيفٍ في حلّ رابطة الزواج، لأنّ الطلاقَ يخجله كرجل، ولذلك نراه إذا تعب من زوجته بحثَ عن امرأةٍ سواها (تأمل) ولا يسعى إلى الطلاق. !

ثم تطرقّ الأستاذ إلى ما ذكره علماء الاجتماع في أورّبة من خطرِ مشاركة المرأة للرجل في العمل الخارجي، حين جرَّتْ هذه المشاركة

البطالَـة لدى كثير من النساء والرجال معاً، ولـو خَلُصت المرأة للبيت وحده، وتـركتْ زوجها للعمل، لخّفت حِدّةُ البطالـة، ووجـد البيت والمجتمع استقرارهما على غير هذا النحو الأليم!

وكـانَ الأستاذ عاليَ الصوت حين أشـار إلى ما جـرّه **الاختلاط الأوروبي من النوائب**، إذ خدع الشبّابُ الشابات، فوعَدُوهّن بالزواج، ثم تخلصّوا من وعودهن، فأدّى ذلك إلى سوء العاقبة بعد ظهور الحمل! وأدّى أيضاً إلى انتحارِ فتيات شابّات، كنَّ في رونق الحياة.

وقد جاء في المجلد الحادي عشر من (مجلة المجلات الفرنسية):

«إنّه قد حصلَ في مدى خمس سنوات في فرنسة (٥٨٦٩) حادثة انتحار من النسوة وحدهنّ، بمعنى أنه ينتحر في كل عام نحو ألفي امرأة! ولو كانتْ هذه المعاشـرة المحرّمة قبل الزواج تضمن الارتباط العائلي فيما بعد ما حدثت هذه النكبـات، وأكثرُ المجلات الإباحيـة تَذكر أنَّ التعارف قبل الزواج سبيل الثقة والأمانً مع **أنَّ الأمر بالعكس تماماً**».

وهذا في صميمه يدلُّ على خطر الانقياد إلى المجتمع الأوروبي، وكأنَّه في نظرِ الأغرار والغريرات رمزُ التقدم الاجتماعي! والعجيبُ ـ كما يرى الأستاذ وجدي ـ أنّ القارئ الساذج لدينا إذا قرأ في صحيفة أجنبية حديثـاً عن الملاهي والمسارح العابثة، سارعَ إلى الإعجاب بما قرأ، ونعَى على الشرق ما يزعمه من تأخّره، وكأنّ الملاهي والمسارح وأماكن التبذل وحدَها هي عنوانُ التقدم الحضاري، دون نظرٍ إلى مظاهر التقدم

الحقيقي من نشاطات علمية واقتصادية واكتشافات جريئة، ! والواجبُ بإزاءِ ذلك أن نعرفَ الضارَّ من النافع بعيداً عن مظاهر الإغواء.

يقول الأستاذ (وجدي) شارحاً وجهة نظره:

«يرى بعضُنا أنَّ السبيلَ إلى تهذيب المرأة المسلمة تهذيباً مناسباً لحالة العصر هو اقتفاءُ أثر المرأة في المدنيّة المادية، ويجدُّ في طريق إشراب النفوس هذه الفكرة، ولكنْ علينا أن نتساءل: هل سيأتي ذلك في يوم من الأيام؟ إنَّ جسم الأمّة غير مستعدٍ لقبول هذا الدواء أصلاً، لأنّه يحتوي على مركبّات لا تنطبِقُ على مزاجه مطلقاً، ولنْ تنطبقَ عليه إلا إذا اكتسبَ مزاجاً آخر، فإذا أضفتَ إلى ذلك إحساسَ المريض بأنَّ هذا الدواء سيُحلّل أجزاءه ويبددها، فكيفَ يطمعُ الطبيبُ في إشرابه إياه وإرغامِهِ على اتّباع شروطه؟ ثم ماذا إذا كان المريضُ يسمعُ أنينَ الذين طُبّق عليهم هذا العلاج، ويرى بعينه حيرةَ أطبائهم في كيفيّة تغيير تركيبه، فكم يكونُ مقدارُ اليأس من قبول مريضنا له!»[1].

وبعدَ هذا التمهيد الكاشف انتقل الباحث إلى الفصل الأول وهو خاص بوظيفة المرأة في الحياة، كما يُفترض أن تكون، وثقافة الأستاذ (وجدي) الشاملة دَفعتْه إلى الاستشهاد بآراء الكبار من علماء الغرب وفلاسفته، وبخاصةٍ ما نشرته دوائر المعارف الأوربيّة، لأنّ كل مادّة من مواد هذه الدوائر قد قامَ بها متخصص فاحص، فهو أدْرَى بعناصرها.

---

(١) المرأة المسلمة، ص٢٩.

على أنّه لم يقتصر على هذه الموسوعات، بَلْ نقل ما كتَبه فلاسفةُ الاجتماع عن وِجْدان المرأة، ليعارِض به نصّاً نقله الأستاذ قاسم أمين منسوباً إلى (مانتجازا) وقبلَ أن أُشيرَ إلى النصيْن المتعارضيْن، أقرّر أنَّ علماء أوربة من اجتماعيّين وطبيعيين قد أكثرُوا الحديثَ عن المرأة، ما بيْن مجدّد ومحافظ، فمن السهل على من أرادَ اختيارَ منحًى خاص أن يجد لدى هؤلاء المتعارضين ما يؤيد دعواه، ومهمةُ القارئ المستنير هنا دقيقة، لأنّه يوازن بين ما نقله قاسم أمين وفريد وجدي موازنةً بصيرةً، ليختار من هذه النقول ما يراه أدنى إلى تفكيره، وتلك سبيل العلم في كل زمان ومكان، إذ لوْ شاء الله لجعل الناس أمّة واحدّة، ومن حسن الحظ أنَّ الكاتبين المتصارعين على خُلقٍ علمي عظيم، فليسَا ممّن يُزيّفون القولَ لحاجةٍ في نفوسهم، بل هما ممّن رزقهم الله نورَ العدلِ، فساروا في ضوئه.

ولنا أن نمثّل في الناحية الأولى بما نقله صاحب (المرأة الجديدة) عن العلاّمـة (مانتجازا) حيثُ تحدّث عن المرأة فقال[1]: «إنها أمـامَ التشريح ليستْ أقل من الرجل ولا أرقى منه، ولكنّها تختلفُ عنه، لأن لها وظائف تقوم بها غير وظائف الرجل، وإنَّ الرجلَ وإن امتازَ عنها بقوة عزيمته، فإنّها تمتازُ عليه في قوة الإحساس وتحمّل الآلام، وهي تصبُر على الأمراض والعمليات الجراحية صبراً يعجزُ عنه الرجل، وربّما كان

(١) المرأة الجديدة، ص٤٥.

السبب في ذلك أنّها أقلّ أثرةً من الرجل، أو أنّها اعتادتِ التسليمَ والخضوع

كما تمتازُ المرأةُ على الرجل بأنّها أضعفُ شهوةً منه، فالحبُّ عند الرجل ميلٌ شهواني إلى استيفاء اللذّة الجسدية، والحبّ عند المرأة ودادٌ قلبيّ غايتُه امتزاج الروحيْن، بدليل أنّ الرجال يستعملون جميع أنواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهنّ، والكثير منهم يدافعُ عن عرضه، ويتغلّب على شهواته، وأن حبّ المرأة للخير من المألوفات المشهورة، أما الرجلُ فيسودُ عنده حبّ النفس أوّلاً، ثم حُبُّ أولاده، بخلاف المرأة، فإنّها تفكّر أولاً في أولادِها، ثم في نفسها، فهمُّ الرجلِ أن يكون سعيداً، وهم المرأة أن يكونَ الغير سعيداً، وهذا الإحساس يشاهَد في جميع أحوال الحياة صفوها وكدرها، وأعظم مثال لإيثار المرأة هو حبّها لولدِها، إذ هي تحبُّه أكثر مما يحبه أبوه، بل يمكن أن يقال: كلّما كان ولدُها سيءُ البخْت زاد حبّها له، والأبُ عكس ذلك.»

وقبْل أن أنقلَ القول المعارض أقول: إنّ الخطأ في هذا الكلام قد جاءَ من قبيل التّعميم المطلق، فليس كلّ امرأة ذات حنانٍ، وليس كلُّ رجلٍ ذا قسوة، وقد عشْتُ أكثر من سبعين عاماً في هذه الحياة، فرأيتُ المرأةَ العاقّة والأبَ العاق معاً! ورأيتُ المرأة الحنون والأبَ الحنون معاً، في كلا الجنسيْن رأيتُ المرأة التي تهجر بيتَها، وفيه بناتُها وبنوها، دون أن تستشعر أدْنى رحمةٍ لرضيع، تتركُه لعاشقٍ خائنٍ غرّرَ بها، ورأيتُ الرجل كذلك يقتّر على بيته وأولادِه فلا يُنفق إلا النزر القليل، ويبذّرُ كلَّ التبذير في مباءاتِ الفسق، وحانات الفجور، كما رأيتُ من كلا الجنْسَيْن

الرحيم الشفيق، ولو قال (مانتجازا) إنَّ المسألةَ نسبيّةٌ فقط لعُذر بعض العذر، أما حبُّ الأم لابنها أكثر من الأب، فقد يكون ذلك بالنظر إلى الظاهر، لأنَّ الـرجل يكتم عواطفه، فـلا يُحِبّ أن تلوحَ أمام أولاده، ليعلموا أنهم محاسبون عنده على كل تقصير، فلا تغرّهم الشفقة البادية إن ظهرت، أما المرأةُ فلا تستطيع أن تجاريه في الكتمان، وقد تكونُ المرأةُ أشدّ حاجةً إلى ولدها الذي تعدّه درعها في المستقبل، فتبدي من الإيثار ما ينمّ عن هذه الحاجة التي تحسّها في أعماقها الباطنة، وإن لم تتبيّنها في وضوح، لقد أخطأ الكاتب خطأً واضحاً حين عمّم الحكم، وكانَ على قاسم أن يُعقّب عليه بما يردُّ الحق إلى نصابه.

أما ما دفعَ به فريد وجدي هذا القول، فنماذج مختلفة من آراء الكبار من علماء الاجتماع والفلسفة، وهي أيضاً منقودةٌ لما فيها من التعميم المطلق، شأنُها في ذلك شأن ما استشهد به قاسم أمين، فقد نقل الأستاذ وجدي قول (بردون) الفيلسوف الاشتراكي في كتابه (ابتكار النظام)[1]:

«إنَّ وجدان المرأة أضعفُ من وجداننا بقدر ضعف عقلها عن عقلنا، ولأخلاقها طبيعة أخرى غير طبيعة الرجل، فالشيء الذي تحكمُ عليه بالقبح أو الحسن لا يكونُ هو بعينه ما يحكمُ به الرجل.

كذلك المرأةُ بالنسبة إلينا تعتبرُ غير مؤدّبة[2] لاَحِظْها جيّداً ترَ أنّها

---

(١) المرأة المسلمة، ص٣٣.

(٢) في هذا اللفظ تجاوزٌ واضحٌ من (بردون) لا نقبله.

إما مُفْرِطةٌ أو مفّرطة في جنب العدالة، فإنّ عدم المساواة خاصيّة نفسها، فلا ترى عندها الميلِ لتوازنِ الحقوق والواجبات، وهو الميلُ الذي يُؤلم فقده الرجل، ويسوقُه إن لم يحصل عليه إلى الدخول في معارك، والشّيء الذي تحبّه المرأة أكثر من كل شيء، هو الامتياز والخصوصيات، أما العدالة التي تسوّي بين نفوس البشر، فهي بالنسبة للمرأة عبءٌ ثقيلٌ لا تتحمله».

وقبل أن أجاوزَ هذا النصَّ أعلِنُ أنَّ عدمَ حياد المرأة، والميل إلى الإفراط أو التفريط لا يكون منها إلاّ حينَ يتعلّقُ الأمرٌ بذاتها، أما إذا كانت حَكَماً في أمرٍ لايهمّها، فإنّ العدالة لا تبارحها غالباً، والحرص على الامتيازات والخصوصيات وليد شعور نفسي بحاجاتها إلى غيرها، وبأنّ هذه الامتيازات ستجعلها ذات رضا عن مستقبلها، وقد رأينا في السيّدات من ترجح عقلاً، وتستجيب للإنصاف في قضايا كثيرة لا تتعلق بذاتها، وإذنْ فالقولُ على إطلاقه موضع اعتراض.

أما تعليلُ انجذاب المرأة لكلِّ ما يفيدها، ويثبت قواعدها، فقد نقل الأستاذ وجدي عن (دائرة المعارف الفرنسية) قولها[1]: «يعلمُ الناس أجمع أنّ المرأة قد وهبتْها الطبيعة!! حبّاً حاداً لكلّ شيء لامعٍ، ولكل ما يزينها ويزيد جمالها، وهذا الحبُّ في ذاته يظهر أنّه شرعي محضٌ، لأنّ كل شيء فيها يجعلها محتاجة للتزين، وليسَ ذلك بالنسبة لتركيبها

---

(١) المرأة المسلمة، ص٣٢.

الطبيعي، ولكنْ بالنسبة لوظيفتها الاجتماعيّة، وهي الوظيفة التي لا يمكنُ أن تؤديها إلا بالجاذبية التي تُوحيها إلى النفوس، وأنّها تعرف أنّ قوتها تتعلّق بهذه الجاذبيّة؛ ولذلك فإن كل شيء ينفع للزينة، يؤثّر عندها تأثيراً شديداً، لاتقاومه إلا بصعوبة، إذ يوقظ لديها كلَّ أميالها، حتى إنَّ أعقلهنّ وأطهرهنّ لاتُستثنى من هذه القاعدة».

وفي الفصل الثاني: تحدّث الأستاذ (وجدي) عن وظيفة المرأة الطبيعيّة حملاً وميلاداً، ورضاعاً وتربيةً، وقد أفاض في ذلك إفاضةً مشبعةً حقاً، بحيثُ يحسّ القارئ أنّ هذه الوظيفة في أدوارها الأربعة جديرةٌ بأن تشغل فراغها كله، ولا تترك لديها فرصةً للعمل الوظيفي في الأشغال المختلفة.

وجاء في الفصل الثالث: خاصاً بالفروق الجنسيّة بين الرجل والمرأة، وأكثره منقول عن أعلام الغرب، وهذه النقول إذا اشتُهرت الآنَ لدينا بعد قرن كامل، فإنّها في زمن تأليف (المرأة المسلمة) كانت شيئاً جديداً، يُقابَلُ بالاستغراب لدى من لم يَقرؤوا نتائج التشريح العضوي، والتحليل النفسي من قبلُ.

أما الفصلُ الرابع: فمن أعمدة الكتاب الضرورية، حيثُ جاء تحت عنوان (هل تتأتّى حريةُ المرأة على الصفة التي يريدونها) وهو مليء بأقوال المشاهير ممّن ألزموا المرأةَ الاكتفاء بدورها المنزلي فحسب، وقارئ هذا الفصل يحسُّ أنَّ فريد وجدي يتابع قاسم أمين متابعةَ الناقد

المتابع، ولا يُصرّح بذلك في كلٍّ هذه المتابعات، ولكنّه يختارُ من أقواله أحياناً ما يضعه موضع التشريح، وأغرب ما يفاجأ به القارئ في هذا الفصل ما قرره الأستاذ وجدي[1] من أنّ المرأة الأوروبيّة أشـدُّ استكانةً للأسـر من المرأة الشرقية! وتعليل ذلك أنَّ الحضارة قد فرضتْ عليها التزامات في المأكل والمشرب والمسكن كثيراً ما تكونُ فوقَ طاقتها الماديـة، فلذلك تكدُّ وتكدحُ كي تصلَ إلى ما تُنافس به زميلاتها في التزيّي بهذه الزخارف الخادعة.

وقد دلّت الإحصائيات على انتشارِ أمراض الملاذّ والشهوات بين الأوروبيات انتشاراً لا يجدُ ما يكافئه من وسائل الدفاع الصحيّة.

ومن المفارقات أنَّ الأمم البدائيـة لا تشـعرُ بأمراض الحضارة الأوروبية، ولذلك فالرجلُ والمرأة معاً هناك أسرى هذه المدنية الكاذبة.

وأنا شـخصيّاً أصدق هذا القول بالتجربة، فقد كنتُ في صبـاي الغرير أسكنُ الريف الهادئ، وأرى أبْناءَه الفقراء لا يتمتّعون بشيء من مغريات المآكل والمشارب، وبعضهم لا يذوقُ اللحم إلاّ مرةً واحدةً في العام أو مرّتين في العيدَيْن، ومع ذلك قد يعيـش الشيخ حتى يشـارفَ التسعين، ثم لا يشكو مرضاً ما طيلة حياته، فانظرِ الآن إلى ما نراه من شتى الأوبئة التي تدهم الجنين ـ وهو لا يزالُ في بطن أمه ـ قبل أن يرى

---

(١) المرأة المسلمة، ص٥٩.

دنياه، فإذا استهلَّ صارخاً وجدَ من المزعجات المرضيّة، ما ينغّص حياة الأسرة، بحيث أصبحت مشاهدةُ الطبيب جزءاً مفروضاً، وكأنّه عملٌ يوميّ لا مفرّمنه! أليسَ هذا ما يذكّرنا بصواب من قال: **إنَّ الأمم البدائية كانت أعظمَ راحةً وأقلَّ عناءً من الأمم المتمدّنة، وأنَّ أهلَ الحضارة أصبحوا أسرى الملذّات، إذ صار الكماليُّ ضرورياً لديهم، فإذا فقدوه فقد حلَّ الحزنُ وابتأست الحياة**».

وهنا أقول ـ بعدَ مراجعة ما كتبه قاسم وفريد ـ إنّني لا أستطيعُ أن استشهدَ بجلّ ما ذكراه من آراء متعارضة لأقطاب الفكر الأوروبي، لذلك ساكتفي بمثالٍ واحدٍ ساقه قاسم أمين مؤيّداً وجهة نظره، ثمن أعقبه برد فريد وجدي عليه، ليُعطي هذا المثال نموذجاً لما يُشبهُهُ من الآراء المتضاربة.

فقد نقل قاسم أمين عن خطبة ألقاها رئيس ولاية (يومنج) قوله[1]: «مضى اليوم ستُّ سنين، ونحن نجرِّب النساء في استعمال حقوقهنّ السياسية، وما شاهدتهُ في هذه المدة أقنعني إقناعاً تاماً بأننا أصبْنا في تخويل النساءِ حقَّ الانتخاب، وانَّ مساواةَ المرأة للرجل في الحقوق السياسية قد نجحتْ بالتجربة نجاحاً لا يُماري فيه أحد.

وبعدَ ذلك بعامَيْن تعيَّن رئيس آخر فخطب قائلاً: لقد مضى ثمان سنين والنساء يتمتعن في أرضنا بالحقوق السياسية، كلّ يوم يمر يزيد من

---

(١) المرأة الجديدة، ص٩.

ثقتنا بالنساء، وهذه نتيجةٌ حسنة، لأنها في صالح أمتنا»، وتلا ذلك رأيٌ لأحد القضاة الأمريكيين قال فيه:

«ولم يترتبْ على اشتغال النساء بالوظائف الحكومية أنهنّ أهملنَ ما يجب عليهنَّ في منازلهنّ، ولم يصل إلى علمي أنَّ زوجاً قد اشتكى من زوجته بسبب اشتغالها عن مصالح منزلها بالسياسة العامة».

وقد عقّب الأستاذ فريد وجدي على ذلك بقوله[1]:

أمّا نحن فنتساءل: هل صحيحٌ قول القاضي الأمريكي، إنّ اشتغالَ المرأة بالمصالح العامة لا يعطّل وظيفتها الخاصّة؟ هل جاءَها المخاض وهي شاغلةٌ لمركز سياسي يسوّغ لها أن تترك المركز شهريْن ثم تعود إليه؟ وهلْ هي بعد ذلك ستتولّى تغذية ولدها على ثدْييها كلّ ساعتين مرّة أو أنّها ستتركه للمرضعات الجاهلات؟ وهل يجوز لها أن تترك تلك التربية الطفلية التي خَلَقها الله لها، وتشتغل بما يقوم به عشرات غيرها من الرجال؟ لا نظنّ أنَّ المؤلف ـ قاسم أمين ـ يَرضى بمثل هذه الحالة أبداً، لأنه هو الذي يقول: **«يظنّ الجمهورُ الأعظم من الناس أنّ التربية من الأشياء الهيّنات، ولكنَّ مَن يعرفها حق المعرفة يعلم أن لا شيء من الشؤون السياسية مهما عظم يحتاجُ إلى علم أوسع، ونظر أدق، وعناءٍ أشق مما تحتاج إليه التربية، أمّا من جهة العلم، فإنها تحتاجُ إلى جميع العلوم التي**

---

(١) المرأة المسلمة، ص٦٨.

تُوصّل إلى معرفة قوانين النمّو الإنساني والروحاني.

وأما من جهة المشقة والعناء فلأنّ تطبيق ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته إلى يوم بلوغه سن الرشد، يحتاجُ إلى صبرٍ ومثابرة في العمل، وإلى دقةِ ملاحظةٍ ومراقبةٍ قلّما يحتاجُها عملٌ آخر».

وفي ختام هذا الفصل حديث عن كساد الزواج، وكثرة الطلاق، في بلاد التمدن الحضاري، أترك للقارئ استيعابه في مرجعه، معَ ملاحظة أنَّ المحنةَ الآن قد ازدادت أكثر من ذي قبل، بحيث كثرت لدينا العوانس والعانسون إنْ صحّ هذا التعبير.

أما موضع الجدل الحادّ في كتاب (المرأة المسلمة) فهو موضوع الحجاب، وقد تعددت بَعْده الفصول التي تنتمي إليه؛ مثل: هل الحجاب علامة الأَسْر أو ضمانة الحرية؟ هل الحجابُ يمنع كمالَ المرأة؟ هل سيزول الحجاب؟ وهي فصول تستدعي الالتفات.

وأصارِحُ القارئ أني مع قاسم أمين في تحديد مدلول الحجاب الشرعي الّذي يَقتضي سترَ جسم المرأة. ما عدا الوجه والكفّين، فذلكَ ما ارتضاه فريق كبير من الفقهاء، وهو بذلك يحفظ للمرأة حريّتها، وسلامة طريقها، وعوامل صحتها، أما سترُ الوجه جميعه، وكذلك اليدان والكفان، فما أظنّه يضمنُ حريّةً آمنة للفتاة.

وقد كانت المرأة لعهد قاسم منعزلةً في قعر بيتها، لا تُرى ولا تتحدث إلاّ مع محرم فحسب، من أب أو ابن أو أخ أو زوج، وتظل قعيدة

بيتها، فإذا فارقته ـ على أبعاد واسعة ـ ففي هذا الغطاء الأسود المنسدل على الوجه وكأنّها خيمةٌ تتحرّك، وقد جعل الحجاب التام (النقاب) المرأة في حكم القاصر، لا تستطيعُ أن تباشر عملاً ما بنفسها، مع أنَّ الشارع يعترفُ لها في تدبير شؤونها بكفاءةٍ مماثلة للرجل، والتربية الحقيقية التي شرعها الدين لا تتأتّى على الوجه الأكمل مع هذا الساتر الحائل.

ويرى قاسم[1] أنَّ المرأةَ محتاجةٌ للرياضة كما يحتاج الرجل، ويلزم أنت تعتادَ ذلك من أول نشأتها، وتستمرّ عليه دون انقطاع، وما تقاسيه من آلام الولادة ربّما يزيدُ في ثقله على ما يعاينه الرجل من الأعباء طيلة الحياة، ولذلك صارت نساءُ القرى صحيحاتٍ سليماتٍ، لتعودهنّ العملَ البدني، أما نساءُ المدن فمحرومات من الحركة والشمس والهواء[2].

وقد دلّت التجارب على أنَّ الحجاب التام (النقاب) يجعلُ حياةَ المرأةِ صناعيّة لا طبيعية، وقد قال قائل: إنّ الحجاب لم يمنع تقدم المرأة في العصر الإسلامي الزاهر، وفي نطاق التمدن العربي الذي سيطر على العالم عدّة قرون، فأطال قاسم في تفنيد هذه الدعوى مستشهداً بالشهيرات من ربات الأدب والشعر والسياسة، وأن تَرَدّدَ في تصديق كلّ ما أثر عنهن في ذلك، وأنا لا أجدُ داعياً لهذا التردد، لأنَّ صحائف التاريخ قد سجّلتْ هذا التقدّم الفكري لبعض الفُضْلَيَات؟ لقد كان في

---

(١) المرأة الجديدة، ص١٥٧.

(٢) كان هذا على عهد قاسم.

مِكْنَةِ قاسم أن يعتبرَ ذلك دليلاً له لا عليه، لأنَّ الشاعرات والأديبات اللائي جالَسْن الخلفاء والوزراء لم يكنَّ متنقِّبات!.

هذا مُصَاصُ ما جاء في موضوع الحجاب في كتاب (المرأة الجديدة) أمّا ما جاءَ في كتاب (المرأة المسلمة) فَذُو تدفق مُسهب أيضاً، لأنّه تعقّب أكثر ما جاءَ في كتاب (المرأة الجديدة) تعقّباً بصيراً ناقداً، وإذا كان صاحبَ (المرأة الجديدة) قد اهتدى بحقائق كثيرة من علوم الصحة والسياسة والاجتماع، فإنَّ ناقدهُ تسلّح مثله بذخائر بالغة من هذه العلوم، وقد كانَ وقتهُ يتيحُ له أن يتضلّع في ذلك بأكثر مما تضلَّع فيه قاسم، إذ لم يكنْ ذا منصب قضائيّ يستهلك أكثر وقته، بل كان وجدي متفرّغاً للبحث العلمي، حتى عُدّ أحدَ أساطينه في العالم العربي كافة، **وإذا كنتُ قد أعلنْتُ سلفاً أني في مسألة الحجاب أنتحي وجهةَ قاسم أمين،** فذلك لا يمنعني أن ألمّ بوجهة النظر المخالفة فقد أعجبني قولُ الأستاذ وجدي[1]:

«أنا لا أنظر أنَّ في الحجاب (يريد النقاب) شرّاً، ولكنّي أعتقدُ أنّه مانعٌ من شرٍّ أكبر، وهو بهذا الاعتبار يعتبر خيراً، فالواجبُ علينا معشر الناس ألاّ نُتابع أميالَ أنفسنا في كلِّ شيءٍ، فإنَّ أكثر ما نطلبهُ لا نناله، وفي بعض ما نناله أشياء لم نكن نتوقّع حدوثها، ولو تجلّت لنا قبل تمنّيها في مظاهرها لكنّا بعدنا عنها بعد المشرقيْن».

ثم تعرّض إلى ما ذُكر عن مضار الحجاب من ضعف الصحة،

---

(١) المرأة المسلمة، ص١٤٣.

وسهولة وقوع المرض، وامتناع الخاطب من رؤية مخطوبته، ومن الحيلولة دون تلقي العلم، فنقضُ هذه الشبهات بما عنّ له في كلام جيد يجب الوقوف عنده في تمهّلٍ وتيئدٍ.

وقد كانتِ الحملةُ على الحجاب التام شديدةً لعهد الكتاب الأول، فقد قال الأستاذ: إنَّ الشدةَ القاسيةَ في استعمال الحجاب، ووضع مواصفات قاسية في ارتدائه دونَ أن يفرضها الدين هي أهم أسباب هذه القسوة، ومما أفاض فيه في هذا الاتجاه قوله[1]:

«تشدّد الحافظون لرباط الأخلاق في الحجر على كلّ ما ينافي الآداب والتقاليد، حتى كرّهوا الناس في الأعمال الدنيوية، وزهّدوهم في الحياة الأرضية، فلّما جاءت المدنيّة لم تكتف بالرجوع بالناس إلى طريق العدل المستقيم، بل قذفت بهم إلى مجالات الإباحية المطلقة، باسم الحرية الشخصية، حتى صار يُرتكَب باسم المدنية جرائم يستنكِفُ منها الحيوان الأعجمِ، وإذا كان السابقون قد تشدّدوا في معاملة المرأة حتى وضعوا في فمها الأقفال[2] فإن المدنية الحديثة لم ترضَ بالتوسط في إعطاء المرأة حقوقها، بل ألْقت بها إلى باحات الانطلاق، حتى صارتِ اليومَ تؤلّف الكتب البذيئة، وَتطلب فيها محوَ الزواج بالمرّة» اتجاهاً إلى المخالفة النكراء.

---

(١) المرأة المسلمة، ص١٥٣

(٢) كان ذلك في أوربة قبل عصر النهضة.

هذه إشارات إلى العناصر الهامة في الكتابين، وأنا أضعُ صاحبيهما معاً في مرتبة واحدة، من حيث الإخلاص التام لما يعتقد كلاهما أنّه حق، والمجادلة بالتي هي أحسن، ومن حيث النظر الشامل، والامتداد إلى آفاقٍ مترامية من البحث لا تنحصر في مجال ضيق، ولو سلك النقّاد مسلكهما الحصيف في طريقة التناول، ودفع الأدلة لكان تراثنا النقدي مما نتباهى به ونعتز.

على أنّ آراء الأستاذ وجدي بالنسبة إلى المرأة قد تطورّتْ بعد خمسة وأربعين عاماً، إذ أخذ يرقبُ موجات التجديد محذّراً من الانحدار، وداعياً إلى الارتفاع، حتى انتهى إلى إباحة إعطاء المرأة حقّ التصويت في الانتخابات، وحقها في التمتع بعضوية المجلس النيابي، وقد نشرتُ مَقَالَه هذا في كتابٌ (مناقشات وردود)[1]، وكان طَبيعياً أن يُحدث مقال الأستاذ نقداً عاصفاً، لأنّ ناقديه رجعوا إلى ما كتبه منذ خمسة وأربعين عاماً، واتخذوه حجةً عليه! والآراء العلمية تتّبدل وتتغيّر ما لم تَصدم نصّاً صريحاً من كتاب أو سنّة، ونحن جميعاً نرى في أفعالنا بعض ما كنّا لا نستسيغه من قبلُ، لتجدد النظرات، واختلاف الملابسات.

* * *

---

(١) مناقشات وردود، ص٣٨٥ جمع وتقديم الدكتور محمد رجب البيومي.

الناقد الموضوعي

تمهيد

لـو كان للأدب الديني تـاريخٌ معاصِرٌ يقوم به نقّاد اليـوم، لكانَ الأسـتاذ محمد فريـد وجدي في رأيهم الناقـدَ الأوّل في مجال الأدب الديني، حيث قضى حياته كلّها مذ زَاوَلَ القلم ناقداً بارعاً، يقرأُ ما يقع تحت يده من البحوث الدينيّة، ويقوّمُ ما احتاج إلى تقويم، ولو أردتُ أن أتابعَ صولاته العلمية في هذا المجال، فَحاوَلْت قراءةَ صحائف (الأهرام) و(الدستور و(اللواء) و(المؤيد) و(النظام) و(كوكبِ الشرق) و(السياسة) و(البلاغ) و(الجهاد) و(الأخبار) الرافعية، لألتقطَ ما دوّنه هذا الناقد العملاق لاَحْتاجَ الأمرُ إلى لجانٍ علمية ذات أعضاء كثيرين، وهذا بالنّسبة للجرائد اليومية فحسب، فكيفَ بالمجلات المعاصرة كـ(المقتطف) و(الهلال) و(الحديث) و(المنار) و(السياسة الأسبوعية) و(الرسالة) و(المعرفة) و(نور الإسلام) و(الأزهر)، ثم ما أَصْدَرَهُ من مجلات خاصة كـ(الحياة)، دَعْ عنك مؤلّفاته الخاصة بنقد مستقل لكتابٍ معيّن لِكل مثْل كتاب (المرأة المسلمة) وكتاب (نقد الشعر الجاهلي) وكتاب (نقد تقرير كرومر) وكتاب (ليس من هنا نبدأ) وإنْ لمْ يُجمع بعدُ في كتاب! أليست

هذه ثروةٌ تتطلّب الجمع أولاً؟ ثم التحليلَ ثانياً!.

لقد كانَ الأستاذ وجدي سريعَ التلقف لجلّ ما تُصدِرُه المكاتب العربية شرقاً، وما يقع تحت يده من البحوث الاسلامية مما يصْدُر في أوروبة غرباً، ليقرأ ويستوعب، وينقد ما يراه جديراً بالنقد، وطريقتُه النقديـة تدعو إلى التقدير، إذ لا يسـمحُ ليراعـه أن ينالَ من شـخوص منقوديه مهْما تطاولوا عليه ظالمين، بل يتجه إلى الآراء وحدَها مجادِلاً بصريح المنطق الـواضح، وهو في أحيانٍ كثيرة يؤيّد ما يتّفق مع وجهة نظره تأييداً يُحيطه الثناء، فلا تدري أأنت أمامَ مُهاجمٍ أو مدافعٍ، ولو سَلكَ الناقدون في كل علمٍ وفنّ مسلك الأستاذ وجدي لضاقَ نطاقُ الجدل في أقصر زمان عند الكثيرين من ذوي الإصاخة إلى صوت الحق، فإنّ هدوءَ الأستاذ في نقاشه الفكريّ كان أحياناً مثار دهشة معارضيه، فقد يَبْدَؤونه بالقول القارص، ويتجنّوْن عليه باختلاق ما لم يقل، ثم يجدون الردَّ الهادئ الملتمس للأعذار، فلا يدرونَ بأيِّ ستارٍ يتوارون.

نعرف جميعاً حماسةَ الدكتور زكي مبارك، واشتعال حرارته في مصاولاتهِ الأدبية والعلمية، وقد ناقَشه الأستاذ وجدي ـ وهو في مرتبه أساتذته ـ ملتزماً سماحته المعهودة، فَقَابلَ جَمره الحار بماء سلسال عذب، وحار الدكتور اتجاهه، ولم يسعْه إلاّ الاعتراف بنُبله النقدي، فقالَ في بحثٍ نشره تحت عنوان (النباتيون في باريس)[1]: «لقد جَرّبتُ

---

(١) الدكتور زكي مبارك، البدائع: ٢/ ٢٤.

بنفسي أثرَ المعيشة النباتية فوجدتُها خطرةَ العواقب، لأنّها تُخمد جذوةَ الافتراس في الإنسان، واللّحم هو أصلُ الافتراس، أمّا النباتُ فيضطر آكليه إلى الوداعة واللين، ولو شاءَ القطّ على نحافته لردع الجمل على ضخامته، لأنّ القط آكلُ لحم، والجمل آكل عشب، ولعلَّ هذا هو السرّ في أنَّ الأستاذ محمد فريد وجدي وهو نباتيّ كما نعلم، صارَ من ألين الكتّاب قلماً، فهو لا يُجادل إلاّ بالتي هي أحسن، ولا نرى في كتابته جملةً واحدةً تحمل معنًى من معاني العنف، وقد جَادَلْتهُ مرات على صفحاتِ (البلاغ)، فكان لطيفاً رقيقاً، أمّا أنا فكنت أتلطّف، وأترقّق، والفرقُ بعيد بين من يرقّ ويلطف بالطبع، ومن يتكلّف الرفق واللطف».

ويجرّنا هذا القول إلى عرضِ جوهرِ ما دارَ بيْن الأستاذ وجدي والدكتور مبارك من نقاشٍ على صفحات جريدة (البلاغ) إذْ ذهب الدكتور زكي مبارك، إلى أنّ النثر الجاهليّ كان موجوداً في هذا العصر، وأنَّ القرآن يمثّل هذا النثر، لأنّه نزل بسان الجاهليين، ولو لم يكن النثر الجاهلي محتفظاً بالسمات البيانية التّي جاء بها القرآن، ما كان لهذا الكتاب الخالد تأثيرُه في نفوس سامعيه، وهمْ أعلامُ الفصاحة، وأئمة البيان.

وهذا القولُ الخطيرُ يدعو معارضه المؤمن ببطلانه إلى الانفعال لخطورة منحاه، ولكنّ الأستاذ وجدي جرياً على هدوئه المتزن، نظَرَ إلى النّاحية الموضوعية دون سواها، فقال ما فحواه[1]:

---

(١) دارت هذه المعارك الأدبيّة في الصحف اليومية، وقام الأستاذ الجليل أنور =

«إنّ استدلالَ الدكتور زكي مبارك على وجود ذلك النثر الفني عند العرب بالقرآن لا يزالُ معلولاً، ولا يصحّ الإصرار عليه، لأنه إن كانَ القرآن وحْياً سماوياً، أو فيْضاً وجدانياً من أية طريقٍ روحانية، فلا يجوزُ الاستدلال به على أنّ لدى الجاهليّين نثراً، لانقطاع الصلة بين ما هـو إلـهي، وما هو بشريّ، ولأنّ هذا الكتاب قد اعتبرتْه أمّةٌ بأسرِها كتاباً معجزاً للإنس والجن مجتمعين، والشيءُ لا يُعتبر إلهيّاً ومعجزاً إلى هذا الحد إلا إذا كانَ فوقَ قُدرة الذين يَدينون بهذه العقيدة على الأقل.

كيف ينظَرُ أنْ يكون لفئام الناس من الأميّين نثرٌ فني، وهو نقيضُ الكتابة والتعبير (الحرّ) لو كانَ لهم شيء من ذلك، لَجعلوهُ كتاباً يُسجّل عقائدهم، ويحتفظونَ به لِكُلّ أمّة مُتديّنة، وإذا عُدِم هذا الكتابُ فقد عُدم النثر الفني، ولا يجوزُ السؤال عنه ولا البحث فيه.

هذا مثلٌ من النقاش الهادئ مع الدكتور زكي مبارك، أقرنه بمثلٍ آخر من النقاش الهادئ مع الدكتور[1] محمد حسين هيكل رحمه الله فقدْ تحدّث الدكتور عن الأدب المصري قبل الحرب العالمية الأولى، فَذكر أنَّ الغلبة فيه كانت لأنصار تقليد الأدب القديم، وكان السجعُ والإغرابُ في اختيار الألفاظ بعض ما يمتازُ به كتّاب هذا العصر، أمّا ما بعد الحرب

= الجندي مشكوراً بتلخيصها وتسجيلها في كتابه الرائع (المعارك الأدبية في مصر) وهو كتاب رائع يعجز القلم عن إيفائه حقه من التقدير والتحية.

(١) المرجع السابق نفسه.

فقد انطلقَ الأدبُ إلى التجديد، وجافى كلّ هذه المظاهر التقليدية!.

وإن كانَ الأستاذ فريد وجدي من كُتّاب ما قبلّ الحرب العالمية، ومعه فريقٌ لا يتّسم أسلوبُه بما وسمه به الدكتور هيكل مثل محمد عبد العزيز جاويش، والمنفلوطي، وعلي يوسف، ومحمد مسعود، وحافظ عوض وغيرهم، فقد رأى أن يُصحّح هذا القولَ فقال في هدوء[1]:

«أرى أنَّ إيراد تاريخ الأدب بهذه الصورة يَطْمس معالمه، فلم تحتدم (إذ ذاك) معركةٌ بين القديم والحديث في أساليب الكتابة، ولا في نقلِ الألفاظ العلمية غير العربية إلى العربية، ولا كانَ السجعُ والإغراب في الألفاظ مُميّزين للبلاغة العربية فيما قبل الحرب العالمية الأولى، والّذي يعرفهُ كلُّ مطلعٍ على تاريخ هذه اللغة أنّ الكتّابَ كانوا أحراراً في تخيّرِ أساليبهم ولم يحجر على كاتبٍ أسلوباً يتميّز به، إلاّ ما كان من استحسان الناس أو استهجانهم إيّاه.

لقد كان السجعُ وجهاً من وجوه المحسّنات اللفظيّة، ولم يقل أحدٌ إنّه الأسلوبُ المميّز للبلاغةِ العربيّة، وتخيُّر الأسلوب يرجعُ إلى ثقافةِ الكاتب العلمية، وقدرته اللّغويّة، فكلُّ ما شهدناه في هذا الباب أن شبّاناً ممن لم يتّسع لهم الوقتُ لدراسةِ العربيّة، يُريدون في نفسِ الوقت أنْ يكونوا كُتّاباً ونَقَدَة، فأكثروا من الكتابة في وجوب التحلل من قيود

---

(١) الأستاذ أنور الجندي، المعارك الأدبية، ص٣١٨، ط ثالثة.

العربيّة، والإشادةِ بسموّ الأساليب الغربية، وأكثروا من اللّغط حولَ هذه المسألة، ليُوهموا قارئيهم بأنّهم في طليعة أهل التجديد، **والواقعُ أنّهم قاصرون في اللّغات التي يدعون إلى اقتداء أساليبها قُصورَهم في العربية نفسها**، ولأجلِ أن يُعتبروا في الرعيل الأول من المجدّدين كان لا بُدَّ لهمْ من كلام يَلوكونه بألسنتهم، ويصرّفونه بأقلامهم كلما لاح لهم الكلام، فإذا طَلبت منهم أن يَستنّوا بالسنّة التي يدْعون إليها، أتوا بكلّ سمجٍ مَرذول من العبارات، التي لا تمتّ إلى أحد الأسلوبين بصلة». وبهذا الهدوء المتّزن وبأمْثاله، كان الأستاذ وجدي يفنّد آراء مخالفيه.

ومن أعجب ما نحار فيه أنّ الذين يسلكون هذا المسلك الجادّ في النقاش لا يحوزون انتباه الكثرة من القرّاء، مهما كان المجالُ دقيقاً ذا خطر؛ أما الّذين يتقاذفون بالسباب، فيجدونَ من الصدى المجلْجل لدى العامة، ما جعلهم موضع الحديث، مهما كان مجالُ الكلام سطحياً لا يتحمّل اللجاجِ! وهي مُعْضِلةٌ تستوقف النظر، ولن تجدَ دواءها إلا حينَ ترتقي الأذواقُ، وتنهض العقول.

وطريفةٌ نادرة أذكرها في هذا المجال، فقد أصدر الدكتور المتحمّس (إسماعيل أحمد أدهم) بحثاً إلحادياً مستفيضاً نشره بمجلة الإمام جعل عنوانه (لماذا أنا ملحد) وقارئ بحوثِ الدكتور أدهم لا يستغرب منه الاندفاع الدائم إلى مهاجمة أقدسِ ما يحرصُ عليه المتديّنون، لأنّه كان يُعلن في زهو خُروجه عن دائرةَ الأديان، وكانت نهايتهُ أن أقدمَ على الانتحار في عنفوان شبابه، وكَتبَ وصيّةً تدعو إلى

عدم دفنه في مقابر المسلمين، وما ذكرتُ ذلك إلاّ لأصوّر اندفاعاته الهائجة التي دعته إلى المنابذة الجهيرة الهاتفة بالمروق، بل دعتْه إلى أن يختم حياته على غير ما يُرضي العقلاء، هذه الأحاسيس المريضة دعته إلى الاستطالة على العقائد الدينيّة، في غيرِ مبالاة، وقد قابلها المتحمّسون من ذوي الإيمان بقذائف مضادةٍ أحدقَتْ به من كل جانب، ولكنّ الأستاذ وَجدي لم يتركْ معه طريقه في الجدل الهادئ، إذ أَخَذَ مأخذ الأناة في ردّه الحليم، وأذكرُ أني تحدثْتُ عن رُوح النقاش النبيلة هذه في مجلسٍ أدبيٍّ بمصر الجديدة، وكان معنا الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفي، وهو صديقُ أدهم، فقال مُعقِّباً على ماقلتُ: لقد قرأ الأستاذ أدهم ردَّ الأستاذ وجدي، وكانَ في حيرة من مسلكه، إذ إنّه قال لي: لقد أخجلني الأستاذ وجدي لا باطّلاعهِ المُدهش فحسب، بل بسِماحته الإنسانية التي تُحبّبُ المنقود للناقد، وتجعلهُ أثيراً لديه، فأيُّ إنسان هو؟ لقد تعرّض الأستاذ وجدي إلى كلّ ما ذكره الدكتور أدهم[1] عن نشأته الأولى حين كان يبْغِض قراءة القرآن، الّتي يدفعه إليها أبوه، مع أنّه كان يُصغي مُعْجباً لأختيْه اللّتيْن تعلّمتا في مدارس الأمريكان فَجعَلتا تسخران مما يقال عن المعجزات ويوم القيامة والحساب، والذي أعرفه أنَّ مدارسَ الأمريكان لا تنكر هذه المقرّرات التي تؤمن بها جميعُ الأديان، ولا تخُصّ الإسلام!

---

(١) ردُّ الأستاذ وجدي مدوّن في كتاب (مناقشات وردود) جمعه وقدّمه وعلّق عليه الدكتور محمد رجب البيومي.

ثم قال: إنه اقتنعَ بمذهب النشوء والارتقاء متأثراً بكتاب (داروين) فامتنعَ عن الصلاة، وأعلنَ كُفره الصريح، لأنّه يؤمنُ بالعلم وحده، ويُؤثره على ما سواه! هكذا قال!.

وقد قرّر الدكتور أدهم أنّ من أسباب إلحاده ما يرجعُ إلى الفلسفة وما يرجعُ إلى العلم، وهذا ما فنّده الأستاذ وجدي حين نصَّ على أنَّ العلم الذي يستندُ إليه لم يستطعْ أن ينفي الصانع، وقد أكّدَ باحثوه أنّ وظيفة العلم تَخْرج عن البحث فيما وراءَ المحسوسات، فكيف يكونُ العلمُ شاهداً في قضيّةٍ يعترف بأنه لم يبحثها، وأنّها تخرجُ عن إمكانه.

أما الفلسَفةُ فقد كانتْ مصدرَ الإيمان عند فريق، ومصدر الإلحاد عند فريق آخر، فهيَ إذن ليست بذات حكم حاسم، كما أنّها لا تتناول المسائل من شتّى وجوهها، ومهما ارتَقَتْ بحوثها، فهي لا تزال في دور الاستكمال، وقد آمن بالله فَلاسفةٌ كثيرون، هم أقوى مِن الباحثِ تفكيراً، وأعظم آثاراً، فأين هو منهم؟.

أمّا رأي الدكتور في أنَّ سبب الكون يتضمن الكون في ذاته، فافتراضٌ لا يستند إلى دليل، وهو بذلك لا يبلغ أن يكونَ رأياً، وأقطابُ العلم المعاصر يُنكرونه أشدّ الإنكار، وهُنا يستشهد صاحبُ كتاب (على أطلال المذهب المادّي) بما لا يندّ عن مقدرته من الأقوال المفحمة لأئمة العلم الحديث، وقد دوّن هذه الآراء في كُتبه من قبلُ، ولكنّ المقام تطلّب الرجوع إليها فاختار منها ما يدعم منحاه.

كما ذكر الأستاذ أدهمَ أنّ الفيلسوف الألماني (كانت) كان ملحداً، وله به أسوةٌ، فردَّ عليه الأستاذ بما ينفي الإلحاد عن هذا الفيلسوف، وقال في رحابة صدر: لا أستطيعُ أنْ اقولَ إنه - أدهم - تقوّل على الفيلسوف، ولكنّي أقول إنّه اقتَضَبَ كلامه اقتضاباً، فأوهم غير ما يرمي إليه.

وهكذا مضى الناقدُ المهذّب في تتبّع الباحث خطوةً خطوةً حتّى وصل إلى تفنيد كلّما جاء في كتاب (لماذا أنا ملحد) ومحاولةُ تلخيص مواضع النقد تحتاج إلى صفحاتٍ طوال، ثم هيَ لا تغني عن تتبع فقراتها فقرة فقرة في مصدرها، وهذه إشارةٌ إليها تدعو إلى العودة إلى الأصل في مرجعه، المنشور بمجلة الأزهر، بالمجلد الثامن الصادر في سنة ١٣٥٦هـ، أو إلى كتاب (مناقشات وردود) الذي أشرتُ إليه في هامش هذا البحث.

هذا تمهيدٌ أوّلُ، أشرت فيه إلى طريقة الأستاذ النقديّة، مستشهداً ببعض مواقفه، وستتلوه فصولٌ تعرِضُ لنقودٍ أخرى كانت موضعَ الاهتمام البالغ من صفوة القارئين.

* * *

مع علماء الأزهر

كتبتُ في هذا المُؤَلَّف فصلاً خاصّاً بعمل الأستاذ محمد فريد وجدي في القيام على إدارة (مجلةِ الأزهر) وتحريرها، فأشرت سريعاً إلى أنّه قام على رئاسة التحرير خلفاً للأستاذ الإمام محمد الخضر حسين رحمه الله، وقد كانَ من ديْدن الخضر أن يتعقّب الآراء الشاذّة في البحوث العربية، خارج (مجلة الأزهر) ليردَّ عليها بلسانه المبين، إذ إنّ من أهداف هذه المجلة أن تُقَوِّمَ المعوج، وأن تُرشدَ الضالّ.

فلمّا تولّى الأستاذ وجدي امتدّ ببصره أوّلاً إلى ما يفد من أُوروبة من آراء مناوئة، عالماً أنّ في بعضها ما قدْ يُزعزعُ القارئ في اعتقاده، ممّن لا يميّزون بين الخطأ والصواب، ولا بدّ أن تَقوم المجلة بدورها في مُحاصَرةِ هذه الآراء المريضة منْعاً لانتشارِ عدواها القاتلة، لذلكَ وجدْنا الأستاذ يتّجه بكلّ قوته إلى دَحْض هذه الأراجيف، ومُتابعتها في دقّةٍ واستيعاب، والرجلُ بنور بصيرته يعرفُ مَنْ انحرفَ عن قصد، ومَن انْحرف عن غرض، ولكنّه لا يُعْنِّف أحداً، بل يقدّم رأي مُخالِفه في إيجازٍ مستوعب، كيْلا يفتري عليه ما لم يقل، ثم يعقّب على كلّ فِقرة بما يبيّنُ

انحرافها المخطئ في هدوء نفسٍ، مع أنّ بعضَ من يُناقشونه يتفوّهون بعباراتٍ متسرّعة، ليسَ لها مكانٌ في مجال النقد الموضوعي النزيه، وهو يُغضي عنْ ذلك دون تعقيب على هذه اللجاجات!.

قلتُ: إنّه امتدّ ببصره أولاً إلى ما يَفِدُ من أوروبة من شبهات، لأذكرَ أنَّ هذا البصر الممتد، قد شمل ما يُرْسله الكاتبونَ إلى (مجلة الأزهر) ممّا يصلُح أن يكون موضعاً لاختلافِ وجهاتِ النظر، وموقفُ الأستاذ في هذه الناحية موقفُ الشجاع، الّذي يَحرص على إيضاح الحقيقة، ولا يُجامِلُ في مسألةٍ علمية تستدْعي الجلاء، وهكذا رأينا تعقيباتٍ كثيرة للأستاذ وجدي على نَفرٍ من كبار أساتذة الجامعة الأزهرية لم نعهد مثلها من قبلُ في عهد الأستاذ الخضر حسين.

والّذي دعا الأستاذ وجدي إلى هذه المواجهة العلمية المحمودة عِلْمهُ الراسخ بأنّ الحقيقة بنت البحث، وأنّه شخصياً ينْشر بارتياح ما يبعثه ناقدوه بخصوصِ بعضِ مقالاته، ويردُّ عليها شاكراً مقدّراً، وصاحِبُ هذه الروح الصافية الوفية قد يجدُ مغاضبةً من بعض من لا يَذهبون مع حريّة الفكر مذهبُه، فيتطاولون عليه في غير (مجلة الأزهر) وهذا ما حصل فعلاً، ولكنّه ما كان يُلقي بالاً إلى هذه الترّهات، ويعدُّها مما لا حيلة فيه أمام الضّعف الإنساني، الذي لا سبيل إلى إنكاره.

ويحقُّ لنا في هذا الكتابِ الخاصّ بالرجل، وفي هذا الباب الخاص بنقوده العلمية أن نعرضَ هنا لبعض هذه المصاولات العلمية بينه وبين

الكبار من هؤلاء، إذ نجدُ أستاذيّةً جديرةً بالتقدير، وذاتَ نظرٍ مستقلّ في كل ما تَعرض له من شؤون البحث، وليسَ الّذين يخصّهم بالتعقيب ـ إلا من ندر ـ رجالاً محدودي النظر، بل هم من حملة أكبر الدّرجات العلميّة من جامعات الغرب، وممنّ طارَ لهُ ذكرٌ بالبحث النظري إنْ لم يكن من أصحاب هذه الدرجات، ومن الفريق الأول من تخصص في أدقّ فروع الفلسفة في أعرق الجامعات الأوربيّة، ولسنا نُضائِلُ مِنْ فضلهم حين نذكرُ أنَّ الأستاذ وجدي قد تعقّب بحوثهم بالملاحظة، كما تعقّبُوهم أيضاً في أكثر ما جاء به، ولكنّنا نعرضُ صورةً من السماحة العلمية الباهرة استقلت بملامحها الزّاهية على صفحات (مجلة الزهر) حين شاهدنا رأياً يصول على رأي، ونظراً يختلِفُ عن نظر.

لقد كتبَ الأستاذ الدكتور محمد البهي ـ وهو من الشهرة بحيثُ يُغني اسمهُ عن التعريف به ـ مقالاتٍ تحت عنوان(الفلسفة بين الوجود والفكر) ذهبَ فيها إلى أنَّ الفلسفة الدينيّة، يهوديّةً أو مسيحيّةً أو إسلاميةً، كانت مهمتها التوفيقَ بين ما نُسب إلى فلاسفة الإغريق من ناحية، وبين ما يقولهُ الدين من ناحية أخرى، دون استمرارٍ في البحث على أساسِ الاستقلال، وهو الأساسُ الذي تميّزتْ به الفلسفةُ عن الدين، ولكنَّ عهدَ النهضة الأوربية حوّل البحث في الفلسفة عما وراءَ الطبيعة إلى الطبيعة نفسها، لأنّ نتائج البحث في الإلـهيات، تبتعد كثيراً عما يطلبهُ المقياس العلميّ الحديث، فتَعرُّضُ الباحث لها وحدها، حُكْمٌ بالعُزلةِ عن التيار الفكري الجديد.

هذا البابُ هو ما اتجه إليه الدكتور محمد البهي، وقد عارضه الأستاذ وجدي قائلاً: إنّ حديثَه هذا لا شبهةَ فيه، من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة الماديّة، ولكنّي أقرّر أنه لا تُجد في الإسلام فلسفةٌ مستمدة من الخارج، يُمكن أن تُوصفَ بأنّها إسلامية! وكلّ ما وُجد في عهدِ نهضةِ المسلمين أنّ أفراداً منهم أُغرِموا بالثقافة اليونانية القديمة، فأخذوا إخذَها في الفلسفة، واشتغلوا بدراسة مَذْهَبيْ أفلاطون وأرسطو، وأَوْسعوهما تَفْليةً وشرحاً، حتى صاروا من زعماءِ الفكر على عهدهم، ولستُ أُنكِرُ أنَّ هؤلاء حاولوا تطبيقها على الإسلام، ولكنّ أئمة الدين في كلّ زمانٍ ومكانٍ أنكروا عليهم ذلك.

وجاءَ حجة الإسلام (الغزالي) في القرن الخامس الهجري، فبيّن قِصَرَ نظرهم، وضَعْفَ أدلتهم في كتابٍ مشهور ذائع[1].

فإذا كانَ قد حَدثَ في الفلسفة تطوّرٌ منذ عهد النهضة الحديثة فلن يُصيبَ الإسلام منه شيءٌ، لأنّه بفكره مستقلٌ عن فلسفة الإغريق، وقد قاوَمَ أئمةُ الإسلام الفلسفةَ اليونانيةَ في أوّل ظهورها، لأنّ الإسلام نفسَه أتاهُمْ بالحكمة التي تُغني عن هذه الفلسفة.

والدكتور البهي فيما تحدّث به عن صلة الفلسفة الإسلامية بفلسفة الإغريق، ومحاولـةِ بعض الفلاسـفة من الإسلاميّين السير في ضوئها

---

(١) وهو كتاب (تهافت الفلاسفة). (الناشر)

للتّوفيق بينها وبين معتقدات الإسلام، مما يسميه الغربيون بالفلسفة الإسلامية، بينما يميل إلى الاقتناع بهذه الصلة بين الفلسفتين.

ولكنّ المجادلات التي بدأها الأستاذ وجدي لدحْض هذه الفكرة، جعلتِ الدكتور البهي يعدِلُ عن وجهته، فيقرّر أنَّ الفلسفة الإسلامية شيءٌ وما صنعه بعض المفكرين في الإسلام من إدخال مقرراتها على الفكرة الإسلامية شيءٌ آخر، لا يمتّ إلى الاسلام.

وأذكر في هذا المجال أنَّ الأستاذ سيد قطب كانَ قد عابَ على الأزهر اشتغالَه بالفلسفة الإغريقيّة على أنّها هي الفلسفة الإسلامية، فردّ عليه الدكتور البهي بخطاب قال فيه[1]:

«وأودّ أن أطمئنَ الكاتبَ على أنَّ الأزهرَ في تاريخه لم يُدرّس الفلسفة الإسلامية، على اعتبار أنها تمثّل الإسلام، أو تحكي مبدأً من مبادئه، أو هدفاً من أهدافه، ففي ماضيه كان يُحرّم دراسة هذا النوع الإلـٰهي من الفلسفة الإسلامية، لأنّه كان يرى فيها انحرافاً واضحاً عن الإسلام، ومن أجل ذلك كان يلومُ فلاسفة المَشرق من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وجارى الغزاليَّ في كتاب (تهافت الفلاسفة) إذ كفّر هؤلاء الفلاسفة جميعاً، لمسايرتهم الفكر الإغريقي في القول بقدم العالم، وقَصْر علمِ اللهِ على الكليات، وإنكار بعث الأجسام.

---

(١) مجلة الرسالة العدد (٨٢٩) - ٢٣/ ٥/ ١٩٤٩م.

وفي العصر الحديث يدَرّسُ الأزهر في كليّاته الفلسفة الإسلامية، كما يدرّسُ أنواع الفلسفات الأخرى من الإغريقية إلى الدِينيّة في العصور الوسطى إلى المذاهب الاجتماعيـة والاقتصادية المعاصرة على أنّها اتجاهاتٌ للفكر الإنساني في أزمنةٍ متعاقبة، وفي بيئاتٍ مختلفة، وقد يكونُ بعضها ترديداً لبعض، أو إضافةً جديدة لما سبق، وهو في هذه الدراسـة يُوازِنُ بين إنتاج الفكر الإنساني في عصوره المختلفـة، وبين الإسـلام كدينٍ أُوحي به منْ قِبَلِ مَنْ له الكمالُ المطلق، وإنَّ الأزهـر الحاضر تُسيطر عليه في البحث والتوجيه روحٌ إسلامية شرقية، وَعمتْ ما في الإسلام من مبادئ، ودرستْ ما كان لشعوبه من خصائص، في الأدب والحكمة».

وهذا كلامٌ قالـه الدكتور البهي في ٢٣/ ٥/ ١٩٤٩م، وكـانتْ مجادلتُه مع الأستاذ محمد فريد وجدي في سنة ١٩٤١م، ولو اتّجهَ هذا الاتجاه في مقالاته التي عقّب عليها الأستاذ ما اتسّع مجالُ الخلاف.

وقريبٌ من مجادلة الأستاذ وجدي للبهيّ مجادلته للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى، وهو أحد أفاضل المبعوثين إلى السوربون، الذين نالُوا دكتوراه الدولة عن جدارة وتقدير، فقد كتب الدكتور موسى بحوثاً تحت عنوان (بين رجال الدين والفلسفة) ذهَبَ فيها إلى أنّ رجال الدين في الإسلام قد جافُوا الفلسفة اليونانية، وحَاربوا أنْصارها بلا هوادة ولا إنصاف، وعدّ الدكتور ذلك خطأً كبيراً، كان الواجبُ مُلافاته.

فردّ عليه الأستاذ وجدي قائلاً: إنّ المسلمين لم يُجافوا الفلسفة اليونانية سذاجةً وبلاهةً منهم، ولكنْ لأنّه كانت لديهم فلسفة أتاهمْ بها القرآن، تسمُو على كلِّ فلسفة في الأرض، وهي الحكمةُ، ولا عبرة بالتسمية، ونحن إذا نظرنا إلى أصول الحكمة في القرآن نجدُها تبزّ ما نعرفه من مقرّرات الفلسفة، لأنّ الحكمة القرآنية تتناولُ جميع ما يتصّل بحياة الإنسان المادية والأدبية، وهي تبتدئ من قواعد الآداب العامة، وموجباتها الحيويّة، إلى الحالات العالية للنفس الإنسانيّة، وبوَاعثها من العوامل الروحيّة، ومن أوليات الأصول الاجتماعية، إلى نهايات الوحدة الإنسانية بل العالمية، ومِن بسائط الأسس الإدارية والتشريعية إلى أعلى مبادئ الحكومة الدستورية، ومن أوضح القواعد الثقافية، إلى أسمى وأدقّ القوانين الفلسفية والعلمية، وهذه الأصول كلُّها مبثوثةٌ في القرآن الكريم.

وبعدَ أنْ ذكر الأستاذُ بالتفصيل عشرةَ أصولٍ من أصولِ الحكمة في القرآن الكريم، قـرَّر أنَّ الحكمة القرآنية بطبيعة تـركيبها، وبمقتضَى أُصولها هي من الضّرب الذي اتُّفقَ على تسميته حديثاً بالفلسفة العملية، وهي التي تقرر أنّها الفلسفة الحقة، التي لا يجوز تجاوزُ حدودها، وقد تتَابَع الردُّ والتعقيب في هذا النطاق على نحو ما يعرفه المتتبّعون لهذه الجولات الفكرية الرائعة حقّاً، ومِن أصدق ما قاله الأستاذ وجدي في هذا المجال: «إنّ هذه الحكمة القرآنية هي التي أخذتْ بها أمةٌ بدويـةٌ،

لا عَهْد لها بكتابٍ ولا حكمةٍ، فنالتْ زعامة العالم في العلم والسلطان والسياسة والصناعة في قرنيْن من الزمان، فإنْ كان يُضّنُ عليها بكلمة فلسفة، فربما كانَ للضانيّن بذلك الحق باعتبار أنّها أرقى من الفلسفة بما لايُقَدر، إنَّ الفلسفة اليونانيّة لم تَخْلُق أُمماً، ولكنّ الأمم هي التي خَلَقتها، وهذه الحكمـة القرآنية أوجدت من العدم أمّـةً كان لها أثر في الأرض لا يَشـتبهُ بغيره، ولا تزالُ الحكمةُ التي أَوْجدْتها حيّة، وسـينتهي الأمرُ بسيادتها على كل فلسفة في الأرض».

هذا فَحوى ما يُقال عن الفلسفة الإسلامية، واستقلالها عن فلسفة الإغريق، والمتتبّعُ لمناقشـات الأستاذ وجدي في جميع أدْوار حياتـه يجدُها تتعلّق بالكليات العامة في أكثرها، فهو لا يناقش كاتباً ما، لملحظ جزئي يندرج في بحثٍ شاملٍ، فيجعلُه موضعَ لجاجٍ لا يتحمل الحوار، كما لا يستطردُ لأدنى مناسبة إلى معنىً يُفهم تلميحاً لا تصريحاً، فيجعله مثار الضجة والشجّار، مما نعْهده لدى كثير من المعقبيّن، ولكن الناقد الفيلسـوف يجْنح إلى القضايا الكلية التي يقفُ أمامها الباحثُ موقـفَ الملاحظـة، ليتخذَها موضوعاً للمجاذبة الهادفة، إذ يحرصُ على أن يصلَ بها إلى حدٍّ يجعلها صواباً، بعد أن يُفنّد كلّ شـبهة تخالِفُ اتجاهه النظري.

لقد كتبَ الدكتور أحمد موسى مقالاً بمجلة الأزهر تحت عنوان (الشعوبية وأثرها في الأدب العربي) جَرى فيه دون قصدٍ مَجْرى ذوي

الاستشراق، ممن يحبّون أن يَبذُرُوا الفرقةَ بين الأمة المؤمنة، بإحياء نوعٍ من العصبية القاتلة، فيجسِّمون ما يقعون عليه من حادثةٍ فردية، أو بيْتَ شعري لقائلٍ متسرّع، ليجعلوا منه أدّلةً على البُغض الكامن بين الفُرس والعرب، مع أنّ الأمّة العربية نفسها قد وُجد من ذويها مَن ناصبها العداء، فلم يدّل ذلك على شعور عام، بل دلّ على شذوذ فرديّ، لا ينبغي أن يُتَّخذَ قاعدةً مطردةً، وفي الحديث عن أثرِ الفُرس في الكيان الإسلامي ذكر الأستاذُ ما لهم من قِدْمٍ في العلوم والآداب والسياسة، إذ سبقوا غيرهم من الشعوب الإسلامية في النظر والتفكير، ونَبغ منهم أئمةٌ فسَّروا الكتاب، وأقطابٌ حفظوا سنّة الرسول ﷺ، وأعلامٌ جمعوا لغة العرب، ووضعوا علومَها وآدابها، فلم يشعر المسلمون وفيهم العرب بأدْنى مَضضٍ من ذلك، إذ محا الإسلامُ من بينهم عواملَ الاختلافِ الجنسيّة واللغويّة واللونية.

يقولُ الأستاذ وجدي: «إنّكَ لو سألتَ أيّة جماعةٍ إسلاميّةٍ في أيّةِ بقعة من الأرض ومِن بينهم العرب، مَنْ سَلفكُم الصالح، الّذين حَفظوا القرآن والسنة وآثار الصحابة، ودّونوها، وبَوّبُوها، وشرحوها، ولقّنوها للشيوخ والأئمة، لعدّوا لَكَ عشرات الأسماء في مقدمتهم الحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن حبير، والأعمش، ومكحول، وميمون بن مهران، وربيعة الرأي، ونافع، وابن أبي ليلى، وهذه الأسماء قد لمعت في العصر الأموي، الذي ادُّعيَ عليه أنّه تَعصَّبَ على الفرس، وهذا الانحرافُ في التفكير في رأي الأستاذ وجدي قد نشأ من خطأٍ جلل

وقع فيه الدكتور طه حسين، فتلقفَّهُ الطلاّب في البلاد العربيّة لا عَن فحص، ومضَى الأستاذ إلى غايته، التي تقرُّ أنَّ الإسلام قد غَرس في أبنائه المساواة والإخاء، وأنَّ الحكم العام لا يكون باصطيادِ الشواذ والنّوادر من كُتب الأدب والمسامرات، ودواوين المتطرّفين من مُجّان الشعراء.

وإذا كان الدكتور طه حسين قد أتى بهذه البدع في محاضراته بكلية الآداب، فقد عَرفتْ هذه الكليةُ باحثاً أميناً جادّاً هو الدكتور عبد الوهاب عزام ردَّدَ ما عناهُ الأستاذ وجدي، وجاءَ بالأدلة الداحضة لما سبق من خَطأ صريح، وإذا كان الأستاذ وجدي قد اقتصَر على أعلام العصر الأموي من أئمة الإسلام، فقد بَسطْتُ هذه القضية في كتابي (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين)[1]، وذكرتُ خلفاء الأئمة الأمويّين فيما تلاهم من العصور من أمثال البيهقي، والنيسابوري، والخوارزمي، والجرجاني، والتفتازاني، والرازي، والزمخشري، والشيرازي، والبيضاوي، والبخاري، والقزويني، والطوسي، والسمرقندي، والترمذي، والسجستاني، والنسفي، والهمذاني، ومن لا أستطيعُ أن أقفَ بسردهم عند حد، ليعلم الذين يتلقفون شطحات الاستشراق دون فحص أنّهم متسرّعون.

---

(١) النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومي، طـ. دار القلم: ١/ ٣٩٤.

وشبيهٌ بدعوى الشعوبية دعوى التقدّم الفكري لدى الجاهليين، وقد تحدّثَ الأستاذ وجدي عن جانب منها في ردّه على الفيلسوف (غوستاف لوبون) وهو ما ستراه في الفصل القادم.

ونُكمّل الجانب الآخر بالإشارة إلى الرد الحاسم الذي كتبه الأستاذ وجدي تعليقاً على مقال نشره الأستاذ محمد صادق عرجون تحت عنوان (الحياة الأدبيّة عند العرب) وقد نَحا فيه منحى الفيلسوف الفرنسي، فعقّب عليه الأستاذ وجدي بمقالٍ جيد قال فيه:

«إن الإسلام وحده هو الذي وحّد قبائل العرب، وأسقطَ ما بينهم من فُروق قَبَليّة، ومن إحنٍ وضغائن جعلتْ جماعتهم أشبَه بالأُمم المتعادية لا تفتر عن التناحر والتناهب طرفة عين، والإسلامُ هو الذي رفع عنهم طابعَ الأميّة، ودفعَهم لطلبِ العلم دفعاً لا هوادةَ فيه، وبفضل الإسلام استقامت الأمة العربية على نهجِ الأمم التي كُتِب لها بلوغُ أقصى الغايات من النظام والتوسّع واحتمال التبعات، وفوق هذا فنحنُ أبناء الإسلام لا أبناء العرب ولا الفرس ولا غيرهم، وقد وحّد بيننا الإسلام تذرّعاً لتكوين أمة عالمية، كانت وستكون مثالاً أعلى للاجتماع الإنساني الصحيح، وقد مضت تلك الجاهلياتُ مرذولةً مذمومةً إلى حيث لا تعود».

هذا بعضُ ما جال به قلم الأستاذ في (مجلة الأزهر) تعقيباً على بحوث جديدة رأى فيها ما يستأهل النظر والتعقيب، وهي مثالٌ جيّدٌ لتعْقيبات كثيرة قام بها الأستاذ على مدى خمسين عاماً هي عمره الأدبي

السعيد، وليس الاستقصاءُ في وسعي، ولكنّي أمثّل فقط، راجياً أن تكون نظراتُ الرجل الكبير في هذه الاتجاهات موضعَ المعاودة والترديد[1].

* * *

(١) تيسيراً على القارئ الكريم أشير إليه بالرجوع إلى كتابي (مناقشات وردرد) الذي جمعته من مقالات الأستاذ وجدي، وفيه كلُّ ما أشرتُ إليه من بحوث الأساتذة البهي وموسى وأحمد موسى وعرجون وردوده عليها، وفيه أيضاً ما كتبه عن آراء جوستان لوبون، وهو مجال الحديث في الفصل التالي، وقد صدر الكتاب عن المؤسسة المصرية اللبنانية بمصر.

مع غوستاف لوبون

أقدّم نموذجاً من مناقشة الأستاذ محمد فريد وجدي للفكر الغربي بما قام به في مصاولة الفيلسوف الفرنسي (غوستاف لوبون) والأستاذُ (غوستاف لوبون) موضعُ تقدير وجدي، لأنّه اعترف بمزايا الحضارة العربية، ووضعها موضعها الصحيح، فحازَ قبول المُنصفين، ولكنّه أخطأ في تعليل بعض ما تعرّض له من الأحداث التاريخية، وقد تُرْجِمَ كتابُه (حضارة العرب) إلى عِدّة لغات ذائعة، وفازتِ اللغة العربية بأكثر من ترجمة، لأكثر من مترجم[1]، في عدة طبعات، وبذلك أصبحَ كتابُه في متناول الجمهرة من القراء، وقد تحدّث لوبون عن الفتح الإسلامي بما يُرضي ويُقنع، فقال فيما قال[2]:

«ورحمةُ العرب بالفاتحين وتسامحهم، كانا من أسباب اتّساع فتوحهم، واعتناق كثير من الأمم لدينهم ولغتهم التي رسختْ وقاوَمتْ

---

(١) وأدقها وأجودها ترجمة الأستاذ عادل زعيتر، الذي ترجم معظم كتب لوبون. (الناشر)

(٢) مجلة الأزهر، المجلد السابع عشر، سنة ١٣٦٥، ص١٠٤.

جميعَ الغارات عليها، وبقيتْ قائمةً حتى بعد أن توارَى سلطانُ العرب عن مسرح العالم، وإن أنكرَ ذلك المؤرّخون، وتعدُّ مصر أوضحَ دليل على ذلك، فقد انتحلتْ مصر ما جاءَها من العرب، وحَافظتْ عليه، ولم يسْتطع الفاتحون الّذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية فيها وأن يحمّلوها ما أتوا به».

وقال الدكتور في موطن آخر: «إنّ الأمم التي فاقت العرب تمدّناً قليلـةٌ إلى الغاية، وإنّ ما حققـه العرب في وقتٍ قصيرٍ من المبتكرات العظيمـة لم تحققْه أمّـة، وإنّ العرب أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، ولا يزالُ النّاسُ يخضعون لها، وإنّهم أنشؤوا دولةً تُعدُّ من أعظم الدول التي عرفَها التاريخ، وإنّهم مدّنوا أوروبة ثقافةً وأخلاقاً، وإنَّ الأمم التي سَمتْ سموَّ العرب، وهبطت هبوطهم نادرةٌ، وإنّه لم يظهرْ كالعرب شعبٌ مصلِحٌ ليكونَ مثالاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها، وانحطاطها».

هذان مثالان من أمثلة تنحُو هذا المنحى فيما كتبه لوبون عن حضارة العرب، وقد وقف الأستاذ وجدي أمامَ صاحب هذه الاعترافات حائراً في خطئه التّعليلَ لما تحدّث عنه من النتائج الباهرة للفتح الإسلامي، وقد عبّر عن شعوره حين قال[1]:

(١) مجلة الأزهر، المجلد السابع عشر، سنة ١٣٦٥هـ، ص١٠٦.

«يشقّ علينا أن نقفَ موقف المعارضة من كاتب مثل هذا الكلام، ولكنّ مصلحةَ الدين الذي ندين به، بل مصلحة العلم نفسه تقتَضيه، فإنّه إن كان قد أنصف المسلمين باعتبارهم أمّة، فقد ظَلمَ الإسلام باعتباره ديناً، فإنّه في اليوم الذي يثبتُ فيه أنّ لقيام الدولة الإسلامية وتبسّطها في الأرض عللاً طبيعية، وأسباباً مادّية تسقِطُ حجةَ المسلمين في إلٰهيّة الدين الإسلامي، فإنّ معجزته الخالدة وآيته الكبرى أنّهُ أوجدَ أمّةً من العدم، وأنّه ربَّى نفوسها في رُبع قرن تربيةً لم تبلغ شأوها العِللُ الطبيعيةُ في قرون كثيرة، ثم دفعَ بها إلى مجالِ الحياة الاجتماعية، فبلغتْ فيه درجةَ الزعامة في كلِّ شأنٍ من شؤون الحياة الإنسانية، ولا يزال فيها من قوّة الروح وسمو المبادئ، وعوامل التطور، ما يدفعُها لاسترداد مكانتها الأولى بيْن أرقى الأمم المعاصرة، لو عاوَدتِ العمل بما رسمتْه لها شريعتُها من الأصول الأولية».

ويلتمسُ الأستاذ وجدي لصاحبه العذر قائلاً: «الدكتورُ غوستاف لوبون معذورٌ في سلوكه هذا المسلك، لأنه كأكبر مفكّري القرن التاسع عشر متشبِّعٌ بالفلسفة المادية، التي لا تذهبُ إلى ما وراء العالم المحسوس في سبيل تعليل أيِّ ظاهرة من ظواهر الوجود الماديّ، فلا يستطيعُ ـ وهذه حالته النفسيّة ـ أن يبحث عن شيء إلاّ تحت هذا البصيص من الفلسفة المادية».

فالناقدُ هنا أمامَ فيلسوف ماديّ، يدرِكُ النتائج الحاسمة، فيقرّرها

في نزاهةٍ وحِيَدَة، ولكنّه يخطئ في تعليلها، والردّ الطبيعي أن يتّجه الناقد إلى هذه التعليلات، فيوضّح مكانَ الخطأ فيها، ويدلي بالتعليل الصحيح في رأيه وهذا ما فَعله الأستاذ وجدي في هدوءٍ متريّثٍ لا يعرفُ الضجيج.

لقد وقف الفيلسوف الفرنسي أمام أحداث خطيرة يحاول تحليلها:

أوّلُها: قيامُ دولة قوية في مدة وجيزة، مجموعةٍ من قبائل متناحرة متحاربة.

ثانيها: اندفاعُ هذه الدولة الحديثة في فتوحٍ شاسعةٍ، تكلّلت بالنصر الساحق في أقل من ثمانين سنة.

ثالثُهما: إقامة حكومة مركزية حكمت البلادَ المفتوحة بعدلٍ لم تره من الحكومة الوطنية.

رابعُها: إقبال المسلمين على العلم، والأخذ بأساليب المدنية، حتى أصبحت لهم الزعامة العالمية، هذه الأحداثُ الباهرة، وقف أمامها (لوبون) ليقرِّرَ أنَّ ظهور حضارةٍ مفاجئة على مسرح الحياة، ليس كما يبدو للوهلة الأولى، ولكنّه نتيجةُ بطءٍ تدريجي تمّ في رحم الزمن، حتى بلغَ نضجه في عهد نبي الإسلام، إذ لا تبلغُ أمّةٌ درجةَ التطور العالمية التي يبدو للعيان إلاّ بعدَ الصعود في درجاتٍ أخرى.

ثم عارضَ (لوبون) قول الفيلسوف (رينان) في كتابه (تاريخ اللغات السامية): لم نعرف لبلاد العرب مكاناً في تاريخ العالم السياسي والثقافي

والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة، الذي صار بـه العرب أمةً فاتحةً مُبدِعةً، ولم يكنْ لبلاد العرب شأنٌ في القرون القديمة حين كانت غارقةً في دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السابع للميلاد». نقل الدكتور (لوبون) قول (رينان) ليعارضُه بدعوى التطور الخفيّ غير الملموس.

وقد ردَّ الأستاذ وجدي على لوبون موجهاً نظره إلى الدعوة العالمية للإسلام، لأنّ صاحبَ الرسالة لم يُبعَثْ للعرب وحدهم، بل بُعث للناس كافة، فكانَ الفتحُ الإسلامي استجابةً للرسالة.

يقول الأستاذ وجدي(١):

«الأمة الإسلاميةَ أمة عالمية بطبيعة تكوينها، لا أمةٌ عربيةٌ فقط، وموطنُها هو العالم كلّه، لا بقعةً واحدةً منه، فليسَ من العجيب أن تبزّ جميعَ الأمم في سمّو محصولها، وسرعة إنتاجها، وإنما العجيب الذي كان يحب أن يستوقف نظَر الدكتور (غوستاف لوبون) مجيء الدين على هذا النحو العالمي، وحدوثه في بيئة لم تكن تعرف الوحدة الاجتماعية حتى للجنس الواحد، فكان تولّده هنالك، ضرباً من الطفرة التي أجمعَ العالمُ على استحالتها، وهذا محلّ الإعجاز في عمل النبيِّ ﷺ».

وأزيدُ على ما قال الأستاذ وجدي فأقولُ: لو كان التطوّر الخفي

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السابع عشر، ص١٤٧.

هو العامل غير المنظور في ظهور الأمة العربية على مسرح الأحداث، لكانَ هذا التطور متّجهاً إلى الأمة العربية وحدها، حيث لا يستطيعُ أكثر الناس إغراقاً في الحلم أن يتصوَّرَ أنَّ هذه القبائل المتنافرة تسعى لهداية البشر كافة[1]، بل قُصارى أمرِها أن تنجَح في داخلَ الجزيرة العربية في التئام شملها، ولكنّ الواقع في المدّ الإسلاميّ شرقاً وغرباً يَنْطق بأنَّ الأمرَ فوق التدرج البطيء، وأنَّ هناك قوةٌ خارقة خرقتْ حجابَ المنطق المنتظر لتأتي بمعجزة، هي معجزة الدين نفسه، وإذا كان الفيلسوف (رينان) قد دُهش لوقوع هذه الخوارق، التي لا تخضَعُ لمنطق التاريخ، فلأنه لا يؤمن برسالة السماء التي جاء بها نبي الإسلام ﷺ.

وعلى النقيض منه نجد الأستاذ فريد وجدي يجعَلُ صدقَ هذه الرسالة هو عِلَة العلل في هذا النصر الباهر، وليست المسألة مسألة نظريات علمية تختلِفُ في اتجاهها الآراء، ولكنّها مسألةُ واقع ملموس، لا مجالَ لإنكاره.

إن رينان يُعلن حيرتَه في تعليله، و(لوبون) يقول: إنّه نتيجة التدرج الطبيعي الخفي، ورينان أوسعُ منه إدراكاً في هذه المسألة بالذّات، لأنّ التدرّجَ البطيء لم يَلُحْ له شاهد واحد يدلُّ عليه، إذْ إنّ الدول التي صعدت

---

(١) قارن خروج المسلمين فاتحين من جزيرة العرب في عهد الصحابة بخروج بني هلال من جزيرة العرب في القرن الرابع الهجري إلى بلاد المغرب العربي، لتقف على سر الإسلام وأثره في حمَلته. (الناشر)

إلى الأوج في القديم والحديث، كانَ تدرُّجها نحو الصعود ذا شواهدَ ملموسة، بحيثُ أصبحَ ارتقاؤها ثمرةً في غصن من شجرة ذاتِ جذور، وهنا لا نجدُ غير ثمرة لا شجرةَ لها، فهيَ إذن الرسالة، وليستْ غير ذاك، ولوبون عالم ماديٌّ لا يؤمِنُ بالرسالات، أما رينان فيؤمِنُ بالمسيح، وله في تاريخه كتاب شهير.

وعلة ثانية؛ ذكرها غوستاف لوبون، وهي أنّ العرب أثناء البعثة المحمدية كانوا يتطلّعون إلى التوحيد، وقد ضاقوا بالأصنام، وعرف الرسـولُ ذلك فدعا إلى الإسلام، يقول الكاتب الفرنسي: «والحقّ أن جَمْع العرب على دين واحد وقتهُ قد حان، وهذا ما عرفه محمد، وفي الوجه الذي عرفه سِرُّ قوته، وهو الّذي لم يفكّر قط في إقامة دين جديد، خلافاً لما يتوهّم البعض، وهو الذي أنبأ الناس بأنَّ الإلـه الواحد هو إلـه نبيّ الكعبة، أي إبراهيم، الذي كان العرب يجلّونه ويعظّمونه».

أمّا ردّ الأستاذ وجدي[1] فقد تركّز في أنّ العرب كانوا متمسكين بأصنامهم، وقد ذكر الكتاب الكريم، أنّهم كانوا شديدي الحرص عليها ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [سورة صَ: ٤ ـ ٧]، وهو ردٌّ وافٍ مؤيَّدٌ بالنصّ المعجز.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السابع عشر، سنة ١٣٦٥هـ، ص١٩٧.

وقد استطرد الأستاذ وجدي إلى مقارنة بين وثنية الرومان، ووثنية العرب، لأنّ لوبون قد عقد موازنة بين الوثنيّين، فوفّى وجدي المقامَ حقّه.

وأنا لا أدري كيفَ فات هذا الفيلسوف الكبير أن يذكرَ ما كابده الرسول ﷺ من الشدائدِ قرابةَ ثلاثة عشر عاماً في مكة، وبعدها عشرة أعوام في المدينة، وهو في حربٍ طاحنة بين من يتمسّكون بعبادة الأصنام في مكة، وبين من يدعو إلى التوحيد، أفلوْ كانوا ـ كما تخيّل لوبون ـ قد ضاقوا بأصنامهم، أفما كانوا يتجّهون إلى الإسلام دون معارضة؟ بل على الأقل أفما كانوا يقفون من الدعوة الجديدة موقف الحياد؟ ففيم كـانَ تعذيب المستضعفين؟ وفيم كانتْ مقاطعة قريش لبني هاشم حتى أكلوا أوراق الشجر؟ وفيم كانتِ الهجرتان إلى الحبشة وإلى المدينة فراراً بدين الله؟ ثم فيم كان ائتمار قريـش على قتل محمد ﷺ ليلـة الهجرة؟ وفيم نشبت حروب بدر وأحد والخندق، ومناورة قريش يوم الحديبية؟ كلّ ذلك قد غابَ عن الفيلسـوف، وهو الذي قرأ تاريخ الدعوة الإسـلامية قراءة فاحصةً، أتُراه لم يكنْ مصدّقاً إياه؟ أما القول بأنّ الرسول ﷺ لم يكنْ يفكر في أن يأتيَ بدين جديد، بل كان متبعاً لدين ابراهيم، فلا جديد فيه، لأنّ هذا ما كرّره الرسول ﷺ، وما نطقَ به القرآن الكريم، ولكن هل فكّر عَبَدةُ الأصنام في اتباعِ دين ابراهيم كما أرادَ نبي الإسلام ﷺ إنهم لو فكّروا في ذلك لنبذوا الأصَنام تلبيةً لدين محطِّم الأصنام!.

والقول بأن العرب كانوا يتُوقون للوحدة، وينفرون من التخالف والتنابذ حتى جاء الرسول ﷺ فضربَ على أوتار قلوبهم بالدعوة إلى ما يشتهون، قد سبق به لوبون، كما قال به بعض من قلّدوه على غير بينة، وقد فنّده الكثيرون بشاهد من الواقع الملموس، ولكنّ الأستاذ وجدي جاء بالطريف المقنع حين قال[1]:

«ألا يكون من البديهي الذي لا يتمارى فيه اثنان، أنّ شعورَ القبائل بالوحدة الدينيّة والسياسية، لو كان له وجودٌ كان يجب أن يصلَ إلى أبعدِ مداه، بعدَ هذا الحادث الجلل الذي سجّل عليها التخاذل في أشنع مظاهره بغارةِ أبرهة الأشرم على مكّة سنةَ ميلاد النبي ﷺ لهدم الكعبة، فقدْ قطع جيش أبرهة مئات الأميال في صميم البلاد العربية، قاصداً تحطيم البيت الحرام، وهو محجّ القبائل العربية، وقد جعلوه موئلاً لأكثر أصنامهم، فلم تُثِرْ فيهم هذه الإهانةُ أي ميلٍ للاجتماع، فتركوه يجتازُ الوهاد والنجاد، حتى وصلَ إلى مكة، فما كان من أهلها إلا أن التجؤوا إلى الجبال خيفةً من بطشه، ولولا أنَّ الله قد شغله بكارثة لم تكن في حسبانه لم يتمكّن معها من إتمام مقصده، لتمّ له ما أراد، أما كانتْ هذه الحادثة كافيةً في إشعار العرب بضرورة الاجتماع لتكوين وحدة دينيّة وسياسية تصلُح لحماية ذمارهم، وصيانةِ ديارهم، فما ذا كانَ من أثرها فيهم؟ هو بقاؤهم على ما كانوا عليه من التعادي والتناحر، والتفرّق والتدابر.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السابع عشر، ص٢٤٧.

ولما أرسلَ الله إليهم رسولاً منهم، يدعوهم إلى التآلف والتحابّ، والأخذ في الدين والدنيا بأوثق الأسباب، كذّبوه، وسخروا منه، وبالغوا في التعجب من دعوته، ورموه بشتى التهم حتى وصموه بالجنون».

وبعد:

فهذه زُبدةُ ما واجه به الأستاذ وجدي غوستاف لوبون، أمّا بقية أقواله في شأن الدعوة الاسلامية فقد أفردتُ لها بحثاً خاصاً في كتابي (قضايا إسلامية: مناقشات وردود)[1] ومن المفيد أن يرجعَ إليه القارئ لتكتمل الصورة الحقيقية لآراء غوستاف لوبون، الصورة المنصفة، والصورة المجحفة، وهو بعد مفكّرٌ مادّي، يسيرُ وفق اتجاهه، وإذا كانَ عليه أن يَنْقُدَ، فعلينا أن نُصوّب ما انحرفَ فيه عن سواء السبيل!.



---

(١) الجزء الثاني من كتاب (قضايا إسلامية: مناقشات وردود)، ص٢٥ـ٣٥، للدكتور محمد رجب البيومي، مطبعة دار الوفاء بالمنصورة.

عن الشيوعية

تنبَّأ الأستاذ محمد فريد وجدي بسقوط الشيوعية وهي في أوج ازدهارها، حيثُ قال من بحثٍ شافٍ يتحدّثُ عن مآسيها الدامية[1]: «هذا التورّط الشنيع الذي تتكلّفه الشيوعية، وتحتفظ به في سيل عارم من دماء البشر في سبيل اجتثاث الدين من قلوبهم لا يُعقل أن يدومَ».

واتزانُ الأستاذ في نقاشه حتّى في الموضوعات التي يُنتظر أن يضيع فيها الحلم والتسامح، حين يواجه الكاتبُ بالدّعاية إلى الإلحاد الصريح، هذا الاتزانُ موضعُ الإعجاب حقاً، فلم يكن الأستاذ في مجالدة الملحدين ذا تشنّج عاطفي، ولكنّه كانَ ذا منطق عقلي واضح المنهج، وهو بوحْي هذا المنطق الواضح يحدِّدُ مجرى الحديث، فلا يندفع فيه إلى استطراداتٍ فسيحةٍ تنتقلُ بعقلِ القارئ في شتّى الأودية، بدلَ أن تحصره في حيّزٍ محدود المعالم، بارز الاتجاه، فقد قال في بدء بحثه: إنَّ حياةَ الشعوب الاجتماعية تقومُ على سنة ثابتةٍ من التطور التدريجي، فلا يُستطاع نقلُها من حالٍ إلى حالٍ بنظام يُبتكر، أو برنامج يتخيّل، ومن هذا القبيل جاءتْ

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الحادي عشر، سنة ١٩٤٠م، ١٣٥٩هـ.

(جمهورية إفلاطون) و(سياسةُ أرسطو) وكلّ المدن الفاضلة، فلم تُغن شيئاً، والنظرةُ المركّزة إلى أصول المذهب الشيوعي تُمِدُّها في ثلاثـة أشياء رئيسة.

أولها: محو الملكية الفردية والحقوق الوراثية، وجعل الأرض وما عليها ملكاً لجميع الأفراد.

وثانيها: حذفُ رؤوس الأموال الفرْدية، وجعل الحكومة قيّمـةً عليها.

وثالثها: استئصالُ شأفة الدين من المجتمع، باعتباره ألدّ أعداء الشيوعية.

أما الأصلُ الأول ـ وهو محوُ الملكية الفردية ـ فمُناقِضٌ للوضع الطبيعي، لأنَّ الناس كانوا في أول نشأتهم لا يعرفون الملكية بل ينحصرُ جهدهم في الحصول على الغذاء، ثم هُدُوا إلى الزراعة التي تُشبع الجوعة فحسب، حتى إذا تقدّمَ الاجتماعُ، وزادتِ المعرفةُ بأدوات التحصيل، وتميّزتِ الأسر وُجدت الملكية الفردية.

فالملكيةُ إذن ارتقاءٌ من الشيوعية إلى ما فوقها، فإن عادتْ أمّة إلى الشـيوعية الأولى زايَلها ما ابْتنى على الملكيـة من وشـائج الاجتماع ومناعاته، وأصبحتْ رهن ثورة عاتية، تفكّك الأوصالَ.

وإذا كانَ الشيوعيون يُريدون أن يمنعوا كسبَ إنسانٍ فوق حاجته،

فإنّهم بذلك يقتُلون روحَ التنافس المشروع في نفوسِ الآحاد، فتصبح الكافةُ سواسيةً في الفاقة والعُدْم، ولن يَمنع ذلك وجودُ حكومة مسيطرة على الثروة العامـة، لأنَّ قيام الحكومـة مقامَ الأفراد يُحيلهم إلى آلاتٍ، لا تجد الحافزَ على الإنتاج، كما يشيع الخوفُ والهلعُ حين يرى الفردُ أصحابَ الأمر يبثّون حوله الأرصاد والعيونَ حذراً من تذمّره الداعي إلى الثورة، ويصبحُ بعضُ الأمة جواسيس على بعضها الآخر، فيقع التنازع، ويليه الخراب.

هذا عن الأصل الأول، أما الأصلُ الثاني وهو **الهادفُ إلى محوِ طبقةِ الأغنياء**، لتتحسّن حالةُ الفقراء فباطِلٌ، إذ إنّ الدهماء ليسوا فقراء، لأنّ بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكّروا الثروة، بل لأنّ ما تُنتجه الأرض في بيئتهم من الموادّ الغذائية لا يكفي دُون سعي حثيثٍ لاستنبات الزرع، والبحثِ عن المعادن.

وقد كتب الأحرارُ من مفكّري الروس أنفسهم ما يؤيّد ذلك، فقالَ الأستاذ (نوفيكو): إنَّ المال الذي يُراد تقسيمه غيرُ كافٍ لحاجةِ الناس، إذ لو صُودرتِ الأرباحُ الفرديّة، وقُسّمت على الناسِ في الدولة الواحدة، لما نالَ الواحد أكثر من (١٢٪) مِن دخله الحالي، فالمليونير الأمريكي (بير مورجان) يحصلُ على ثلاثة وثمانين مليوناً من الفرنكات مثلاً في السنة الواحدة، فإن صُودِر مال هذا الرجل، وقُسِّم على إخوانه الأمريكيين نال الواحدُ منهم أقلّ من فرنك، فهل يُغني ذلك شيئاً في رفع المستوى المادي.

ثم إنَّ السيطرة الحكوميّة بعد القضاء على ذوي الثراء، تَقْضي أحياناً على عواطف التنافس في الصدور، وتشلّ ملكات الطموح، فيحرمُ مجموعُ الأمة من الجهود العظيمة في إقامةِ المشروعات النافعة، وبذلك ينهار الوضع الاقتصادي، وتجوعُ الأمة».

أقولُ: وهذا ما حدثَ فعلاً في كلِّ بلدٍ شيوعي، بزيادةِ خطرٍ آخر، وهو أنّ الرؤساء في الدول الشيوعية جميعها لم يَصْدُقوا الناسَ فيما يدعون، إذ جمعُوا لأنفُسهم من الأموال الطائلة، ما سرقوه سرّاً دون جهد، ثم عاشُوا عيشة الترف الباذخ في القصور، فحاكُوا بذلك ترف الأباطرة الكبار، وقد افتنّ مَن يقدر على النّهب في ابتلاع ما يصلُ إليه، وبذلك جاعَت الأمم، وثارتِ الجموعُ، وسقطت الشيوعيَةُ دون رثاء.

فإذا انتقل الأستاذ وجدي إلى الأصل الثالث وهو **الدين باعتباره ألدّ الأعداء في نظر الشيوعيين**، فإنّ الكاتبَ الكبير هنا يجول في ميدانه الذي خُلِق لإحراز قصب السبق في مبارياته، إذ تهكّم بمن يقولون: إنّ كل مجتمع طبقي يتولّد فيه الدّين تحتَ تأثير النيْر الاقتصادي، إذ إنّ الدين غريزةٌ تُوجَد في النفوس قبل أن يعرفَ أهلُها نظام الطبقات، فكيف يتولّد من هذا النظام! والدينُ لا يستمدّ سلطانه من جُوع الجماعات، ولا من وقوعهم تحت براثن القادة الظالمين، بل يستمدّه من أشرف عواطفِ النفس، وأكرمِ غرائزِ العقل، وقد ثبتَ بالمشاهدة أنَّ الإنسان إذا كانتْ

قواه مستوعَبةً في طلب القوت، ضَعُفَ سلطان الدين عليه، ولم يجدْ وقتاً للنظر في نفسه ومصيرها، ولا للفكرِ وآدابه، وكثيراً ما أدّاه شظفُ العيش إلى الكُفر الصريح، وما ارتُكبت الجرائم إلاّ حَين خَفَتَ صوتُ الدين في النفوس.

والدينُ بعد ذلك مُفْترًى عليه، حين يُقال: إنّه يَسْتبقي العادات البالية، ويُحيي النزعات الرجعية، ويخلِق شريعة العبودية، ففي فرنسة وإنكلترة وأمريكة لا يزال للدين صَولتُه ورجالُه الّذين يباركون الرؤساء إذا تمسّكوا بالدين، وما رأيْنا الّدين مانعاً هناك من تطوّر العلاقات بين الشعوب والحكومات، ولا مِن تهذيب الصلات بيْن أصحاب الأموال والعمّال، حتى اعتُبر العمل ورأس المال متساوِيَيْن في الحقوق.

واعترفت الحكومةُ بالنّقابات العمالية، وسَمحتْ لكلِّ مظلومٍ أن يلجأَ إلى دور القضاء لينالَ حقَّه الممنوع، وذلك كلّه دون التنكّر للدين.

أمّا الدينُ الإسلامي، فقدْ أنقَذَ العربَ بَدْءاً من ظُلمات الجهالة، ثم أنقذ العالم منها حينَ رفرفت رايتُه على الأمم التي اهتدتْ به، وإذنْ فالدينُ باعث ارتقاءٍ لا هبوط، وقد نبّه الأستاذ وجدي إلى التُّكأَةِ الواهية التي تستنِدُ إليها الشيوعيون في محاربة الدين فقال[1]:

«لعلّ الذي أطالَ من لسان الشيوعية ضد الدين، أنّ في العامة من

(١) مجلة الأزهر، المجلد الحادي عشر، سنة ١٩٤٠م، ص١٨ وما بعدها.

الجهالةِ مَنْ لايزالون يدينون بالخرافات العتيقة[1]، يحافظونَ على ضلالات الأوّلين، لا يُريدون عنها حولاً، ولكنَّ أصحابَ البصر من تلك الأمم يَروْنَ ذلك، ويَدْأَبون على إصلاحه بوسائل تُلائم الطبيعة البشرية، من طريقِ تَرقيـةِ مداركهم، ورفع مسـتوى عقلياتهم، كـلّ ذلك معَ عدم العدوان على العاطفة الدينية، التي اعترفت الفلسفة أنّها من لوازم الفطرة البشرية، وأنّها لارتكازها على أرفع مميزات النفس لا يُمكن مُلاشَاتُها إلا بإسـقاط الإنسان إلى حَضيض الحيوانية، وإلهائـه عنها بالمطالب الجسديّة، وهو جهدٌ محكومٌ عليه بالضيّاع، لأنَّ الفطرة الإنسانية تعودُ فتنْتَبِهُ للنظر في ذاتها وعلاقاتها بالوجود، فتستيقظُ العاطفةُ الدينيّة من سباتها، وتبْحثُ عن مقوماتها من العقائد والتقاليد، فإذا أصرَّ الشيوعيون على مقاومةِ هذه الميزة الفطرية في النفس البشرية بالقوة، أدّاهُم ذلك إلى ارتكابِ ضروب من العسف تترفّع أيةُ حكومةٍ متمدنة عنه».

ويُدهشـني أنَّ الأستاذ وجدي في حديثه الدائم عن أثر الدين في النفوس ينفحُ قارئه بالجديد دائماً، فهو في كلّ حديث يريدُ أن يكتبه في هذا المجال يخْلُو إلى نفسه، ليفكِّر في هدوء فيما عسى أن يفتح الله به عليه في مسألة يعتقد صوابها الأكيد، وبهَدْيٍ من هذه الثقة تنبثِقُ المعاني الطريفة على فكره، فينقلها إلى قارئه، وكأنها عين تفيض!

---

(١) التي لا تمت إلى الدين بسبب.

وحين أصدر الكاتب المعروف الأستاذ (خالد محمد خالد) كتابه الأوّل (من هنا نبدأ) كانَ في فوْرة حماسٍ لم تلبث أن وَجدت مستقرّها حيث زالت الغشاوةُ عن عينيه، فرجعَ عن كلِّ ما كتبهُ في هذا الكتاب، وقد رأى الأستاذ محمد فريد وجدي أن يُشارِك في ردّه إلى الصواب مع الذين نهضوا إلى ذلك من كرام الكاتبين، وفي طليعتهم الأخ العلامة الأستاذ (محمد الغزالي) رحمه الله في كتابه الرائعُ (مِنْ هنا نعلم).

أقولُ: لقد رأى الأستاذ وجدي أن يُزيل الغشاوة عن عيني شابٍ متحمّس قرأ قليلاً من الشذور الناقصة لبعضِ الذين في قلوبهم مرض[1]، فعدَّها دُرراً غالية، وَبادَرَ بإذاعتها في كتابٍ لو لم يَشْتطّ مخالفوه، فيرفعوا أمرَه إلى القضاء لمرَّ مرور النَّسيم العابر، دُون أن يشعرَ به أحد، **ولكنّ الصحافة المريضة تهتِفُ لكلّ من يُعارِضُ الحق، وكأنّ لها أرباً في أن يصبح الناس ملحدين ضالين، فبالَغتْ في الثناء على الكتاب بتأثيرِ نفرٍ من الشيوعيين يتسلّطون على منافذ الإعلان، فكان له هذا الدويّ.**

لقد واجَه الأستاذ وجدي كتابَ الأستاذ خالد بسلسلة مقالاتٍ هادفة نُشرت تباعاً بمجلة الأزهر تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) ففنّد أراجيف الكتاب بسيف لا يُكلّ، وبخاصةٍ فيما ادّعاه من التسلّط الديني على النفوس المسلمة، ناقلاً ما قيل عن الكنيسة، وكأنّه مَثيلٌ لما في

---

(١) مجلة الأزهر، محرم، سنة ١٣٧٠هـ، المجلد (٢٢).

الإسلام، والرجلُ كعالمٍ في الأزهر، كانَ عليه أن يَعرفَ أنّ الإسلام بريءٌ من الكهنوت المتسلّط، وأنّ رجل الدين به لا يمتازُ عن سواه إلاّ بالعلمِ بحقائقه دون سلطة ما! وقد جَلا الأستاذ وجدي هذه الناحية بما لا نجدُ داعياً لتلخيصه لبُعده عن موضوع الشيوعية التي نتحدّث عنه في هذا الفصل، فقد جعلَ الأستاذ خالد منها علاجاً شافياً لأزَمات العالم بأجمعه، وجمعَ من قُصاصات الوصوليين ما ملأَ به الصفحات لَغَطاً وتهجّماً، فتعقبه الأستاذ وجدي بهدوئه الحازم، وأدبه الجم، وكان مما قال في هذا الصدد[1]:

«إنّا نعجبُ من قول الأستاذ بانعقاد إجماع العالم المتمدّن على أنَّ الاشتراكية خيرُ نظامٍ تبلغُ به المنفعة الاجتماعية حدَّها الأقصى، وأنَّ الدول الناهضة تأخذ بتطبيقها، لأننا نعرف أن الاشتراكية حزبٌ من الأحزاب لا أكثرَ ولا أقل، وأنّها لم تلِ الحكمَ فيها منفردةً بالسلطان إلاّ في إنكلترة، ولكن اشتراكيي إنكلترة معتدلون، لا يقولُون بإلغاء الملكية الفردية ولا الوراثة، بل لهمْ مطالب يتقاضونها من أصحاب رؤساء الأموال طلباً لتحقيق التوازن الاقتصادي، ودَفْع كابوس البؤس عن الطبقة العاملة، وقد رَضَخَ لهم أصحاب رؤوس المال بكثير مما يطلبون، وفازوا في الانتخابات مراراً، وتولّوا الحكم، فلم يَصدر منهم أقلّ تطرف يُثير ثائرةَ المحافظين، ولم يلِ الاشتراكيون الحكمَ منفردين قط لا في فرنسة

---

(١) أمثال سلامة موسى. (الناشر)

ولا في إيطاليـة ولا في أي مملكة أوروبيـة، ورغماً عمَّا يحدثونه من المشاغبات والإضرابات عن العمل هناك، فإنّ تلك الممالك لا تَهبْهُم في الانتخابات العامة، إلاّ عدداً محدوداً من المقاعد، لا يبلغ رُبع ما لِبقيّة الأحـزاب، وذلك لا لأنهم يكرهـون العمال، ويرونَهم أجـدرَ بالكدّ والإرهاق، ولكنّهم يكرهون التّنـازُل عن الملكية الخاصة والوراثـة، ويتسامحون بكل ما دونهُما، فأصبحَ ما سمحوا به من مطالب العمال الحقة حَدّاً يشكرون عليه».

ويلاحَظ أنَّ الأستاذ وجدي في هذه النقطة يتحدّثُ عن الاشتراكية لا الشـيوعيّة، مع أنَّ الأسـتاذ خالد يُريد بما كتب الشيوعية الروسـية نفسـها! ومِنْ تضليل الشـيوعيّين بالعالم العربي أنّهم يتحدّثـون عن الاشتراكية لا بمفهومها السائد في إنكلترة، بل بمفهومها الماركسيّ، لذلك نجدهم يرددون أسماءَ ماركس ولينين وستالين، وكأنّهم آلهةٌ يعبدون! يردّدون الأسماء خداعاً للأغرار.

وقد فطن الأستاذ وجدي إلى أنَّ الأستاذ خالد يُريد بالاشتراكية، الاشتراكية المتطرّفة، وهي الشيوعية، فقال صريحاً في ردّ ما زعمَه من أنّ الاشتراكيين قد أثبتوا صلاحية مذهبهم في قيادة الحياة، مشيراً بذلك إلى روسية الشيوعية، قال الأستاذ وجدي[١]:

---

(١) مجلة الأزهر، شعبان، سنة ١٣٧٠هـ مجلد ٢٢.

«إنَّ الاشتراكية المتطرّفة التي يدعو إليها الأستاذ لمّا يمضِ عليها من الزمان ما يثبتُ أنها أولَى من جميع النظم الاقتصادية لحياةِ الشعوب حياةً طيبةً، فهي لا تزال وليدةَ جماعاتٍ مفكرة، في بيئات لم تستكملْ وجودَها الاقتصادي، دَفَعَتها إلى ذلك عواملُ سياسية ليس لسائر الشعوب مثلها، ولا احتوَشتها من عوامل الانقلابات مثلَ التي احتوَشَتْها، ودليلُنا على ذلك (الشعوب الأوروبية) فإنّها بما أوتِيته من الحرية تستطيع بمحض إرادتها أن تستقيمَ على السبيل الاقتصادي الأصلح لوجودها، ولكنّ أكثريّتها تحجم عنه ولا تريده، وتمضي قُدماً فيما هي فيه، ليس لها من أهداف سوى استيفاء حقوقها بالوصول إليها من الطريق الدستوري المقرّر، لا من طريق الثورة على النظام الاقتصادي القائم».

أكرّر ما ألمعتُ إليه من أنّ الأستاذ خالد رحمه الله كان جريئاً حين اعترف بخطئه فيما كتبه بمؤلفه (من هنا نبدأ) حيثُ أصدر كتاباً تحت عنوان (دين ودولة) يسلِّمُ فيه بكل ما قال ناقدوه، ومعنى ذلك أنَّه كان ينشد الحق، وقد أخطأ سبيله، ثم هداه الله إليه، فكان من الفائزين رحمه الله!

* * *

إسهامات نقدية أخرى

لو خصصتُ كلَّ موضوعٍ ألّفَ فيه الأستاذ وجدي كتاباً نقديّاً، أو بحثاً جدلياً، لطال حبلُ القولِ، ولضاقَ بي المقام، لأنّ الرجل من حميّته الثائرة، كان لا يتركُ مغمزاً من مغامز الإلحاد أو الشّطط المتسرّع إلاّ ونهضَ لِدَحْضِه، مَهْما صغر قائله! وأقول مهما صغر قائله، لأنّ الكاتب الكبير لم يشأ أن يُغْمض عن أناس يَحسبون أنفسهم على شيءٍ، وتُفسحُ لهم الصحف المريضة أبواب النشر، فيشوّهون الحقائقَ غير مبالين، ولو كنتُ مكان الأستاذ لأغمضتُ النظر عنهم، لأنّ ممّا يُشبِعُ رغباتهم الهاوية أن يجدوا كاتباً عملاقاً يحتفِلُ بما يكتبون، فيناقشهم بأدب واتزان . . ولا سبيل لي أن أطوفَ بكلٍّ ما كتب الرجل، ولكنّي هنا أخصُّ بعضَ آثاره بتحليل موجز، والإيجاز محتومٌ متطلَّبٌ.

ومما لمْ أشر إليه من قبلُ في باب النقد كتبٌ كسّرها الناقدُ على موضوعٍ واحدٍ، وكتب تعرّضت لموضوعاتٍ شتّى، وسأختار من الجانب الأول:

أ ـ (نقد كتاب الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين.

ب ـ (الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية).

جـ ـ (اللورد كرومر والاسلام) نقد علمي لكتابٍ ألّفه اللورد متجنياً

ومما أختاره من الجانب الثاني:

أ ـ مقالات نقدية في كتاب (من معالم الإسلام).

ب ـ مقالات نقدية في كتاب (مناقشات وردود).

جـ ـ مقالات نقدية في كتاب (فصول من السيرة).

وبكل ما ذكرته مضافاً إلى ما قبله، وإلى ما كتبته عن نقد (المرأة الجديدة) في كتاب (المرأة المسلمة) يجدُ القارئ ما يشبعه ويرضيه.

أ ـ كتاب (نقد كتاب الشعر الجاهلي):

حين ظهر كتاب (في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين قام بنقضه فضلاءُ كبارٌ من أمثال (محمد الخضر حسين) و(مصطفى صادق الرافعي)، و(محمد لطفي جمعة) وغيرهم، وقد شاركَ في هذه المعمعة الأستاذ محمد فريد وجدي، وَلي كتاب خاص بهذه الحركة النقدية أصدره المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود سنة ١٩٧٦ فلا أعودُ إلى إيجاز ما كتبت، ولكني أشير هنا إلى أنّ الأستاذ وجدي انفردَ ببحوث هامة عن الناحية الاجتماعية والفلسفية تورّط الدكتور في تشويه ما يدور

حولها من المسائل، وإذنْ فليست الناحية الأدبيّة وحدَها هي التي كانت موضعَ هذا التورط، ومَن أَوْلَى من الأستاذ وجدي بإيضاح الحقيقة في هذه الأغاليط المتراكمة، لذلك كان كتابُه ذا لون خاص في بابه، وقد قال الأستاذ بصدد ذلك[1]:

«إنّ الدكتـور طه قد عوَّل على كُتب المحاضرات، وهي قـراءةُ الأكاذيب، ومُسْتنقَعُ المفتريات من كل نوع، فجاء كتابُه بما حملَ من أوزار المفترين، وبما غلا هـو فيه من تقصّي إغـراءات المتناظريـن، وتسويلات المتنافسين، طامساً لمعالم أكبر ثورة اجتماعية حدثتْ في العالم، ألا وهي ظهور الديانـة الإسلامية، وما اسـتتبع انتشارها من سقوط دُول وقيام دُول، وطروء عهدٍ جديد على الإنسانية، انتقلت به درجات كثيرة، في معارج العلم والفلسفة والخلاق والعمران.

ثم قال الأستاذ: إنّي ما كدتُ أتمُّ قراءةَ كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدتُني مدفوعاً لوضع نقدٍ له استهدف به غرضيْن.

أولهما: مناقشتُه في المسائل التي تتعلّق بتكوين الأمة الإسلامية، ولا يتفق حكمه فيها والمقررات التاريخية، ولا الأصولُ الاجتماعية، وأرى الإغضاءَ عنها ضارّاً كلَّ الضرر بنابتـة هذا الجيل، وهم في هذا الدّور من الانتقال السريع.

---

(١) مجلة الزهراء، ربيع الثاني، سنة ١٣٤٥هـ، ص٢٨١.

وثانيهما: مقابلةُ أوّل ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه من العناية، وهذه العناية لا تعني في عالم العلم غير النقد والتمحيص».

وقد تابع الناقد فصول الكتاب، فكان يَبدأُ كلّ مقال بخلاصة وافية أمينة لما ذكره الدكتور، ثم يكرُّ عليها بالحجة الواضحة في غير صلَف أو تهجّم، حتى إنه كان في بعض المواضع يقولُ عن بعضِ أفكار المؤلّف، هذا أبدع ما يقال! مما يدل على أنه لا يتعمد التجريح ولا يتصيده، بل يزن الآراء بميزان العلم الصحيح.

وكيلا أكونَ أنا صاحبُ الرأي الأوحد، فإني أنقُل للقارئ بعضَ ما قاله الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب عن كتاب الأستاذ وجدي. فقد وفّاه حقّه في تقريظٍ صائبٍ، لا وجه فيه للمجاملة، وأقول لا وجهَ فيه للمجاملة، لأنّ الأستاذ محب الدين سبقَ أن عارضَ الأستاذ وجدي في اتجاهات علمية تنفسِحُ فيها آماد النظر، والقارئ اليقظ سعيدٌ بهذه المعارضة، لأنها ذاتُ صدق وإخلاص، وهي بذلك أحرى أن تهدي إلى الصواب، وقد قال الأستاذ محب الدين عن كتاب الأستاذ ببعض التصرف[1]:

«ومن أهم ما وفّاه الأستاذ وجدي به حقّه من البيان في رده على الدكتور طه حسين، انتصاره للثورة الاجتماعية الكُبرى التي جاء بها

---

(١) مجلة الزهراء، ربيع الثاني، سنة ١٣٤٥هـ، ص٢٨١.

الإسلام، ودفاعه عن أساليبها وغاياتها، ومقاومته العاملين على تشويه جمالها، ويرى الأستاذ وجدي بك أنّ طه حسين قد التزمَ طريق الغلو في تحرّي أسباب الاختلاق على الجاهليينَ بما التقطه من كتب المحاضرات، فجاء كتابُه طامساً للحقائق، وقد نقد من كتاب طه حسين ما يتعلّق منه بعلم التاريخ والاجتماع، أي أن هناك أبحاثاً كثيرة تركَ الكلام فيها لغيره، وما كتبه الأستاذ فريد في ذلك قد أحسنَ فيه كلَّ الإحسان».

ب ـ الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية:

حين رأى الإمام محمد مصطفى المراغي أن يُصدر الأزهر ترجمةً أمينةً لمعاني القرآن الكريم، هاجت عليه الهائجة من أناسٍ يعارضونَ لذاتِ المعارضة! وأيْن هُم الآن؟! وقد أصبح الجميع مُعْتقداً ضرورةَ ترجمة المعاني القرآنية؟ وقد طالعَ الأستاذ فريد وجدي ما قيلَ في معارضة هذا الاتجاه، فأصدر هذا الكتاب ردّاً مهذباً أمنياً على كلّ ما تخيّله المعارضون، وكانَ كدأبهِ الدائم يجادل بالحكمة والموعظة، داعياً إلى التي هي أحسن، وإنك لتحس أثر الوجيعة الدامية في نفسِ الأستاذ وجدي حين يقول عن المنابذين بعد أن أكّدَ أنهم حَسَنوُ النيّة، ولكنهم مُغْتَرُّون بالحصّة الضئيلة من المعارف التي حصلوها، وربما انكشفتْ آيةُ واحدة لبعض أولي البصائر فملأتْ طباق الأرض نوراً.

يقول الأستاذ وجدي: يقولون (مانعو ترجمة المعاني) هب أنَّ كلَّ ما تقوله حق، ولكن ما العمل وقد أجمعَ الأئمةُ على أن ترجمة معاني القرآن لا تجوز؟.

وأقولُ: يا لَضيْعة العلم! أفي مثل هذا البلد الذي يعتبر مثابةَ للإسلام، وبين ظَهراني الألوف المؤلّفة من علمائه، يتجرأ المتجرّئون على اتهام أئمة الدين الأولين بحصر معاني كتاب الله في اللّغة العربيّة، وعدمَ تعْديتها إلى الأمم التي كُلّفنا بإبلاغها إليهم، ألا يسعهم ما وسعَ آباءنا الأولين مِن لدن القرن الأول، بل ما وسع النبيَّ ﷺ إذ سمح بأن تُترجم الفاتحة، ويقرأ بها مترجمة في الصلاة، وإلى ذلك ذهب أبو حنيفة[1]!.

وقد كان الأستاذ محمد سليمان والأستاذ محمد مصطفى الشاطر من كبار رجال القضاء الشرعي في طليعة المعارضين، وقد أصدرَ كلٌّ منهما كتاباً خاصاً بنقد ترجمة المعاني، حتى إنّ الشيخ محمد سليمان قد جعلَ عنوان كتابه (حدث الأحداث في الإسلام)! وهو عنوانٌ يوحي بالاستهواء العاطفي للمشاعر الساذجة، إذ لو كانت إذاعةُ معاني الكتاب المبين بين الأمم الأجنبية هي حدثُ الأحداث في الإسلام! فماذا نقول عن أسباب حروب الردّة، وعن هجوم التتار على بلاد الإسلام، وعن

---

(١) لم يصح ذلك عن النبي ﷺ، وما ذهب إليه أبو حنيفة إنما هو فيمن لم لا يعرف العربية ولا يحفظ شيئاً من القرآن، وقد خالفه في ذلك صاحباه وعلى قولهما الفتوى. (الناشر)

سقوط الخلافة! وعن الحكم بغير ما أنزل الله!! ثم عن ضياع الأندلس بالأمس، ونكبة فلسطين اليوم؟[1].

وقد تجلّى النظرُ الفقهي للكاتب الكبير في دفاعه عن الفكرة التي تبنّاها قدر ما تجلّى النظر العقلي، بحيث من يقرأ مناقشته للأئمة من الفقهاء، يحسبه أحدهم، إذ هو تأييدٌ من الله ساقه لمجاهد غيور رأى أن يقتحم العُباب مؤيداً بثقته البالغة وإيمانه الأصيل.

ومن الفصول الرائعة البديعة ما كتبه الأستاذ وجدي تحت عناوين (١) لمَ لمْ يترجم الصحابة القرآن، (٢) لِمَ لمْ يترجم العبّاسيون القرآن، (٣) هل تُعطّلُ ترجمةُ القرآن إلى اللغات الجنبية انتشار اللغة العربية (وهي دعوى مضحكة أسرف في بسطها المعارضون)، (٤) التلاعب بالمسائل الخلافية، وهذا الفصل الفريد لا تقف جدواه عند مسألة الترجمة فحسب، ولكنّها تتعدى ذلك إلى كشفِ من يحاولون أن يتصاولوا بالنقول المختلفة الصادرة عن أناس يخطئون ويصيبون، وكأنّهم في نظر المعارضين

---

(١) كان قصد الشيخ محمد سليمان وغيره من أكابر العلماء التصدي للدعوات الجاهلية التي تدعو كل قوم إلى ترجمة القرآن بلسانهم لا من أجل الفهم، بل للاستغناء عن العربية وعن صِلاتهم بالتراث العربي الإسلامي، وليوجدوا إسلاماً قومياً خاصاً بهم، كما فعل الكماليون في تركية حين ترجموا القرآن إلى التركية، وحملوا الناس على اعتماد الترجمة في الصلاة، وحرموا عليهم قراءة وحيازة النص العربي. (الناشر)

معصومونَ من الخطأ! مع أنّهم في قصارى شأنهم مجتهدون، والمجتهد يخطئ ويصب.

هذا بعض ما يقال عن كتاب (الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن للغات الأجنبية) وفيه بلاغ.

جـ ـ اللورد كرومر والإسلام:

ما رأيت الأستاذ وجدي عالي النبرة في رُدوده الكثيرة الّتي جاوزتِ المئة كُتباً ومقالات، كما رأيته في ردّه على اللورد كرومر، وذلك لأنّ هذا الجبار المتغطرس قد أساءَ إلى الإسلام في تقريرٍ رفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية، فردّ عليه الأستاذ وجدي، وعمل على ترجمة الرّد إلى لإنكليزية في صحيفة سيارة هنالك، ليقرأه اللورد فيصحّح أخطاءه! هكذا ظنّ الأستاذ.

ثم فُوجئ بكتابٍ قاس يطعن في الإسلام ويثلِب مصر معاً، ناسباً ما زعمه من تقهْقرها الماديّ والعلمي إلى الإسلام، وقد كرّر كلّ ما ذكرَه في تقريره الأول، وكأنه يصرّ على أخطائِه، بل كأنه يتعالى أن يصحّح له أخطاءَه فردٌ من أبناء النيل، لذلك جاء ردُّ الأستاذ فريد وجدي عالي النبرة، إذ لا يفلّ الحديد إلا الحديد.

وقد قال الأستاذ في مقدمة كتابه: «يُخيّلُ لمن يطالع كتاب اللورد أنه استمْلاه من رَجُل في لوندرة (لندن) لم يزر مصر إلا سماعاً، لشدّة

مايجده من البعد عن التحقيق في كثير من المواضع، ثم إنّ اللورد صغر في عيني جدّاً من حيثُ معارفه التاريخيّة والدينيّة والاجتماعية، وقد كنْت أظنه بعدما قرأ ردي عليه في جريدة (ذى إجبْشن سْتندارد) الإنكليزية يَؤوب إلى الحق، فيعتذر عما اختزنَه في ذهنه على الإسـلام من طرُق الوراثـة والتقليد، فإذا به ازداد تعسفاً، وجَنى على الحقيقة جناية لا تغتفر».

وكأنّ الأستاذ وجدي يَعتذِرُ عن لهجته الحادة حين يقول: «يظهر أنّ اللورد كرومر قد قطعتْه السياسة عن العلم، فلم يدرس في فلسـفة الأديان كتاباً واحداً، ويسوءُنا جداً أن نحاربه في تعدّيه على الإسـلام، فنكيل له الصاع بالصاع».

والتلخيصُ المُوجز هنا لا يغني عن الأصل الدسم الحافل بالمنطق الجزل، وكان اللورد قد زعم أنّ المُتعلّم في مصر لا يجد بدّاً من الكفر بالإسلام، وهو زعمٌ أخرق، وقد ردّ عليه الأستاذ فقال:

«كيف يكفـر المتعلّم، وكلُّ ما في العلم دليلٌ على كتـاب الله، وبـرهان على صدق رسوله ﷺ؟ اللهم إلا نفراً من الذين رَضعوا ثديَّ العلم في المذهب الماديّ، ولم يعلموا عن الإسلام شيئاً، فانقطعُوا عنه كما تنقطع الشاة الضالّة عن قطيعها، فأصبحُوا طعمةً لذئب قلم كرومر، ولا بدّ أن الذين يحومون حوله من هذا الصنف الفاسد، وقد دسوا له هذه الدسائس على أبناء ملّتهم، وما دَروا أنه قد فَضحهم، فلا أكرمَ الله هذه

النفوس السافلة التي تخون أماناتها في سبيل حطام الدنيا»[1].

وتَدورُ اتهامات كرومر على موضوعاتٍ مشتهرة مثل: (١) أنّ الإسلام حطَّ من شأن المرأة، (٢) أنَّ العلماء المقلدين كانوا السبب في جمود الشريعة حتى أصبحت لا تصلح قانوناً للناس، (٣) ومثل أن الإسلام لم يُبطل الرقَّ مع أن المسيحية لم تُبحْه، (٤) المسيحي ينتظر أن يرى في السماء بعدَ رحيله أعزاءه الراحلين، ولكنَّ المسّلم لا ينتظر إلا الحور العين، والمسيحيّ يصلّي صلاته خفية، ولكنّ المسلم يجهر بها، والمسيحي يصوم باعتدال، والمسلم ينقطع عن الطعام نهاراً، ويأكل كل ما شاء بالليل، وهذه أراجيف لا تثبت لتحقيق، ومسائل المرأة والرق وجمود التشريع المزعوم قد ردّ عليها الكاتبون في صحف الغرب بما تجاهله اللورد، ولم يعبأ به، أما الترّهات الأخرى فواهيةٌ لا تحتمل نفخة هواء، وقد بدّدها الأستاذ وجدي بقلمه الباتر.

ومن أبدع ما ذكر الأستاذ وجدي بصددالمقارنة بين المسلم والمسيحيّ قوله[2]: «لو عدلَ اللورد كرومر في المقارنة، لقارنَ بين المسلم أيام كان يعمل بدينه وبين المسلم اليوم، ولو عَدل لقارنَ بين المسلم أيام مدنيّته الباهرة في الأندلس وبغداد ودمشق وبين المسيحي آنذاك، ولَوْ عَدلَ لقارن بين المسيحية كما كانت في القرن الأول والثاني

---

(١) اللورد كرومر والإسلام، ص٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧.

والثالث والـرابع إلى الرابع عشـر وبين الإسلام في قرنه الأول والثاني والثالث وما بعدها.

وتتوالى الردود مفحمة، ومن أعظمها صولةً ما ذكره بشأن النظام الاجتماعي في الإسلام، الذي وصفه اللورد بما يسيء، أما ما بسطه في وصف العالم الأوروبي جميعه، وما بلغه من الانحطاط في القرن السادس وما بعده، حين أشرقَ الإسلام، فأخرجَ الإنسانية من الظلمات إلى النور، فرائعٌ حقاً، وإذا كان هذا النقد قد صدر سنة ١٩٠٨ أي منذ تسعين عاماً، ولمْ يُطبع مرةً أخرى، فكم يكونُ من الخير أن يُسارعَ أحدُ الفضلاء إلى نشره، ليرى الناس كيف يكون التجني الصارخ، والدفاع الباتر.

وفي الـردّ فصولٌ يجب أن تُتلى مراراً مثل الـرد على التعصب الإسلامي، وهو أمر كان يكرّره اللورد كثيراً في مصر قبل إقالته حتى صرخ حافظ إبراهيم بقوله:

أَوَكُلَّما باحَ الحزينُ بأنّةٍ　　　أمستْ إلى معنى التعصُّب تُنْسَبُ

ثم أخذ يُردِدّه بعد رحيله: ولم يَسأَلْ نفسه مَن المتعصّب؟ المظلوم أم الظالم.

وفي الختام فصل قويٌ يتحدّث عن الإسلام بين الماضي والحاضر، وكأنهُ تركيزٌ دقيق لمعانٍ انتشرت فيما سبق من الفصول، وأعمقُ ما فيه

ما تحدّث به الكاتب عن الأصول اليقينية للدين الحنيف، وهي أصولٌ عشرة، وجدت تحديدها الدقيق فيما كتب الأستاذ، أما أسبابُ الانحطاط المشاهَد اليوم، فقد ختم بها الأستاذ كتابه، راسماً الدواء الناجع لهذا التخلّف المر.

* * *

وهذا بعض ما يقال عن القسْم النقدي الخاص بموضوع واحد، أما الكتب القوّية التي كتبها الأستاذ دون التقيد بموضوع واحد في مجال النقد، وإن لمستْه في مواضع متفرقة، فمنْها:

أ ـ من معالم الإسلام:

هذا كتابٌ ذو وحدة موضوعية، وقد نُشر متفرقاً على صفحات (مجلة الأزهر) وقُمت أنا بجمعه وتقديمه في كتابٍ منفرد أصدرته الدار اللبنانية المصرية، وهو ينقسمُ إلى وجهتيْن.

الوجهة الأولى: خاصة بالدين الإسلامي باعتباره الدين الخاتم.

والوجهة الثانية: خاصّةً بالدين عامة، لأنّ قوماً من غُلاة الأوروبيين، وبخاصة أنصار المذهب الماديّ عدّوا الدين خرافة لا حقيقة لها، ونشرُوا من الكتب المتتالية ما لم ينقطع سيله أمداً طويلاً، فكانَ الدفاع عن الدين واجباً محتوماً أمام هذه الحملات الضارية.

وفي باب الحديث عن الإسلام كَتَبَ الأستاذ فصلاً رائعاً تحت عنوان (المستقبل للإسلام) حين طُلِب إليه أن يُدلي بأقوى ما يملكُ من حُجج لكي يبيّن أنَّ الإسلامَ دينُ المستقبل، فنهضَ إلى ذلك نهُوضاً علميّاً يرتكز على المنطق السديد، **فأوضح أنَّ الإسلام قد كلّف من يريد اعتناقه أن يتجرّد من معتقداته السابقة، وأنْ يخضعَ ما يحصله من المعارف لأساليب البحث والتحليل مستجيباً إلى فطرته التي فطره الله عليها، نائياً عن الظنون والهوى، لأنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً، مقدِّراً نعمة الله عليه حين رزقه العقل الكاشف، لأنّ شرّ الدوابّ عند الله هم الصمّ البكم الذين لا يعقلون، وهو غير مسؤول إلا عن نفسه، إذ ليسَ للإنسان إلا ما سعى، ولا تزرُ وازرة وزْر أخرى، وكل هذه علائم تهدي للصواب، ولا بدّ للتقدم الإنساني أن يبلغ هذا الحد.**

وقد يقول قائلٌ: ولماذا الإسلام بالذات؟ فيجيبُ الكاتب الكبير قائلاً: إنّ الإسلام دلّ على مناعة لا تُرام عند سواه، فقد احتكّ بالأديان التي سَبقته حينَ كان جبابرةُ العقول يتولّون الذودَ عنها، فظهر عليهم بما سنّه من مبادئ رفيعة، واجتذبَ منهم من عَرفوا الحق، فصارُوا من كبار دعاته، وقد تَبارى دعاةُ المسيحيّة من كبار المبشرين في أوروبة مع التجار المسلمين في أفريقية، كلٌّ يحاول أن يضمّ إليه هؤلاء الذين يعيشون دون دين صحيح، فكانت فطرة الإنسان هاديته إلى الإسلام، ولم يُفلح دهاقين المسيحيّة إلا بإغراءٍ هائل من المال والأحلام والمطامع في اجتذاب مَن قدروا على إغرائه، أما التُّجار البسطاء من ذوي الفطرة السليمة فقد

جذبوا عشرات الملايين من النفوس دون وعد كاذب أو إغراء خادع .

ثم إنّ الفلسفة اليوم علميّة، تدفع الإنسان إلى الوقوف على المجهول، وسيجيءُ يومٌ تصل فيه إلى النور الهادي، ونحن لا ننكر العالم العلوي حين لا نراه بأبصارنا، لأنّ في الوجود الذي نعيشُ فيه ظواهرَ ماديةً كشفها العلم المحسوس، وقرّرها، وكنّا لا ندرك وجودها بالحواس، فبأيّ حق يَجوز لنا أن ننكر العالم العلوي، لأننا لا نراه بالحواس؟

هذا بعض ما أفاض فيه الأستاذ مما يتعلّق بالإسلام خاصة، أما ما يتعلّق بالدين على وجه عام، فقد دفعه إلْحاحُهُ المتصل في معالجة مسائل الدين ومهاجمة أعدائه إلى وضْع مذهب في التفكير الديني يعصِمُ من الخطأ، ويحمي الباحثَ من الخلطَ بين ما هو علم يقيني، وما هو رأي مرجح، وما هو افتراضٌ مؤقّت، ليأمن العقل بهذا المنطق من التخبّط الضال على غير هدى، وقَدْ بنى منطقه الديني على أصولٍ نذكر منها هذين :

١ ـ تساوي الناس جميعاً في الحقوق والواجبات، بحيث لا يتفاضلون بجنس أو لغة أو لون، ولكن بالمزايا الأدبيّة، والقُوى العقلية .

٢ ـ الدين غريزة عقلية موهوبة لا مكتسبة، فهي شيء فطري لا مناص منه .

وبعد أن امتدّ به البحث طويلاً لتقرير هذين الأصليْن، نظرَ إلى

الإسلام باعتبارِه حامياً لهما، فذكر من أصولهِ ما يؤكّدهُما تمام التأكيد، منتهياً إلى تعانق العلم الصحيح مع الدين الصحيح، وإذا أمكن أن يُهدَم العلم الصحيح ـ وهو غير ممكن ـ أمكنَ أن يُهدم الدين الصحيح، وهذا ما لا سبيل إليه، كما أنّ العلمَ على قوته الخارقة لا يقدِرُ على كبح جماح الأهواء البشرية، وكسر عرامها، بل ساعدَ على انتشار الحروب الفتاكة بما اخترع من الآلات المدمرة، فجاءِ الدين شاكماً للعلم أن يتورَّط في كلّ ما هو وحشي، وأن يرتدّ بالإنسان إلى مبادئ الأخوة والعدالة والحرية والمساواة . . والكتابُ كلُّه دعوةٌ إلى الدين الصحيح، وإلى التمسّك بفضائله الباهـرات، وقد أغفلتُ الحديث عن موضوعات صائبـة، ومجادلاتٍ بارعة، لأن الاستيعاب هنا عسير غير ممكن . .

ب ـ مناقشات وردود:

وهكذا الكتاب أيضاً مما جَمعتُه من مقالات الأستاذ بعيدَ رحيله، إذ عزَّ عليّ أن ينهضَ الرجل الكبير بمواجهة خصوم الإسلام في الغرب نهوضاً متواصلاً، فيكتبَ هذا الفيض من المقالات الصادقة، ذات الأدلة الدامغة، ثم تظلّ هذه المقالات مبعثرةً في الصحف، لا يقرؤها أبناء الجيل المعاصر، وإذا مرّ عليها الزمن فستصير خبراً من الأخبار، لذلك تتبعتُ ما أمكن الحصـولُ عليه، لأختـارَ من هذه البحوث ما تسـمح المطبعة بتقديمه، وكان من هذه البحوث ما يلي:

١ ـ مناقشة الفيلسوف الفرنسي (غوستاف لوبون) في تعليل انتشار

الإسلام، ورجوع ذلك إلى أسباب مادية لا علاقة لها بصدق الدعوة الربانية، وذلك في فصول متوالية تابعها الأستاذ بقوة واقتدار[1].

٢ ـ مناقشة ما كتبه الباحث الإنكليزي (فرانك ـ هـ ـ فوستر) فيما كتبه في مؤلّفه (حياة محمد) حيثُ ادّعى كذبَ النبوة، ووصفَ نشأة رسول الله ﷺ وصفاً بعيداً عن الصواب، وشكّ في أميّة الرسول ﷺ، ليصلَ من ذلك إلى أنّه تأثر بالتوراة والإنجيل، وأخذ منهما حقائق صاغها في القرآن الكريم.

٣ ـ مناقشة الكاتب الإنكليزي (هـ. ج. ويلز) فيما هَرف به نحو تعدد زوجات الرسول ﷺ، وضآلة سيرة الرسول ﷺ قبْل البعثة، وهجومِه على القرآن الكريم بأنه لا يشمل أفكاراً فلسفية أدبيّة تليق بنسبته إلى الله.

٤ ـ مناقشة الباحث البلجيكي (هنري بيرين) في موازنته التاريخية بين محمد وشرلمان، ووقوفه أمام الفتوح الإسلامية وقفةً حائرة، مع أنّ من السهل تعليلها العقلي، إذا لم نحِدْ عن المنطق الصحيح، ثم الإجابة عن سؤالِ الكاتب، لِم لمْ يَفْنَ العربُ في الأمم المفتوحة، وهم قلة بالنسبة إليهم؟

٥ ـ مناقشة الكاتب المبشر (أندريه هرفيه) فيما ادعاه من أنّ ضعفَ

---

(١) وقد أفردت للحديث عنها فصلاً سابقاً. انظر ص(٢٥٤).

المسلمين المشاهد الآن راجع إلى التمسك بمبادئ الإسلام، وأنّ ما ينسبه المسلمون الآن إلى الإسلام من رُقيّ فكري لا يرجعُ إلى الإسلام نفسه، بقدر ما هوَ مقتبس من الحضارة الأوربية، في محاولةٍ جريئة لإلصاقه بتعاليم الإسلام.

٦ ـ مناقشة العالم الأمريكي (أسياه بومان) في دعواه أنّ الدعوة الإسلامية كانت غارة شعواء على الأمم العالمية، للاستعمار واختلاس ثمرات الشعوب.

هذه بعض الموضوعات التي ناقشها الأستاذ فيما جمعناه في كتاب (مناقشات وردود) مع مقالات أخرى، يُناقش فيها نفراً من فضلاء المسلمين، يخالفهم الرأي في بعض ما كتبوه، وهو نقاش هادف يُبين اختلاف وجهات النظر بين عقول مؤمنة تذهبُ في التعليل الفكري مذاهبَ شتّى، ولكنّها جميعها تؤمن بصدق الرسالة الإسلامية، وتؤكّد ما جاء به الإسلام من هداية وإصلاح.

جـ ـ فصول من السيرة ومباحث أخرى:

لم يشمل كتابُ (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) ما ألحقهُ الأستاذ به من فصول تتحدّث عن التشريع والدعوة، وإن كُتِبَتْ تحت عنوان السيرة، ولذلك رأيتُ أن تختصّ هذه الفصول بكتاب مستقل، تحت العنوان السالف، وقد جمعتُ مقالاته المتناثرة لتكونَ في

حيّزٍ مستقل، كدأبي فيما سبق من الكتب، ثم رأيت أن أضيفَ مباحث أخرى ذاتُ نفاسةٍ رفيعة، كتبها الأستاذ في دقة شافية، وبين هذه المباحث ما كتبه تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها في النفس البشرية)، وهي سلسلةٌ متصلة، تبلغ حلقاتها أربعَ عشرةَ حلقة متكاملة، تفيضُ في شجون عن المقومات الروحية للذّات الإنسانية، والمقومات النفسية للفرد والجماعة، ومقومات النظر والتعقل والتفكير، وعلاقات الإنسان بالعالم الخارجي، والعاطفة الاعتقادية في الإسلام، والمقومات الجثمانيّة، والمقومات الخلقية، والمقومات الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، والسياسة الدولية، وإذا كانت هذه البحوث قد كُتِبتْ في الثلاثينيّات، فهي في وقتها السالف تُعدُّ جديرة مبتكرةً، وهي في الوقت نفسه ركيزةٌ أولى لما دار حول هذه البحوث فيما بعد، لأن الكتابة في هذه الموضوعات قد اتسعتْ اتساعاً حميداً بعد أنْ وضعَ الأستاذ بذرات صائبة في هذا الحقل، وأكاد أشير إلى أُناس اقتنَصوا لآلئ كثيرة من هذه البحوث، ثم نَسجوها نسجاً آخر، مع أنّ الخيوط الأولى نُسجت على قول الأستاذ الكبير.

وهذا ما حصل في مباحث أخرى جمعت في هذا الكتاب تحتَ عناوين: الحياة الدينيّة والحياة المدنية، والإسلام حمى الإنسانية من الانهيار، والدين مُطمئن النفس، والدين هو الكوة التي ينبع منها النور للإنسان، وهل في الإلحاد مادة للبقاء؟

قارئي العزيز، لك أن تراجع كلَّ ما كتبتُ، ثم تعمد إلى آثار الرجل فيما جُمع من المقالات، وما استقل بكتب خاصة ثم تتساءل: في أيِّ مدى تلاطم هذا الموج الزاخر؟ وكيف خرجت هذه الحدائق المزدهرة من بَنانِ مُبدعٍ أصيلٍ، يمده فكرٌ ثاقب، وعاطفةٌ مؤمنة! وكل ذلك في هدوءٍ صامت، وتواضع حميد. .

* * *

شخصيات تاريخية

لا أظن أحداً يُنكرُ جهدَ الأستاذ فريد وجدي في الحديث عن أعلام التاريخ في (دائرة المعارف)، فقد تحدّث عن مئات الشخصيات الّتي أدّت دوراً علمياً أو سياسياً أو حربياً حديثَ المؤرخ المحايد، وفي بعض أحاديثه تلك قد أسهب إسهاباً مُحيطاً بكلٍّ ما يتعلّق بمن يتحدث عنه، سواء كان المترجَمُ له شرقياً أو غربياً.

وتلك إشارة عابرة تُسجّل فَضلَ الرجل في هذا المجال، حيثُ أقصرُ حديثي في هـذا الفصل عن بعض أناسٍ خصّهم الكاتِب الكبير بالتحليلِ العلمي في مقالاتٍ نُشرت في أمّهات الصحف، لنعرف نظرتَه الملتزمة للأعلام، وأقول الملْتزمة لأنَّ خطّته الفكرية الهادفة لم تفارِقْه في كلّ ما كتب.

وقد اهتدى الكاتِب الكبير إلى هذا الالتزام منذ حملَ أمانة العلم، حتّى إنّ دارسهُ ليَعلم من الوقوف على اتجاهه الفكريّ في أي دائرة يطوف حديثه، وإلى أي نظَر يتّجه حكمه، وهذا ما نَشْهدُه في آثار أصحاب الرسالات.

وسأختارُ للتمثيل خليفةً حاكماً، وبطلاً فاتحاً، وشاعراً مفكراً، مع إلماعٍ إلى مواقفَ أخرى يَقتَضيها المقام، وأصارحُ القارئ أني تحاشيتُ أن أخوضَ فيما لا أحْسِنُ الترجيحَ في مسائله، لأنّ لكلٍّ كاتب طاقتَه المحدودة.

فقد قرأت بحثاً ضافياً للكاتب الكبير عن المؤرخ العالمي (عبد الرحمن بن خلدون) ومنزلته في عالم الاجتماع، ذهب فيه الكاتِبُ إلى غير المشهور الذائع من إبداع المؤرخ الكبير في مجاله التاريخي والاجتماعي، إذ أخذ عليه أموراً علمية كانَ من الصعْب عليَّ أن أتبيّن مقدارَ صوابها أو خطئها، فآثرتُ أن يكونَ الحكمُ في هذا النطاق من شأن باحث متخصّص في مسائل علم الاجتماع، وَدرسَ ما اهتدى إليه ابنُ خلدون مُقارناً بما انتهى إليه أعلام الغرب في هذا العلم الخطير، ليكون أهلاً للحكم السديد[١].

أما الخليفةُ الحاكم الذي اخترتُه من بين من تحدّث عنهم الأستاذ، فهو الفاروق عمر بن الخطاب، وقد كَتبَ عنه الأستاذ وجدي مقالاتٍ متفرقة في سنوات عمره الحافل، ولكنّي أقفُ عند مقالٍ كتبه بمجلة (الهلال) تحت عنوان (الجانب الفلسفيّ في حياة عمر) ذَاهِباً في خلاصةِ

---

(١) انظر كتاب (عبد الرحمن بن خلدون) للدكتور علي عبد الواحد وافي في سلسلة (أعلام العرب)، والمؤلف متخصص في علم الاجتماع. (الناشر)

إلى أنّ نبوغَ رجلٍ كعمر في بيئة بعيدةٍ عن العلم والفلسفة، وإدراكه المُثل الإسلامية كما أرادها الشارع، وفوقَ ما أدركه فلاسفة النفس وعلماء الاجتماع من بعده بأجيالٍ، أمرٌ يَستوقف النظر، ويدعو إلى الحيرة، ولا تخرج منه إلا بتعليل ذلك بالعبقرية».

وقد حَدّد الكاتِب مَعْنى العبقرية تحديداً خالفه فيه الكثيرون، إذ ذَهب إلى أنَّ العبقريـة في الإطلاق الشائع، تَعْني بلوغ صاحِبها درجةً ممتازة من الذكاء، ومكانةً عاليةً في العقل، ولكنّها في الاصطلاح العلميّ موهبةٌ لا يمكن اكتسابها من طريق العلم والتجربة، وهي تؤهّل صاحبها لأن يكون مُلهماً فيما هو بصدده، حتى يبلغَ درجة الإبداع فيه بدون أن يُعمل فكراً، أو يبذل جهداً.

وموضع الخلاف أنَّ الكاتب الكبير يرى العبقريةَ إِلْهاماً لايكتسب، بل تأتي نتائجُه الباهرةُ توفيقاً من الله دون إعمال الفكر، أو بذل الجهد، أما غيرُه، فيرى أنَّ العبقريَّ له تجربته، وعليه أن يبذلَ الجهد، وَيعمل الفكر، ثم ينتهي إلى السداد بالموهبة والاطلاع والفكر معاً!

ولعلّي أميلُ إلى هذا الرأي، فما مِن عبقريّ شُهد له بالعبقرية إلاّ وبحث قَدر طاقته، واجتهد باذلاً ما في وسعه، ثم أمدّتْه الموهبة الخارقة بتوفيق سديدٍ، لا يصلُ إليه مَن جَانَبْته هذه الموهبة الخارقة!

وعُمر رضي الله عنه موضوع البحث كانَ عبقريّاً باعتراف الأستاذ وباعتراف مخالفيه، ولكن مع ذكائه المتقد، وفكره الوضيء قد دَرسَ

القرآن، وألمَّ بالشعر ديوان العرب حتّى كان ناقداً كبيراً بين متذوقيه، وهو بعدُ تلميذُ الرسول ﷺ وجليسُه، والسائر على هداه.

يقول الأستاذ وجدي[1]: «هذه هي العبقريةُ التي تحكمُ بها لعمر ابن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، ومن عجب أنّ الرسول ﷺ قَضَى له بها في حديث كريم، هو «إنّ من أمتي ملهمين محدَّثين وإنَّ عمر منهم» فالملهَمُون هم الذين يلهمُهم الله الأعمال الجليلة، والإبداعات الفائقة، دون إجالةِ رويّةٍ في سبيل الحصول عليها، والمحدَّثون هم الذين تحدّثهم الروحانيات العلوية، وتَهديهم إلى سبيل التفوّق فيما هم بصدده، فعمرُ بنصّ هذا الحديث عبقري بالمعنى العلمي».

وتحليلاً لعبقرية عمر، وضَرباً للأمثلة الدالّة على ذلك، أشار الأستاذ إلى أنّ العبقريةَ لا تقتصرُ على العلوم والفنون والحروب، ولكنها تكونُ في الحكم، ونبوغُ رجلٍ كعمر في بيئةٍ بعيدة عن العلم والفلسفة، وإدراكُه المُثلَ الإسلامية العليا كما أرادها الشارع، وفوقَ ما كان يُدركه فلاسفة النفس وعلم الاجتماع أمرٌ يستوقف النظر، ويدعُو إلى الحيرة، إذ إنّ كلّ ما في الإسلام من التعاليم الاجتماعية يرجعُ إلى أمورٍ كلّية معدودة، كإقامةِ الحق، ومراعاةِ المساواة والعدل، واحترام حرية الناس في القول والعمل، هذه الأمورُ الكلية كان عُمر مثلاً أَعلى في

---

(١) مجلة الهلال، عدد خاص بالفاروق صدر في يناير، سنة ١٩٣٧م، ص١٤ وما بعدها.

تطبيقها، ولهُ في كلّ منها مواقف مشتهرة، وكلماتٌ نابغة، بقيت أعلاماً منصوبةً إلى اليوم.

ومَضى الأستاذُ يشير إلى مواقفَ يعرفها قارئو تاريخ عمر، تدلّ على تواضعه، وأخذِه بالحق الصارم في حكمه، وعملِه على المساواة الدقيقة، ولا أطيلُ في سردها، وإن كان الأستاذ قد أوجزَها في لباقةٍ أدبيّةٍ، بحيثُ صارتْ مع الإيجاز كأنّها كتابٌ ممتد، وإذا كانَ عصرنا الراهن هوَ عصرُ الديمقراطية، فقد أَتى الأستاذ بمواقف خالدةً تسجّل أرقى صفحات الديمقراطية الصحيحة البعيدة عن الأهواء المغرضة، مقارنة بمواقف عمر، ثم ختم بحثه الجيد بقوله:

«إنّ هذه السيرة التي تتجلّى فيها المُثُلُ العليا للحكم في أبهتها، مع تطبيقها إلى أقصى حدودها، لا تتأتّى إلا إذا كانَ القائم بها عبقرياً، نعمْ إنَّ عمر لم يَفْعل غير أنْ نَفّذ الأصولَ التي دُوّنت في الكتاب والسنّة، ولكن تنفيذَها على هذا النحو الباهر، لم يأتِ إلا من طريق العبقرية، فهي وحدَها التي تُلهم صاحبها التوفيق في كلّ ما يعرِض له من الشؤون، وللشؤون الاجتماعية مآزمُ ومآزقُ لا يُغني فيها مجرّد التشدّد في تطبيق حرفيّة المثل العليا، ولكنْ لا بدّ فيها من تصّرفٍ وجداني، يضعُ الأمورَ مواضعها، وهنا مجال فسيح للعبقرية، وإلاّ فَلِمَ قرَّر علماء النفس وجود عبقرية الحكم؟ أليَستْ أصولُ الأحكامِ القويمةِ مقرّرةً مرسومة؟ نعم، ولكن تطبيقَها على الحوادث، وتحويلَ المجريات إلى سبيلها القيم،

واستغلال الظروف لمصلحة الجماعة، دون الإخلال بسلطان تلك الأصولُ، والاستفادة من مرونتها في حدودها المقرّرة، وتعيين مواضع هذه الرخصة وأوقاتها، كلٌّ هذه مجالات تتفاضل فيها النفوس».

هذا بعضُ ما يُقال عن عمر، أمّا شخصيةُ الفاتح الإسلامي فتتمثلُ في أبطالٍ كثيرين خصّهم الأستاذ بالحديث مثلَ أبي عبيدة، وعمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، وقتيبة بن مسلم، وكأنّه أرادَ بتتبّع سير هؤلاء العظام أن يُثبت تطبيقياً ما نادى به الإسلام من الالتجاء إلى الخلقِ الإنساني في أعمال القتال، كما أرادَ أن يُبرهن على أنّ الإسلام لم ينتصر بالسيف كما ادّعى خصومه المغرضون، إذ كلٌّ ما قام به هؤلاء وغيرُهم من فتوح مجيدة كان ضرورياً لحماية الدولة الإسلامية من خصومها، الذين يتربصون بها الدوائر، ويعدّون المؤامراتِ الداخلية تارة، والذخائر النضالية تارة أخرى لاستئصالِ الدولة الناهضة!

لقد كانَ وجدي أميناً في تتبُّع سير هؤلاء البطال كما دوّنها الصادقون من المؤرخين، فلم يلجأ إلى خطابةٍ عاطفية تملأ السطورَ دُون إقناع جدلي، بل تابَعَ الوقائع مُحلِّلاً أسبابها، وموضِّحاً خطواتها، ومفسِّراً نتائجها، وعهدُنا به لم يَنْسَ أن ينصّ في آخرِ كلِّ ترجمةٍ على ما قام به البطلُ من أعمالٍ مجيدة في ضوء التعاليم الإسلامية الخالدة، وكأنّ ذلك وحده كان الهدفَ الأساسيّ من هذه التراجم، مع إعطاءِ القُدوة المثلى لمن يثيرون الحروبَ الآن، علَّهم يفيئون إلى ميزانِ الرحمة العادل، فهو

مثلاً يقول في خاتمة حديثه عن أبي عبيدة الجراح[1]:

«هذا الرجلُ هو أوّلُ مَن وُكل إليه فتحُ الباب العالي في وجه المسلمين، كانَ جامعاً في شَخْصه بين ورع النُّساك المتبتلين (وقد بين ذلك في صلب البحث) وخبرةِ القادة المحنّكين، فلم يكنْ يجرّ أذيال السندس والإستبرق، ولم يركبْ الجياد ذات السُّرُج المحلاّة بالعسجد، ويجولُ مختالاً بين الصفوف تحفُّ به الكماة، وتُرفعَ على رأسه المظلات الحريرية، ولكنّه كان كواحدٍ من جنوده يلبسُ الأسمال، ويأوي إلى كوخ، ويركب حصاناً سَرجهُ من ليف، لم ير أنّه بصدد حربٍ يرجو من ورائها بُعدَ الصيت، وخلودَ الذكر، فيسرف في القتل، ويحرق المدائن والدساكر، ويؤيّم النساء، وييتّم الولدان، ويبعث الرعب في القلوب، حتى تصطكّ الأسنان عند ذكر اسمه، وترتعد البصائر من تخيّل شبحه».

وهذا تعليق صادق، يبيّن مسلك القائد في الإسلام، ويرسمُ ما يجب أن يتّسم به من شمائل، فإذا أردنا تعليقاً يوضّح شجاعة القائد، وحنكته الحربيّة، التي دَفعت به من نَصر إلى نصر، فإننا نذكرُ ختام ما كتبه عن عمرو بن العاص بعد أن فصّل مواقفه النضاليّة موقعةً إثر موقعة، وبيّن سماته الإنسانية الرفيعة كما سجلتها صحائف التاريخ، نذكرُ ذلك فننقل قول الأستاذ وجدي[2]:

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الخامس، ص٥٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص٦١٢.

«هذه سيرةُ فاتح باب القارة الأفريقية، في وجه الدعوة الإسلامية، وإنّه لمن آيـاتِ البطولة أن يُنتدبَ جيـشٌ لا يزيدُ عددهُ عن ثمانية آلاف رجل، لفتح مملكة كانتْ أثمن درّة في تاج الإمبراطورية الرومانية، وكان بها من الحماة والمقاتلة ما يُعدّ بعشرات الألوف، غير ما وَردَ إليهم أثناء الحرب، وغير ما كانوا عليه من كثرة السّلاح، وتوفّر الوسائل، وقُرب المسافة بينهم وبين قاعدة ملكهم.

هذه حوداثُ اعتاد الناس أن يقرؤوها في تاريخ المسلمين معجبين بها فحسب، ولكنّها تستدعي ما فوق الإعجاب حين يُنظر إليها كأثرٍ حيّ لما تستطيعُ أن تقومَ به العقيدة النقيّة، والإيمان الراسخ من الأعمال التي لا تُعلّل بالأسباب الظاهرية.

وإذا كان نابليون يفتخر بأنّه فتحَ مصر بخمسة وعشرين ألفاً من الجنود على شراذم من المماليك، فإنّ عَمْراً قد فتحها بثلث هذا العدد ضدّ إمبراطوريّة كان لها السلطان المطلق في الأرض».

هذا عن معركة المسلمين مع الدولة الرومانية، أما عن معركتهم مع الدولة الفارسية، وبطلها المُعْلَمُ (سعد بي أبي وقاص) فقد قال الأستاذ وجدي بشأنه:

«لقـد تمّ للمسـلمين فتحُ مملكـةٍ من أعرق الممالـك في العلم والمدنيّة، لم يَتَسَنَّ فتحُها لمن سبقَهم ممن دخلوا معها في حرب، فقد أغار عليها الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد، فانتقصَ من

أطرافها، ولكنه خشيَ أن يتوغَّل فيها فيصيب جنودَه الإعياءُ، ويضيّع ما حصل عليه من ثمرات الانتصار، وقد وقعتْ بين الفرس والرومان حروبٌ كثيرة، انتصرَ الأخيرون في بعضها، ولكنّهم عجزوا عن احتلال عاصمتها، والتوغل في بلادها، فأتم الله على يد سعد بن أبي وقّاص ما لم يتمّ على يد الإسكندر، وهو في نظرِ الأوربيين أكبرُ قادةِ الجيوش في العالم، وتمّ على يديه أيضاً ما لم يتمّ على أيدي الرومانيين، وكانت دولتهم تشمل أكثر ما عُرف من أقطار الأرض».

ولم يقتصر وجدي على دراسة الفاتحين في الصدر الأول بعهد الخلفاء الراشدين الزاهر، بل امتدّ إلى سِيَر أبطالٍ تالين، وَالَوا الفتح في أحرجِ مضايقه، وأصْعب ميادينـه، فخصّهم بالتحليل الصائب، ومن هؤلاء (قتيبة بن مسلم الباهلي) البطل الفاتح، الذي دانت له شـعوبُ ما وراء النهر، فسردَ الأستاذُ وقائعه الحربيّة سرداً كاشفاً، وألْقى الضوءَ على بطولات فذّة ساعدت على تحقيق النصر، ثم عمدَ إلى استخلاص العبرة كعهده في نهاية حديثه العلمي فقال[1]:

«إنَّ المسافة بيْن الفرس وحدود الصين شرقاً، وبيْن سيبرية وحدود الهند جنوبـاً، مما يعجزُ السـائح المخف عن قطعها، والتجوال فيها، فكيفَ بالجيُوش الجرّارة، وما تستدعيه من أثقال ومؤنٍ وذخائر وأعلاف، وإذا كانَ مجرّد الجولان فيها من الصعوبة بمكان، فكيف بالقتال فيها،

(١) مجلة الأزهر، المجلد الخامس، ص٦٨٠.

ومحاصرة المدن والقلاع؟ وإذا كان هذا قد تيسّر له[1] فكيفَ يُعقل أن يغامر قائد بعدد محصور من الرجال فيلقي نفسَه في وسط أمم كلّها شديدةُ البأس في الحرب، فينتصرَ بهم هذا الانتصار الباهر.

وقد رأى هؤلاء الأقوام من مدنية المسلمين وعطفهم على الضعفاء والمقهورين ما لفتهم إلى دراسةِ دينهم، فدخلوا فيه أفواجاً.

وما مضى عليهم في الإسلام سنون معدودة حتّى أصبحوا من أنجب أهله علماً وعملاً، وقد نبغَ منهم أئمةٌ رفعوا علم الإسلام عالياً، فمن الذي يصدّق أنَّ البلدَ الذي فتحه قتيبة بن مسلم سنة ٩٢ ينجب بعد هذا التاريخ بنحو خمسين سنة إمامَ المحدثين وشيخ شيوخهم أجمعين، وهو الإمام البُخاري رضي الله عنه، ولا أذكر لك من يدّعى منهم بالنيسابوري، والسمرقندي والنسفي والخوارزمي والأربلي[2] والترمذي، وكلّهم من تلك الجهات المباركة التي لا تزال معاقل الإسلام الحصينة».

وهكذا كان حديث الأستاذ عن أبطال الفتح حديثَ من يلتمسُ العبرةَ، ومن يُحيي الأمل في إعادة مجد الإسلام بعد أنْ احتلّ الاستعمارُ أكثر أقطاره، لأنّ في انتصار السابقين ما يبعث العزمَ على مواصلة

---

(١) لقتيبة بن مسلم.
(٢) أربل مدينة في شمال العراق لا في بلاد ما وراء النهر. (الناشر)

الجهاد، ليعيد الخلف مسيرة السلف، ومن هنا كان التاريخ الإسلاميُّ مصدرَ حياة دافقة، وكان أبطاله المعلّمون في رأي الأستاذ وجدي باعثاً قوياً من بواعث النهضة المعاصرة، التي أخذت تتلمّسُ خطواتها في طريق النضال.

وننتقل إلى حديث الرجل عن بعضِ المفكرين من الأدباء، فنختارُ منهم (أبا العلاء المعري) في القديم مقترناً بتلميذه (جميل صدقي الزهادي) في الحديث، لأنّ الشاعريْن في رأي الباحث الكبير، ينزعان عن قوس واحدة، وقد جَمَعهما التردد الفكري، الذي لا تستقر على حال، فبينما نرى الشاعر المفكر صادقَ الإيمان في قصيدةٍ، نراهُ جاحداً منكراً في قصيدة أخرى، وقد دَأبَ بعضُ المؤرخين على أن يُطلقوا وصفَ الفيلسوف على الشاعريْن معاً، وهو ما رفضه الأستاذ وجدي، لأنّ الفيلسوف ذُو مذهبٍ تأصلتْ قواعده، ورسختْ أصولُه حتى استقامَ واضحاً بين الناس، فلأرسطو ولأفلاطون ومن وليَهم من الفلاسفة آراءٌ مركزة، يؤكّدونها في صلابة لا تعرف التردّد، وبذلك اتضح لكل منهم مذهب فكري قائم الدعائمَ، واضح الملامح.

أما الشاعرانِ فقصارى جُهدهما أن يُمْعنا في الشّك، وأن يثبتا اليوم ما يقومان بنفيْه في الغد، وإذا أرادَ الدارس أن يصلَ إلى رأيهما في ناحيةٍ من النواحي الفكرية ذاتِ المساس بالعقيدة، فإنّه يجدُ أبياتاً تتضارب، وأقوالاً تتصارع! وقد يكونُ الشاعر حائراً في اتجاهه، لا يدري أينَ

يذهب، ولا عليه إذا صوَّر هذه الحيرة، ولكنّه في هذا النطاق حائرٌ متسائل، لا فيلسوف مقرر.

لقد كتب الأستاذ محمد فريد وجدي بحثاً ضافياً تحت عنوان (نصيب المعري من الفلسفة الشرقية) بالعدد الخاص بالمعري من (مجلة الهلال)[1] عرضَ فيه أبياتاً متناقضةً متضاربةً قالَها أبو العلاء، ولا حاجةَ لنا إلى الاستشهاد ببعض ما قاله في إنكار البعث بعبارة صريحة لا تتحمل التأويل، وقد أكثرَ من ذم الدنيا ذمّاً مفرطاً، لا نجد مثيلاً له في كثرته لدى من سبقه من الشعراء، إذ إنّ سابقيه كانوا يلمُّون بالذم إلماماً تدعو إليه مناسبة طارئة كالرثاء أو الزهد، ولكنّهم لم يجعلوه قضية تثار في أكثر من اتجاه، وقد انتَهى الأستاذ من عرضه الشائق إلى قوله[2]:

«يسوغُ لنا بعد هذا كلّه أن نقولَ: إنَّ أبا العلاء المعري لم تكنْ له فلسفة معينة، ولا مذهب مقرر، فإن كان لا بدّ من وضعِ اسمٍ لهذه الحالة التي كانت عليها نفسيته، فهي الحيرةُ والتشاؤم الممزوجَ بالتهكم، وأشبهُ الناس به من معاصرينا هو السيد جميل صدقي الزهاوي الشاعر البغدادي رحمه الله، فقد كان حائراً متشائماً متهكماً (وضرب الأستاذ أمثلة لما عناه) وهذه الحالة من التناقض والحيرة لا تصح أن تكون مذهباً، ولا مستمدةً من مذهب».

---

(١) مجلة الهلال، يونيه ـ حزيران، سنة١٩٣٨م.

(٢) المرجع السابق، ص٨٧٠.

وهنا تطرّق الأستاذ إلى مذهب الشك الذي يُعْزَى للفيلسوف الفرنسي ديكارت، فقال بصدده: «إنّه جعل الشك أساساً للبحث عن الحقيقة، ولم يتخذْه غايةً له، أما التناقض والحيرةُ الممتزجةُ بالتهكم، فلا تصّح أن تكون مذهباً، لا مجتمعة ولا متفرقة، ودواؤُها البحثُ والدرس والتأمّل، حتى يستقرَّ صاحبها على قرار مما وصل إليه الباحثون، ولو أدّى به البحث إلى الإلحاد، أمّا الشك فلا يصح أن يكونَ مستقراً، ولا تصح أن تكون له دعوة».

وختم الأستاذ بحثه قائلاً: «إني أحبّ أبا العلاء وأُجّله كشاعرٍ عظيم طَبعَ الشعرَ بطابع خاص به، ولكنْ لا كفيلسوف بالمعنى الذي يفهمه أهل العصر الحاضر»[1].

وموقف الأستاذ وجدي من الزهاوي يتطّلب وقفةً تُبيّن عزيمته الصادقة في مقاومة الزيغ، ومحاربة الانحراف، فقد زار الشاعرُ العراقي الكبير مصر في منتصف العشرينيات، وأخَذ ينشر بالجرائد المختلفة قصائدَ إلْحادية، تُنهي كلَّ شيء إلى الطبيعة، فهي الخالقة والمنشئة، ولم يكن الشاعر حَذراً فيما يكرّره ويردّده، حتى أصبح شعره مصدر فتنة للشباب، وأخذت الصحف التي تنشرُ قصائده تنعتُه بالفيلسوف، فوقرَ في أذهان الشباب من الأغرار أن كلّ من يتساءل عن الوجود، وينكر

---

(١) مجلة الهلال، يونيه ـ حزيران، سنة ١٩٣٨.

البعث، ويستخفّ بالمبدأ والنهاية أصبحَ فيلسوفاً مفكراً، وتلك فتنةٌ عمياء، أدرك عقباها الأستاذ محمد فريد وجدي، فَواجه الشاعرَ بخطابٍ على صفحات جريدة (السياسة) التي فتحتْ صدرَها لشعره، يسأله أن يَفتح معه بابَ الجدل فيما يقرّره بقصائده، لينتهيا معاً إلى رأي صريح يمنع الاضطراب، ولدلالةِ هذا الخطاب العميقة على عزيمة الأستاذ، ثم على نكوص معارضه وإحجامه عن منازلة الرأيَ بالرأي نسجل خلاصته فيما يلي[1]:

«أيها الأخ الكريم! تحيةً مباركة وبعد: فإني أقرأ ما تجود به على قرّاء العربيّة من نفثات يراعك، فأحيّي تلك الروح السمحة، والعاطفة الرقيقة التي تودعها أبياتك العامرة، وإن كان قسط التشاؤم والنواح على النفس أكثرَ مما ينبغي، وإنَّ أجّل ما أكبره من خلالك، أنك صريحٌ في الإدلاء بمذهبك، إلى حدّ أنك تقرّظ الإلحاد والكفر في صحيفةٍ واسعة الانتشار، وهي جرأةٌ لم أجد مَن ساواك فيها غير الدكتور شبلي شميل رحمه الله[2].

وإنّي على ما بيني وبينك من الخلاف الجوهري في هذا المنحى

---

(١) جريدة السياسة اليومية، ٢٦/ ٩/ ١٩٢٤م.

(٢) قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]. (الناشر)

أُجلُّ فيك هذه الحلة تقديراً لأثرها الصالح في تمييز وجهات النظر المختلفة بعضها عن بعض، وفي تكوين المذاهب الفلسفية، وإعدادها للتفاضل والتنازع بالأسلحة العلمية».

ثم قال الأستاذ وجدي بعد حديثٍ عن النهوض الفكري للأمم:

«آنستُ من السيد أيده الله كلفاً شديداً، بمذهب فناءِ الإنسان بفناءِ جسده، فهل هذا منه عن بحثٍ أعطاه حقَّه من الدخول في مضايقه، والصّبر على تكاليفه، أم هو ثمرةٌ عجلى من نظرات الشعراء، التي لا مددَ لها غير الخيال، ولا باعثَ عليها غير التشاؤم من سوءِ الحال.

إنْ كان الأمرُ الثاني فأنا أربأُ بالسيد أن يقفَ هذا الموقف في أُمَم طفلة، إن انتشر فيها هذا الرأي، كان له أسوأ الأثر في حياتها الأدبيّة، وكفاها بلاءً ما تعانيه من داءَ الانْحلال الخلقي، الذي يساورها في كل مكان!

وأما إن كان الوجه الأول، فأنا أَعجبُ من تأدية هذه النتيجة في عصرٍ قام فيه الدليل العلمي والعملي على وُجود الروح وخلودها، لأوّل مرة في تاريخ الإنسانية، **فهل للأستاذ أن يساجلني البحثَ في هذا الموضوع الخطير، فيعرض أدلته على نفي الروح، وأعرضُ أنا أدلتي على إثباتها**، ليشهدَ القرّاء من هذه المعركة العلمية أجملَ مشهدٍ من مشاهد النضال العلمي بأسلحته الحديثة، فيكون مقَدمةً إلى مصر يُمناً وبركة، كما يجب أن يكون، وأرجو من ورائه أن ينقلب هذا القَدر المفرط من

التشاؤم في شعره البديع، إلى تفاؤلٍ يحيي النفوسَ، ويبعثها إلى استشراف النور من خلف هذه الحجب، التي قضتْ على نفوس كثيرة شرّ قضاءٍ تحت تأثير اليأس القاتل.

وأنا مُنتظرٌ الجواب، على صفحات هذه الجريدة إن سمح به السيد المحترم، وله مني أزكى التحيّة».

وقد حارَ الزهاويُّ أمامَ هذه الدعوة الصريحة، ثم كتب ردّاً بعد ثلاثة أيام يقولُ فيه: «إنّي على سفرٍ من القاهرة، وإنّ الظروف لا تسمح لي، وأنا نزيلُ مصر، بمصافحة تلك اليد البيضاء التي خَدمت الأمة العربيّة بكتاباتها، وأود أن يسمحَ الدهر باجتماعنا في يومٍ من الأيام لمداولة ما عندنا من الآراء».

وهكذا فرَّ الشاعر الحائِرُ من نقاش العالم الثبت الضليع!

ولم ينتهِ الموقف مع الزهاوي إلى هذا الحد، فقد حدثَ بعد وفاة الزهاوي سنة ١٩٣٦، أن ظهرت بحوث كثيرة تُثني على أدبه، وليس في ذلك شيءٌ، ولكن بعضَها قد تورّط في تقدير نزعته الإلحادية، وعدّها سبباً أصيلاً لانتمائه إلى الفلسفة، فهو الفيلسوف الشاعر، وهنا لم يجد الأستاذ وجدي بُداً من كتابة موضوع تحليلي تحت عنوان (الزهاوي الفيلسوف العراقي) قال فيه[1]:

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثامن، سنة ١٣٥٦هـ، ص٣٣٨.

«أنا أعترفُ بأنّ الأستاذ الزهاوي كان شاعراً، ولشعره طلاوة وانسجام في كثير من مواطن القول، ولكنّي أُنْكر بأنّه كانتْ له فلسفة، وكلّ ما يؤخَذُ مما كتبه في كتبه أنّه افتتُن بمقررات العلم، وشغف حُبّاً بالفلسفة المادية، فخلَعَتْه عن العقائد الدينيّة، ولم يستطع أن يتغلّب على عقائده الوراثية، فيُعلن أنّه أصبح مادياً، فوقفَ حائراً لا يدري بأيٍّ فريق يلتحق، أبفريق الذين يؤمنون بالغيب، أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع؟! فاعتراهُ من الهمّ ما يعتري كلَّ واقفٍ بين طرفيْن مِن الوحشة والذعر، فإذا كان الشعر مظهراً لنفسية الشاعر فهذا الّذي أقوله يُؤخَذُ من شعره صريحاً بغير تأويل»[1].

ثم استشهدَ الأستاذ وجدي على رأيه بما لاح في شعر الرجل من التناقض الصريح، ولا داعي لذكر مواضع الاستشهاد.

وبعد: فلقد كانَ الأستاذ وجدي يعرِفُ للشعر رسالةً علويةً خالدةً يجبُ أن يتّجه إلى تحقيقها، لذلك كتب كثيراً عن مزية هذه الرسالة، ودعا إليها في مقالات متعدّدة، وكانت هذه المعرفةُ قديمةَ الصلة بنشأته الأدبيّة، إذ فَتحَ صفحات (الدستور) لكلّ رائع من نبات الفكر شعراً ونثراً، فلم يكن ينشُر بها غير ما يرضي المثل الأعلى الذي يهيم به،

---

(١) فصول من سيرة الرسول، للأستاذ وجدي، جمع وتقديم الدكتور محمد رجب البيومي، ص٣٥٠، نشر الدار المصرية اللبنانية.

وحينَ وجد ـ حينئذٍ ـ شوقي الذائع الصيت، لا يُلبّي نداءَ هذه الرسالة واجَهَهُ مواجهةً قاسيةً قال فيها[1]: «نشأ شوقي شاعراً، فصرف مجهودَه في مدح الخديوي، فقُلنا شابٌّ في حاجة للتوظف، فهو يحاول أن يتمكّن من وضعه بهذا الضرب من الشعر في عصرٍ يعد فيه المديح صناعة العاطلين، ولو أُحصي الشعر الذي قاله شوقي في المديح والتشبيب لبلغ عشرين ألف بيت لا تحفظ له الأمة منه إلا بيتاً واحداً هو قوله:

وإنّما الأممُ الأخلاقَ ما بَقِيَتْ   فإنْ همو ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

ولو استعملَ الشعر فيما أريد منه في هذا العصر، لما تغنّى النشء الجديد إلا بأقواله، ولكان له على عقول الناس أكبرُ تأثير، وهلْ من الوطنية التي تليقُ بشاب عصري أن ينكمش في جدرانِ ديوان، مثلهُ كمثل الببغاء في قفص، ثم يفتتحُ حياتَه السياسية بتصريح لم يبقَ في مصر عقل يدرك، إلاّ عَدّه مروقاً عن معنى الوطنية غير مبالٍ بما يجلبه عليه من سخط أبطالها! ثم خاطب الشاعرَ قائلاً:

حرامٌ عليك أن تَعْقِل مواهبك في سبيل حياة زائلة، وحطامٍ قليل، والعيش أيام معدودة، والعمر رأس مالٍ كبير!.

---

(١) جريدة الدستور، ٢/١٠/١٩٠٨م، نقلاً عن كتاب الأستاذ أنور الجندي، ص٤٠.

وقد استمع شوقي بعد حين إلى نصيحة الكاتب الكبير، فغرّد على أفنان الحرية، وهتفّ باسم مصر والعروبة والإسلام[1].

* * *

(١) ما قاله وجدي فيه ظلم لأمير الشعراء فهل نسي نهج البردة والهمزية، وسلو قلبي وغيرها من روائعه، انظر (شوقي وشعره الإسلامي) للدكتور ماهر فهمي ضمن سلسلة الدراسات الأدبية التي أصدرتها دار المعارف؛ وللأستاذ الحوفي كتاب عن (الوطنية في شعر شوقي). (الناشر)

شخصية فريدة ومثل فريد

يقولُ الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في مقدمة كتابه عن (عبقرية عمر):

«تعوّد الناسُ ممن يُسمونهم بالكتّاب المنصفين أن يحبّذوا ويَنْقدوا، وأن يقرنوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر، لينقلبوا من كلِّ حسنة إلى عيب يكافئها، ويشفعوا كُل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإنْ لم يفعلوا ذلك، فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتحيّر، وهمْ إذن أقلّ من الكتّاب المنصفين، الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون لملام!.

عرضَ لي هذا الخاطر، فذكرتُ قصّة العاهل التي تَحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة في عقار يختلفان على ملكه، فحكم القاضي للسوقة بغير العدل، ليغنم سمعةَ العدل في محاسبة الملوك، وعَزَلَهُ الحاكم، لأنّه ظَلَمَ وهو يبتغي الرياء بظلمه».

وأنا حين تتبّعتُ سيرة الأستاذ محمد فريد وجدي لم أجد بها شيئاً يكون موضعَ المؤاخذة، بل تشدّدت في التقصّي، موازناً بينه وبين غيرِهِ

في حالاتٍ كانت موضع الموازنـة بين الاثنين، فلم أجدني أحيدُ مـرّةً واحدةً إلى غير جانب الأستاذ، مع أنَّ ما دار حولهم الترجيح هم من أعلام العصر أمثال محمد رشيد رضا، ومحمد حسين هيكل، فاقتنعتُ بمثاليّة الأستاذ المنفردة، وخطر لي ما ذكّرني بكلمة الأستاذ العقاد في مقدمة (عبقرية عمر)، فوجدتُني أوص بها إلى غير ما حد، بل وجدتني في تقديري للأستاذ محمد فريـد وجدي ومثاليته الفاضلة، أرجعُ إلى تقدير الأستاذ عباس محمود العقاد، فالعقاد الذي تحدّث عن مئـاتِ العظماء بما هو معروفٌ عنه من دقة التمحيص، وعلانيّة النقد، وعدم الإغضاء عن المآخذ تحدّث عن فريد وجدي فقال[1]:

«هو فريدُ عصره غير مدافع، وتلك كلمة مألوفةٌ طالما ألفتها حتى رثّتْ وبليت، وأصبحت حروفاً بغير معنى، ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الأقلام في عصر واحد، كلهم فريد عصره، وكلهم واحدٌ من جماعـة تُعدّ بالعشـرات، فلا معنى لها في بـاب العدد، ولا في بـاب الصفات، إلا أننا نقولها اليوم عن محمد فريد وجدي لنعيد إليها معناها الذي يصدق على الصفة حرفاً حرفاً، ولا ينحرف عنها يسيراً أو قليلاً حتى في لغة المجاز».

فلقد عرفنا في عصره طائفة غير قليلة من حملة القلام، ورجال الحياة العامّة، فلم نعرف أحداً منهم يُماثله في طابعه الذي انفرد به في

---

(١) رجال عرفتهم، ص١٤٧، ط المكتبة المصرية.

حياته الخاصّة والعامة، وفي خلقه وتفكيره، وفي معيشته اليوميّة، وفي معيشته الروحية، وأَوْجَزُ ما يُقال عنه في هذه الحالات جميعها، أنّه لم يُخْلَق في عصره مَن يتقاربُ المثل الأعلى والواقع المشهود في سيرته، كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل الفريد».

نعم! يقـول العقاد: «إنّه لم يخلق في عصـره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود في سـيرته كما يتقاربان في سيرة هذا الـرجل الفريد»!.

وأنا أصدّق ما قال العقاد بعد دراسة مستأنية، فقد تتبعتُ مواقفَ حياته مقرونة إلى مقرّراته العلمية في مباحث الأخلاق الفاضلة، والمثل الدينيّة العليا، فلم أرَ تَباعُداً ما بين القول والفعل، وقد عهدنا لدى كثير من الكتّاب من يَبرعون في وصف الفضائل الإنسانية، ويدعون إليها في حَميّةٍ تصلُ إلى درجة التوتر، ثم نطالع بعضَ ما أتَوه في دنياهم فنجد الضعف الإنسـانيَّ يحيق بهم في بعض المواقف، بل إننا نجد نفراً من هؤلاء يسيرُ على نقيض ما يأمر، حتى ليجوز أن نصرخَ في وجهه بقول أبي الأسود:

يـا أيُّهـا الـرّجـلُ المُعَلِّـمُ غيـرَه   هـلاّ لِنَفْسِـك كـانَ ذا التَّعْليـمُ!

والرجلُ قد نشأ في بيتٍ كريمٍ ذي ثراء ملحوظ، فوالدهُ من كبار الحكّام ففي مصر، إذ وُلّي إدارةَ عدة محافظات هامة بالقطر المصري، وحوله نُخْبةٌ مثقفة يستمع إلى آرائهم في الدين والأدب والسياسة، فهو

إذن مفكّر يرى ويتأمل ويبحث، بالإضافة إلى مهارته الإدارية!

وقد نشأَ محمد في كنفه، فاهتدى إلى خطّةٍ زاهدة مثاليّة، **فهو لا يأكلُ اللحمَ، بعد أن بلغَ الخامسة والعشرين، ولا يَرِدُ مواردَ النعيم من مصيف وملهى ورحْلة**، ولو شاء لكان ذلك طوعُ بنانه، وهو يحارِبُ البدعَ والمنكرات مرّاتٍ متوالية، متعرّضاً لعدوات كبيرة، يضرُّ أصحابها وينفعون، ويقفُ في وجه الحاكم إذا رأى داعياً إلى ذلك!

ثم هو متواضعٌ تواضعاً شديداً في ملبسه ومأكله، متواضعٌ في سلوكه مع العظيم والصغير، يقومُ لخادمه من كرسيّ مكتبه إذا دخل إليه حاملاً كوبَ الشّاي، فإذا سئل عن ذلك قال: إنّه يراني أقوم لغيره! فكيفَ يكون بمنزلةٍ أقلّ من منزلة الزائر مهما علا شأنه، وهو يُعينُني على أمري في الحياة! وذلك تواضعٌ لا يتكلّفه، بل إنّه يصدرُ طبيعياً عن نفسه، كما يصدر العِطْرُ من الزهر.

ثم يمرضُ أحياناً، ويشتدّ مرضه، فيقرأُ وهو على فراش المرض مقالاً متعسّفاً يهاجم مبدءاً من مبادئ الدين، فيأمرُ أن يُحملَ إليه مكتبهُ الصغير مع القلم والورق، ليردَّ على المقال فورَ قراءته، وهو في مجلسه على سرير المرض، وتُشفِقُ زوجته على حالته، فيقول لها في ابتسامٍ: **تلك رسالةٌ وأنا لا أزال حيّاً لم أمت، فلا بد من القيام بها.**

ويرسلُ المقالات الاجتماعية في محاربة المنكرات والبدع، ثم ينظرُ فيجدُ وليَّ الأمر يدافع عن بعض هذه البدع، ويجد الجرائدَ جميعُها

تؤيده متملّقة، ولكنّه يستمعُ إلى صوت الحق في نفسه، فيرى أنَّ مِن واجبه أن يعارِضَ صاحبَ الأمر، وأن يَصدعَ بقول الحق، لأنَّ الحق أولى من كل اعتبار.

يقول تلميذه الأستاذ عباس محمود العقاد متحدّثاً عن هذا الموقف العظيم[1]:

«إنّ السيد محمد توفيق البكري كانَ مُحْنقاً على الخديوي في بعض السنين، فمنعَ أصحابَ الطرق من الخروج لموكب المحمل تحيةً للأمير في ميدان الاحتفال، فخلا الميدانُ إلاّ من الموظفين المدعوين، وغضب الأمير لأنّه فهم من ذلك أنّه زِرايةٌ بالموكب الذي تَعَوَّد أن يشهده العامَ بعد العام، فانتهر السيد توفيق، وقال له بصوت مسموع على ملأٍ من رجال الدولة: «أنت قليلُ الأدب».

وغضبَ السيد توفيق فانصرف عن الاحتفال وهو يقول للأمير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين: «لستُ أنا قليلَ الأدب، إنني وزيرٌ مثلك، وآبائي وأجدادي لهمُ الفضل على آبائك وأجدادك، ولم تَأخُذْ واحدةٌ من الصحف بناصر السيد البكري في هذا الموقف، لأنّ الصحف الإسلامية لا تُغضب الأمير مِن أجل شيخ الصوفية! ولأنَّ الصحف غير الإسلامية لم تشأ أن تتعرّضَ لمسألةٍ من مسائل الدين، إلاّ صحيفة

---

(١) رجال عرفتهم للأستاذ العقاد، ص١٤٨.

الدستور الّتي كان يصدرها فريد، فإنّها أخذتْ بناصر البكري، وهو من غير المقبولين عند صاحبها، لا اختلافهما في المسلك والسيرة، ولكنّ صاحب الدستور نظر إلى شيءٍ واحدٍ في هذا الخلاف، وهو أنّ مظاهر الطرق الصوفيّة بدعة لا يستحسنها، وأنّ الأمير لم يكنْ على حق في غضبه على شيخ الطرق لمنعْ حضورِها، وتتم هذه الخصلة الفريدة في صاحب الدستور صباحَ اليوم التالي، ليومِ خروج المحمل، فقد اطّلع السيد البكري على الصحيفة، فأرسلَ لصاحبها مبلغاً من المال كانت الصحيفة في حاجة إليه، فلم يقبلْ منه فريد وجدي غير قيمة الاشتراك في عام واحد، ثم ردَّ عليه البقيّة قبل أن ينتصف النهار».

إنّ ذِكرَ موقفٍ حقيقيّ من هذه المواقف يُغني عن مقال تحليليّ يصطنع الأسلوب المنطقي في التحليل والتعليل، لأنّه شاهد ملموس رواه ثقاتٌ عدول، فصار بُرهاناً محسوساً لا يحتمل التأويل.

وقد عهدنا بعضَ مَن يكتبون السير يَلجؤون إلى الاستطراد في تحليل موقف غنيّ بواقعه الملموس عن كل تأييد، وكأنّهمْ يريدون أن يُظهروا براعةً في الاستشفاف البعيد لما ينطوي عليه الموقف! وتمتلئ السطور بل الصفحات بتمحُّلاتٍ قد تكون مفتعلة لا لتؤيّد القضيّة التي تتحدث عنها، بل ليُظهِرَ كاتبها ماله من البراعة! وهذا الضربُ من الاستطراد يُضيّع وقتَ القارئ فيما غيرهُ أولى به من الحديث، ولا أظنُّ قارئاً ينتهي من قراءة هذا الموقف كما نقلْتهُ عن الأستاذ العقاد في حاجةٍ إلى أدلّ على عظمة الحق في نفس وجدي، وترفّعه عن الملق الممجوج، بل إنّ

السكوتَ في مثل هذا الموقف رآه قوم من المتحدّثين عن البدع في مقالات رنانة باباً للسلامة، وأخذاً للحيطة فكتموا ألْسنتهم، وغلّوا أقلامهم، فأيْنَ هم الآن؟ إذا وقَفوا في محكمة التاريخ مع الأستاذ وجدي! ونطقَ القاضي الفيصل بسموّ المَثَل الرفيع لديه، ونكولِ المجاهرين بالحط من البدع عن نُصرة الحقيقة في مأزقها الجريح . . .

أخذ الأستاذ وجدي قلمه بالهدوءِ التام، وتلمّسِ أنواع العُذر لمُعارضيه، لأنّه يعرفُ أنّ الضجيج الصاخب إذا راقَ لبعضَ الأغرار زمناً ما فلنْ ينقضي وقتٌ حتى تلوحَ الحقائق، فيذهبُ الزبد جفاءً، وهذه المعرفة تأصّلتْ فيه منذحمل أمانة العلم، فكنتَ تراه وهو يافعٌ يدرجُ مَدارجه الأولى نحو الشباب، يعشق هذا المذهب، حتى كادَ يلومه عليه من يُقدّره حقّ قدره، وقد تحدّثَ الأستاذ عن مقابلةٍ أولى بينه وبين الزعيم الأشهر مصطفى كامل دارَتْ حولَ ردّهِ المفحم[1] على كرومر، فقد أُعجب به الزعيم الوطني، ولكنّه أخذ عليه هدوءَ لهجته، واحترامَ مناظره إلى درجة التوقير، ولطرافة الحوار الذي دار بين الرجلين الكبيرين بمقامهما الرفيع لا بالسنّ الناهضة أنقلُ ما ذكره الأستاذ محمد فريد وجدي بصدد ذلك.

قال الأستاذ وجدي بعد مقدمة وَصفَ فيها ارتياحَ الزعيم لمقالِ فريد قَبْل أن يعرفه شخصياً، وكتابة خطابٍ له مُرحِّباً بلقائه، واحتفاءَه

---

(١) الرد الأول، أما الرد الثاني فذو صلابة كما سلف القول.

بمشهده في دار اللواء احتفاءً كريماً، قال الأستاذ وجدي[1]:

«طفقَ صاحبي يكلّمني في أمرِ الردّ، ويظهر أنّه مسرورٌ جدّاً من مبادرتي بنصرة الدين، وكبت الملحدين، وأطنب في الثناء على ذلك ما شاء ثم قال:

هذا كلّه حسن، ولكنّي أرى في مُقدمتك ليناً في اللّهجة، لا يصحّ أن تكون عليه في ردّ مطاعن على الإسلام وجّهها إليه رجل من غير أبنائه، لا همَّ له إلاّ جرح عواطف المسلمين، وتشويه سمعتهم.

فقلت له: أليسَ إلانة القول معَ قوة الحجة خيراً من الشدة التي ربما تنفّره من قراءة البحث كله، فيفوتني الغرض من كتابته، وهذا فرعونُ موسى الذي ادَّعى الألوهية، وافتأتَ على الله، أمرَ اللهُ موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولاً ليّناً، لعله يتذكر أو يخشى، وأمّرنا الله بذلك نصّاً، فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وما الذي يضيرني أن ألَنْتُ له المقدمة استدراجاً، حتى إذا ما تورّط معي في البحث، وأنستْ روحه منّي قصد الحقيقة اطمأنّ إلى الموضوع وأشربه قلبه.

---

(١) محمد فريد وجدي للحاجري، ص١٤٧؛ نقلاً عن جريدة الدستور الصادرة في ١٦/ ٢/ ١٩٠٨م.

فقال: كلا إنك لم تُلن له القول فقط، بل عذرته فيما قال أيضاً، وقُلتَ: إنّ في المسلمين أنفسهم مَن يقول مثل مقالة كرومر، افتتاناً بالعلم الأوروبي، وكفى بجملتك هذه مبرِّراً للرجل في تبرئة نفسه، فيقولُ: إنّه معذور فيما كتَبه بدليل ما كتبه فلان في جريدة (اللواء) ويسردُ عبارتك بالنص، فتكون قد أعطيتَه أكبر سلاحٍ يُدافع عنه.

فقلتُ له: كل هذا ممكن، ولكنّي لا أنظر لهذه الاحتمالات ما دام موضوعي الذي أبحث فيه دينيّاً، وربّ الدين يقول: ألينوا القولَ للمخالفين.

قال: يا أخي، نحنُ في موضع يجبُ علينا فيه أن نبثّ في الأمة روحَ الحميّة، والعبرةُ بالكتابة المؤثرة، وهذه فرصةٌ من أجمل الفرص لذلك، لا أنْ نُقابلها وهي في هذا الغليان بما يكْسِر نفوسها، ويطامن من إشراقها».

في هذا الحوارِ ما يمثّلُ وجهةَ نظر وجدي في المجادلة بالتي هي أحسن، وللزعيم وجهتهُ السياسية التي نراها صادقة النظر بالنسبة إلى وطنيّ ثائر، جرّب الأمور تجربةَ البصير النقّاد، ومع ذلك فلم تُغيّر هذه المناقشة شيئاً من اتجاهِ وجدي، بل ظلّ متمسكاً به في نقاشه العلمي طيلة حياته، ولم يندفع إلى الغضب في ردٍّ من ردوده الكثيرة تلك التي فاقت حَدّ الإحصاء إلا مرةً واحدةً مع السيد محمد رشيد رضا، وكان مُحقاً كلّ الحق في اندفاعه هذا، لأنّ السيد محمد رشيد رضا على جلالة علمه،

وعلوّ مقامه بين أعلام الفكر الديني المعاصر كان ذا حِدّة غير محمودة في تناول آراء النظراء، وآثارهُ تشهدُ بذلك، فقد هاجَمَ السيد محمد الخضر حسين مرّتينْ دُون ضرورة ما إلاّ الخضوع لهوًى شخصي، كما كتبَ عن عبد المحسن الكاظمي رحمه الله بعدَ رحيله ما كان يجب أن يتحرّز منه عالمٌ فاضل يكتب تفسيراً شافياً لكتاب الله! حتى ضاقتِ الصدور بهول ما كتب! وقد زادَهُ إيغالاً في ذلك ما لَمسه من هدوء أكثر خصومه أمامَه، وعدمَ اندفاعهم للقول بالمثل، ولكنّه وَجَد من الشيخ عبد العزيز جاويش خصْماً عنيداً، فلم يستطعْ مقاومَته، وآثر الانسحاب!

ونعودُ إلى مَسْألته مع الأستاذ وجدي، فإنَّ صاحب (المنار) رحبّ بكتاباته الدينيّة، وزاره في دمياط، ثم كتبَ لصديقه الشيخ المغربي مُثنياً عليه، وراجياً له أتم التوفيق كما ذكرنا من قبل وهذا حق، وحين أصدر فريد كتابه عن (المدنية في الإسلام)، قرّظَه تفريظاً رائعاً، وقرنه بكتاب (رسالة التوحيد) للأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله، وإلى هنا والصداقة وطيدةٌ تأخذ سبيلها الموفّق، ولكن الغيُوم أخذت تتلبّد في أفق رشيد، حين أصدرَ فريد وجدي مجلة (الحياة) وكأنّه رأى فيها مُنافساً قوياً للمنار، وما كانَ له أن يذهبَ هذا المذهب، لأنّ اتجاه فريد وجدي في تحرير الحياة غير اتجاه رشيد رضا، وإن اتفقا معاً في الهدف الأصيل، وهو الدفاع عن الإسلام ونشر تعاليمه.

كانَ وَجْدي يعمد إلى شبهات الأوروبيّين فيدحضها، ويقدّم من ثمار المنصفين ما يصلحُ أن يكونَ تأييداً للاتجاه الإسلامي.

أما (المنار) فصاحبها عالمٌ ديني، مراجعه كلّها تنحصر في كتب التراث، فهو متضلّع في كتب الشريعة والعقيدة، ويدافع عنهما بما تضلّع فيه من ثقافته العريقة، وكلاهما مكمّل للآخر.

وأحرى برشيد أن يؤيّد صاحبه، وأنْ يؤازره بدل هذا العداء الصارخ الذي أعلنه حين أنشأ محمد فريد وجدي مدرسةً علميّة هو أستاذُها الأوحد، يقوم فيها بإلقاء دروس عن الإسلام في عهده الراهن، وما يُجابَهُ من حروب تستدعي اليقظَة، وكأنّ الأستاذ محمد فريد وجدي شاءَ بذلك أن يكوّن من تلاميذه جبهةً تدافع عن الإسلام، وقد فَهِمتْ ما يُحيط بها من تيارات عدائية، وفي الشبيبة من يتطلّعون إلى خدمة الإسلام، ويحتاجون إلى قائدٍ بصير مثل الأستاذ محمد فريد وجدي، وبدلاً من أن ينتظر صاحب (المنار) حتى يَرى ثمرة هذا الجهد الكبيرَ الذي حاول فردٌ واحد عظيمُ الهمة أن يقوم به، فإنّه أفردَ صفحات (المنار) للهجوم على الرجل دُون ذنب جناه، بل للهجوم عليه لأنه عملَ عملاً صالحاً يُحسَبُ له في ميزان حياته:

فقد أتاحَ الله للأستاذ وجدي صديقاً مخلصاً هو الأستاذ سيد محمد صاحب المدرسة التحضيرية، فَسمح بأن تكون مدرستُه الفسيحة مكاناً للمدرسة الجديدة، وقد سمّاها فريد وجدي مدرسة (العلوم العالية) قَبْل أن تنشأ الجامعة المصرية بتكوينها الحديث، وأعلَن أنّ الغرض منها تخريج فرقةٍ من حملة العلوم الدينيّة في المعارف العصرية، والفلسفة

الحديثة، ليكونوا على بينةٍ من أمر الدفاع العصري عن هذا الدين الحنيف.

وما كادَ محمد فريد وجدي يُلقي محاضرته الأولى تحت عنوان (فلسفة التشريع) وينشر خلاصتها في جريدة (اللواء) حتّى ركبتِ الحمى نفس السيد محمد رشيد، فاندفعَ يخط في المنار تهكّماً صارخاً بالرجل، ويقول:

إنّه جاءَ في مقاله بأمور تعزى إلى الإسلام وهو لا يعرفها، مثل ما كان من قبل في مقالاته بالمؤيد واللواء التي سكَتنا عنها، ولم ننقدها، لأمور ثَنَت عزمنا عن ذلك: ! وهذا كلامٌ ذو خطورة، لأنّ محمد رشيد رضا كان يرحّب من قبل بمقالات وجدي، وقد أثنى على كتابه في (المدنية والإسلام)، ونَشَر بعض البحوث في مجلة (المنار) محبذاً مستجيداً. فكيفَ تكون مقالات (اللواء) و(المؤيد) من قبلُ موضعاً لاتهامه؟! وإذا كانت خارجة عن المنطق الإسلامي، فلماذا سكتَ عنها إلى اليوم!

ثم أخذَ يشهّر بها بعد أن أعلنَ تقديره للرجل مرات لا مرّة واحدةً، لقد عزّ على رشيد أن يقومَ زميلٌ فاضلٌ له بكفاحٍ مشهود في مجال فكريّ رائع، فنشر في (المنار) مقالاً مسهباً من خمس وعشرين صفحة يردّ فيه على مقال (فلسفة التشريع) تارة، ثم على شذورٍ وردت في (كنز العلوم واللغة) من قبل، ورمَى الرجل بالكذب وعدم الأمانة والغشّ، دونَ أن يبرز المواضع التي حدثت فيها هذه الجرائر!!

ثم قال: إنّه لم يتعلّمْ تعليماً مدرسياً[1]، وإنّه سقط في المدارس الحكومية! إلى هذا الحدّ من الإسفاف انحدر رشيد في تهجّمه! فأحرَجَ نفسه أمام العقلاء، إذ لو كان صادقَ النيّة لا قتصر على النقد العلمي مهما خُولِفتْ وُجهته فيه، ولكنّه اتجه إلى الطعن في أخلاق الرجل، ورَماه بما هو منه بريء!

وطبيعي أن يثور فريد وجدي، وأن يكتبَ ردّاً يكشف فيه أسباب التجني، ولَه العُذرُ في ذلك كلّ العذر، ولكنّه بعد همود ثورة الغضب في نفسه، عادت إليه أناته، فكتبَ في العدد التالي من مجلة (الحياة) يقول[2]: «**ربّما كانت هذه أول مرّة قابلنا فيها الإساءة بمثلها، ويُجب ألاّ تُحفظَ هذه الملزمة في مؤلفاتنا، ونرجو من حضرات القراء رفعها عنها، وقد جعلنا أرقام المجلة تابعة للملزمة التي قبلها، هدانا الله لخير الأقوال والأعمال، وحفظنا من زلات الأقلام**».

ماذا يقول القارئ في هذا المسلك الغريب حقاً في دنيا الناس! إنسانٌ يتهجّم على إنسان، فيصفه بالكذب والغش والجهل، ويدّعي أنّه رسب في امتحان المدارس، وينتقل من الخلاف العلمي إلى مهاترات

---

(١) بل هذه مفخرة للأستاذ وجدي لو أنصف رشيد رضا، أما كان أينشتاين طالباً فاشلاً في المدرسة، وبعد تركه لها وطلبه العلم بنفسه صار أحد عباقرة الدنيا! (الناشر)

(٢) محمد فريد وجدي للحاجري، ص١٣٩ .

مريضة عادَ إثمها عليه وحده، ثم يضطر المنقود إلى مجابهته، وهذا حقه المفروض، تنفيذاً لقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤١] فإذا تمّ ذلك، راجَع وجدي نفسه، وعلم أنّه حاد عن مثاليّته العالية في المجادلة بالتي هي أحسن، فدَعا القراء إلى حذف ما قال، وغيّر أرقام المجلة لتكون مطّردة العدد بعد حذف ما وجّهه إلى صاحبه! ثم استغفر الله، ودعاه أن يُجنّبه زلاّت القلم، ويهديه إلى خير الأقوال والأعمال».

إنّ الذي يتأمل هذه السطور وما قبلها، يعرف أن وجدي كان بأخلاقه الرفيعة فريداً في عصره.

ثم ماذا هَلْ أُسدل الستار على منازعة الشيخ رشيد رضا إيّاه؟

إنّ صفحات المنار نشرتْ بَعض اعتراضات الرجل على مقالاتِ وجدي، وقامَ بالرد عليها في أدب، والخلافُ طبيعيٌّ بين أستاذ ثقافته واسعة شاملة، تضّم التراث العربي إلى ما أثمرت عنه البحوث الغربيّة من بحوث، وبين أستاذ توسّع في الثقافة الإسلامية توسعاً رائعاً لا ينكره أحد، حتّى أعتى خصومه، ولكنَّ غضبةً اعتادت السيد رشيد حين أصدر الأستاذ وجدي في أوائل الثلاثينيات كتابة الرائع (الإسلامُ دين عام خالد) ومن حديثه أنّ ملحداً أوروبياً كتب مؤلَّفاً سمّاه (مسائل في الدين) بدأه بالطعن على حقيقة الدين بعامة فهاجم قضية الوحي، وأنكر عالمَ الغيب، حتى إذا قضى أَربه من ذلك اتّجه إلى الإسلام، فردّد شبهات عن مجافاة

الدين الإسلامي للعقل ومحاربته إياه، وعَن جموده أمَام التّجدد الحضاري ووقوفه أمام الترقي العلمي المتواصل، واتجه إلى شريعة الإسلام فنابَذ الحدود، وتَهكّم بالمتشابه في النص القرآني، وخاضَ خوضاً أليماً كلُّه تهجم، ثم جعلَ خاتمة بحثِهِ افتراءات على رسول الله ﷺ، مدّعياً أنّه كان عصبيَّ المزاج، يفتَعلُ قضيــة الوحي، ويولع بإثــارة الحروب وسفك الدماء، حتى إذا بلغ مبلغ التّبجح في هذه المفتريات تحدّث عن المرأة والطلاق، وتعدد الزوجات، وعن الأكثريّة الفقيرة في الإسلام إلى جوار الأقلية المختّصة بالنعيم والرفاهية! كلُّ ذلك ممّا تكلفه صاحب (مسائل في الدين)، وقد تحدّثت الصحف عن بعض محتوياتـه، ووجد ممّن يُسـيئُهم أن يُذكَر الإسلامُ بالخير من يسـارعون إلى تقريظه في صحف عربيّة يقرؤها المسلمون، لذلك سارع الأستاذ وجدي بردّ كلّ ما ذكره الكاتب من المزاعم، وجعلَ ذلـك فصولاً متتابعة نشـرها أولاً بجريدة (الجهاد) اليومية، وقد احتفل بها صاحب (الجهاد) الأستاذ الكبير (محمد توفيق دياب) احتفالاً يناسب قدرها العلمي من ناحية، ومكانة كاتبها العظيم من نـاحية ثانية، فجعلَ ينشرها في صفحة (الأخبار) المحلّيـة متعمداً، لأنّها أروجُ الصحائف لدى القراء! وبذلك يتّجهون إليها أول ما يتجهون، كما توالتْ على جريدة (الجهاد) مقالات التأييد وخطابات الثناء مُوجَهة للكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي، حيث قامَ مقاماً لم ينهض به سواه، ثم جمعت هذه المقالات في كتاب سماه صاحبه (الإسلام دين عام خالد) فتعدّدت طبعاته، حيث وجدَ الرواج المنتظر.

وكانَ المظنونُ بالشيخ رشيد في هذا الّجو المرحّب المشجّع، أن يسْتقبلَ الكتاب بما يدلّ على اغتباطه، أو على الأقل على حياده! ولكنّه هجَم على المؤلف قائلاً: «إنّه لم يتبحرْ في الدراسة الإسلامية كما تبحر فيها أساتذة المعاهد الدينية، والمتخصصون من رجال الدين»!

وإني لأسْأله لِمَ لمْ يكتب المتبّحرون هؤلاء رُدوداً حاسمة في مقامٍ تجريحيٍّ يعرض له الإسـلامْ بالإرجاف؟ وأيْن هُـو؟ وأيـن مجّلتـه؟ وما نَصيبها من دفع هذه الحملة النكراء؟

لقد قرأ الأستاذ وجدي ما كتبه الشيخ رشيد، ولمْ يرد عليه، وكأنّه رأى في السكوت شفاءً للصدور، على حين قرأنا لبعض أساتذة الأزهر نقداً لاذعاً لما قاله الشيخ رشيد، ورأى صاحِبُ المنار أنَّ المسألة الجدلّية ستدورُ بينه وبين أستاذ الأزهر، فآثر السكوت!

أيذْري القارئ ماذا قصدتُ من حديث السيد محمد رشيد في باب الحديث عن شخصية الأستاذ فريد؟ : لقدقصدتُ أن أعلنَ مثالية الأستاذ الرفيعة، فقد شاءَ الله أن يَرحلْ صاحبُ المنار إلى جوار ربه بعد أمد قصير من هجومه على كتاب (الإسلام دين عام خالد) ولو كانَ إنسانٌ آخر، وُوجِه من السيد رشيد بما وُوجه الأستاذ فريد وجدي رحمه الله لأغضَى النظر عن رثائه والتنويه به بعد رحيله، ولكنّ أخلاق الأنبياء التي يَعْتصم باحتذائها الأستاذ المثالي أشعرته باللوعة على فقد عالمِ إسلامي كبير، كانَ يقف معَه في جبهة الدفاع عن الإسلام مهما اختلفت الأداة، وقد تأكّد

أنَّ الإسـلام قد خَسِر بوفاتـه مدافعاً أصيلاً، وحبراً جليلاً، أدّى دوره الإصلاحي بما استطاعَ من نضال، فقال في معرض رثائه[1]:

«لقد تجرّد السيد محمد رشيد رضا لخدمةِ الإسلام، ووَقفَ له كلّ ما وهبه الله من علم وقوة وصبر ومثابرة، وليْس يؤسف الناس من وفاته خفوت صوت من أرفع الأصوات في الدفاع عن الإسلام فحسب، ولكن من خلوّ مكانٍ رفيع، كان يشـغله أيضاً بين العاملين على تطهير عقول المسلمين من البدع التي اعتبرها عامّتهم من الدين، وليست منه من شيء.

نعم إن ثورة المرحوم السيد رشيد على البدع لا يُوجَد لها نظير إلاّ في أفراد من السلف، فقد صَمد لها صموداً أُشفق عليه منه، حتى الذين كانوا يشاطرونه رأيه من العارفين، ولكنّهم لم يؤتوا الشجاعة التي أُوتيها، فباتوا يتوقعون له الشرَّ المستطير، وقد لَقي منهم ما لو لَقيه سواه لصدّه عن السبيل، ولكنه ثبَت للمعارضين، واستبسلَ في الكفاح أيَّ استبسال، حتى استطاعَ بفضل إخلاصه وصبره أنْ يحدث في الصفوف المتراصّة، ثغرةً اقتحمها على مناوئيه، وفي أثرِهِ جمهور غفير ممن كانوا لا يجرؤون على مواجهتها مجتمعين، فأصبَحْنَا وللسنة الصحيحة أنصار مجاهدون، وحيال البدع خصوم مجاهدون.

فلو لم يكن لفقيدِ العلم والدين السيد رشيد غيْر هذا الموقف،

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص٥١٠، سنة ١٣٥٤هـ.

لخلّد ذكرُه في تاريخ المسلمين، فما ظنّك به، وقد أسقطَ دولةَ التقليد، تلك الدولة التي قضتْ على المسلمين بأن ينقسموا شطرين، شطراً جمدوا على ما هم عليه من التقاليد المنافية لروح الدين، وقوماً مرقوا من الإسلام، واتخذوا لهم طريقاً غير طريق المؤمنين، ولو دامَ سلطان التقليد لقضَى على حزب التجديد، وهي كارثةٌ جدير بكل من يعرف حقيقةَ الإسلام أن يذوبَ قلبه أسفاً منها.

فكان السيد محمد رشيد البطل المعلم في هذا الموطن الشريف، تلقَّى فيه بصدره كلَّ ما يتلقاه المصلحون من الجامدين، وكان لجهادِه أثرٌ بعيد في تبصير المسلمين بسماحة دينهم، وببقاء باب الاجتهاد مفتوحاً إلى يوم يبعثون».

هذا بعض ما قاله الكاتب المنصف الأمين في رثاء من جعل يناوئه دونَ حق، وهو بذلك يعطى مثلاً عالياً في نزاهة الخلق، ومثالية الاتجاه. وهو مثلٌ فريد في زمن نسمعُ فيه ونرى ما لايكاد يُصدّق من الأعاجيب.

وهنا أذكر أني كتبتُ مقالاً في كتابي (من أعلام العصر، كيف عرفتُ هؤلاء) تحدّثتُ فيه عن الأستاذ وجدي حديثاً صادقاً، ومما يُناسِبُ هذا الموضوع أن أنقل منه هذه الفقرات ببعض التصرّف[1].

---

(١) من أعلام العصر (كيف عرفت هؤلاء) للدكتور محمد رجب البيومي، ص٥٣، الدار المصرية اللبنانية.

حين انتَقلتُ إلى القاهرة طالباً بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، كانَ لقاء الأستاذ محمد فريد وجدي أوّل أمنية أحققها، فتقدمتُ إليه مذكّراً بما كانَ أرسله إليّ من رسائل، وحدّثْتُه عن مقالاتٍ قرأتها بقلمه، وحاولتُ احتذاءها، وأهدى إليَّ طائفةً من كتبه القيّمة.

وقد حدثتْ نادرةٌ خاصةٌ به تعجبتُ لها، إذ كنتُ أزُور قريةً ريفيّةً، وكانَ عاملُ البريد بها مسيحياً ذا ثقافة، فَجَمَعنا مجلسٌ علمي علمتُ من خلاله أنَّ الأستاذ محمد فريد وجدي راسله مراسلاتٍ علمية بلغتْ عشر رسائل، وكلُّ رسالة تزيدُ على ستّ صفحات كبار تؤلّف كتاباً قيّماً، فتعجبتُ كثيراً، وقلتُ في نفسي، لماذا لم يَنشر الأستاذ رسائلَه العشر في صحيفة سيارة؟ أو يجمعها في كتابٍ مطبوعٍ، لينتفعَ القرّاء بثماره الفكرية؟ بدل أن يخصّها بإنسانٍ واحدٍ في قريةٍ صغيرة، وأصْرَرتُ على أن أسأله عما صنع، فلما جئتُ لزيارته قصصتُ عليه ما سمعتُ، فنظر إليَّ باسماً، ثم قال في هدوء: لَقدْ كتبتُ مقالاً عن المسيحيّة والإسلام في (مجلة الأزهر)، فأرسلَ إليَّ هذا الرجل ردّاً مليئاً بالأفكار المخطئة، وخِفْتُ أن أنشره معقباً بدحضه، فيحدثُ بلبلةً لدى إخواننا المسيحيين لا أرتضيها، ثم خشيتُ أن أهمله فيظنّ حديثه صحيحاً، وأني أهملتُه عن غرض، فرأيتُ أن أفندّ آراءه في كتابٍ خاص، بعثتُ به إليه، ولكنه ردَّ في إسهاب، وانتقلَ من موضوع إلى موضوع، فدَفعني ضميري للرد عليه، وكررَ التعقيب فكررت الرد، آملاً أن ينتهي النقاش إلى حد حتى إذا نفدَ صبري اعتذرتُ بعد عشر رسائل!

ثم قال الأستاذ في تواضع: إنّ الفكر أمانةٌ، وصاحبُ القلم ليس مخيّراً دائماً فيما يكتب، ولكنّه يفاجأ أحياناً بما لا سبيل إلى السكوت عنه فيحملُ يراعه كما يحمل المجاهد في حومة القتال سلاحه، والله عليم بذات الصدور.

هذه مواقف فريدة في بابها، وصاحبُها باحث فريد في خلقه، وهي بوقائعها الماثلة مجالٌ للأسوة الفاضلة والاحتذاء الحميد.

* * *

الخاتمة

لا أدعي أنّي استوفيتُ كلَّ ما يجب أن يقالَ عن الأستاذ محمد فريد وجدي، وعن فكره الموسوعي، الذي امتدَّ إلى آفاق رحيبة يصعبُ اجتيازُ مشارقها المترامية، ولكنّي أزعم أني حاولتُ أن أقرّب أفكاره الوضيئة إلى جيل لا يكاد يعرف عنه شيئاً، داعياً لقراءة آثاره في مظانها المختلفة، وقد كتبتْ هذه الآثار بأسلوب قويّ، يستطيعُ أن يرد القراء إلى عهد الكتابة الزاهرة في المنتصف الأول من هذا القرن، حين كان البلغاءُ من أمثال مصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات وعبد العزيز البشري وعباس محمود العقاد وأحمد أمين وطه حسين ومحمد حسين هيكل، يسيطرون على الحياة الأدبيّة سيطرة قوية، وهؤلاء جميعاً يعدّون تلاميذ للأستاذ محمد فريد وجدي، إذ سبقهم زمنياً في ميدان البحث الأدبي، وقد اعترف الأستاذ عباس محمود العقاد بأستاذيته القادرة.

كما أوضحتُ في هذه الكتـاب، والتاريخ أكبرُ شـاهدٍ، أنه لم يعترف أحد بفضله، لأنه تعاطى القلم في نهاية القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، وقد جارى الإمام محمد عبده حين شاركه في الردود المفحمة على خصوم الإسلام، فكانت مقالاتُ الشاب الناهض تجاور مقالات

الإمام المصلح، وقد اعترف الأستاذ السيد محمد رشيد رضا بهذا التماثل في مقال أشرتُ إليه، ونقلتُ بعض سطوره.

ويبقى المثل الأعلى الذي لم يجارِ الأستاذ فيه أحدٌ من تلاميذه، وهو سعة الصدر مع المخالف إلى درجة لم نسمع بمثلها من قبل، ونحن في حاجة إلى الاقتداء بهذه الصفة الرفيعة، لأن بها تضيق فجوات الخلاف، ويميل المعاند إلى الإنصاف.

وإذا نجح هذا الكتاب المتواضع في جذب الشبيبة المؤمنة إلى آثار هذا العالم الموسوعي الكبير فقد بلغ غاية ما يرجوه مؤلفه من أملٍ عقد العزم على تحقيقه بكتابة هذه الفصول، والحق لا يعدِمُ النصيرَ مهما تكاثف الظلام، وران الجحود.

* * *

الفهرس

* * *